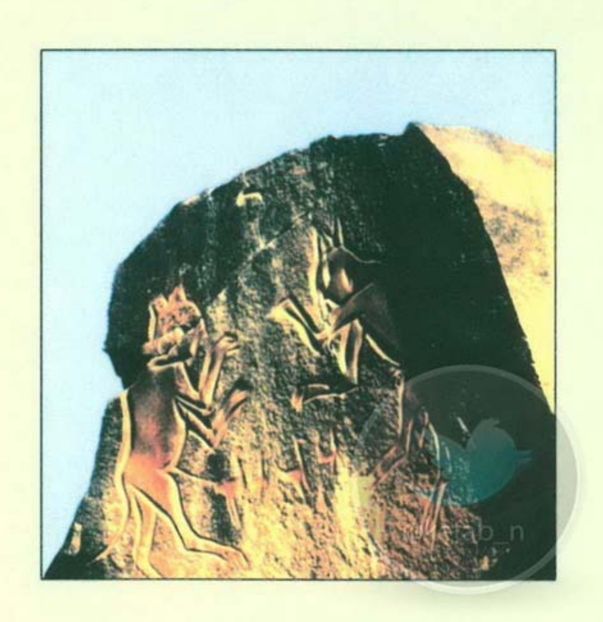
I B R A H I M   A L - K O N I

روايات
NOVEL

إبراهيم الكوني

البحث عن المكان الضائع







إبراهيم الكوني

البحث عن المكان الضائع



البحث عن المكان الضائع

البحث عن المكان الضائع / رواية عربيّة
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ - ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سعيد سيب ®
لوحة الغلاف :
فنانو ما قبل التاريخ (وادي متخندوش) الصحراء الليبيّة
الصفّ الضوئيّ :
طبّارة ، بيروت ، لبنان
والتنفيذ الطباعيّ :
مطبعة سيكو / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-36-040-5

«يشمل كلّ جيل من الفريقين (جيل شيت، وجيل قابيل) على مملكتين مختلفتين: مملكة سماوية يهاجر أهلها في الأرض، وأخرى أرضيّة يتشبّث أصحابها باللذّات الدنيويّة».

القدّيس أوغسطين

«ملكوت الرّب» (١٥: ١٥)

⊛ ⊛ ⊛

«لم يكن الله الخيّر في أعلى مراتب الخير، يسمح بأي حال أن يجد للشرّ في أفعاله مكاناً، لو لم يكن قادراً على تحويل الشرّ خيراً».

القديس أوغسطين

⊛ ⊛ ⊛

«الرحمة الإلهيّة الواسعة قضت بوجود الشرّ لا لشيء إلاّ لتحوّله إلى خير».

القديس توما الأكويني

(Summa theologica)

⊛ ⊛ ⊛

«لا أعلم أيّ الأمرين أفضل: شرّ يجلب خيراً، أم خير يجلب شرّاً».

ميكيل أنجلو

الجـــزء الأول

القسم الأول (النزيل)

١ ـ الداهية

في أشباح العابرين قرأوا دائماً رسالة خفيّة: يحملون في أقدامهم المطر أحياناً، كما يجلبون للديار شروراً أحياناً أخرى. ولهذا ساءلوا العرّاف عن نوايا القادم الجديد قبل أن تدبّ في الواحة البلبلة. ولكن العرّاف (كعادة هذه الملّة الشقيّة التي لا تستطيع أن تشبع الفضول، ولا يستطيع الناس أن يستغنوا عنها أيضاً) لم يفعل إلاّ أن أجّج في القلوب مزيداً من الفضول بسبب أقواله الغامضة التي تذكّر بالأحاجي وضروب الألغاز.

ولم يكن أهل الواحة ليشكّوا في أمر الغريب لو لم يهبهم المبرّر بمسلكه المريب. فقد اعتاد الناس أن يهرعوا لاستضافة النزلاء، وإغراقهم بمراسم الترف بدايةً بنحر الأنعام، ومروراً بإحياء حفلات السّمر، ونهايةً بتكبيلهم بأغلال القران من بناتهم. وقد حاولوا أن يحتكموا إلى نفس الحِيَل مع العابر المريب، فأرسلوا الأبله بعد زمن ليجسّوا النبض ويقفوا على الهويّة، لأنهم سنّوا لأنفسهم عُرفاً قديماً يؤدّي فيه أبله الناس دور رسول الحقيقة

ليقينهم بأن الغرباء بطبيعتهم قوم متكتّمون، غامضون، يخفون أكثر مما يظهرون، وإلاّ لما عبروا الصحاري يوماً، ولما اختاروا الانتماء إلى سلالة الغرباء أصلاً. فإذا أخفق البلهاء في دورهم بعثوا للنزيل بأحد العقلاء، فإن أخفق أيضاً أرسلوا للداهية بسليل الدهاء في الواحة، بل ربما في كلّ الصحراء: العرّاف!.

ولكن الغريب هذه المرّة أعجز الطابور كلّه، مّما ضاعف من شكوك الأهالي وحيّر العقلاء. العرّاف أفاد، عندما استنطقه الأكابر، بقول مبتسر غامض على عادة العرّافين: «كل يوم أزداد يقيناً بأن الإنسان لا ينطلق بعيداً ليبحث عمّا يخفيه السراب بلا سبب». في حين علّق «إليلي» على اللقاء ببيان أكثر وضوحاً: «وراء الأكَمَة ما وراءها، فاحترسوا!». أمّا الأبله «إدهي» فقد قال ما لم يقله الكلّ عندما أعلن بعبارة أثارت استنكار العقلاء والدهماء على حدّ سواء: «الحقّ أقول: أفضل ما تفعلوه أن تنحروه الليلة قبل الغد»!.

٢ ـ النساء

على أطراف الواحة الغربية الجنوبيّة اعترضت سبيله العين فهاله مرأى الماء السخيّ المطوّق بسدود ترابيّة صارمة، فتحرّر من ثيابه ونزع لثامه، ورمى بنفسه في اليمّ الشهيّ بلا إرادة. أثار بيديه وقدميه صخباً جرح سكون الماء وصمت الدغل الملفوف بأشجار نخيل عالية تتخلّلها شجيرات أخرى مجهولة لم يعرف لها اسماً. من جهة الحقول انبعثت رائحة فاكهة خفيّة غزت أنفه لأوّل مرّة، ولكنه لم يقف لها على هويّة أيضاً.

وجد الماء على جسده لذيذاً، بارداً، لميساً، ناعماً نعومة جسد الحسناء، فغطس برأسه حتى غيّب الغمر بدنه كلّه. هدهده السلسبيل فاستعذب الغوص، واستولت عليه نشوة. فزّ برأسه من الأسافل ليلتقم الهواء فسمع وشوشة مكتومة. تنصّت برهة، ولكن السكون عاد فابتلع المكان. استنشق الهواء بشراهة، ثم سمع نفسه يردّد بلا تدبير:

- ما ألذّ هذا! كيف لم يخبرنا حكماء الصحراء البلهاء أن أحضان الماء ألذّ من أحضان النساء!.

تهيّأ ليغطس من جديد، ولكن الوشوشة انطلقت مرّة أخرى فتبيّن في الصوت حسّاً أنثويّاً. تسمّع زمناً، ولكن الأصوات انطفأت، فعمّ سكون يخرقه هديل الحمام وغناء الجنادب. غاب مرّة أخرى: استسلم للجوف المجهول فاستيقظت في الوجدان هواجس مبهمة، وتلقّى من اليمّ رسالة منسيّة. حاول أن يفكّ طلسم الرسالة، ولكنّها استعسرت فجاهد ولم يستسلم. كاد يفلح، لأن قبس الوجدان انبثق فتبدّدت الظلمات وتزعزع الكيان بالوحي، ولكن رجّة أفسدت كل شيء، ففزّ إلى أعلى. فوق رأسهِ وجد طابوراً من الحسان، فلم يدرِ عمّا إذا كنّ حساناً من بنات الإنس أم حساناً من بنات الجنّ. كنّ يتضاحكن بجسارة لم يعرفها في بنات الصحراء، ويتغامزن بدلال لا يخفي خفر العذارى بقدر ما يفضح إغواء المستهترات، بل وشهوة الغانيات التي سمع من زوّار الأوطان عن جرأتهن الأساطير. كنّ مكابرات ومتشابهات تشابهاً مريباً في القوام والقامة وربما في المقام أيضاً: حسان الوجوه،

بيضَ البشرة، عيونهنّ كحلاء، كبيرة، كعيون الظباء، تفضح وعداً وإغواء واشتهاء. يلبسن ألحفة تستر أجسادهن السامقة، ولكنّها تبرز استدارة أردافهن البيضويّة السّخيّة، فقرّر أن يحتكم إلى المزاح:

ـ أنساء جنّ أرى، أم حسان إنس؟

تضاحكن مرّة أخرى. تمايلن بقاماتهن الفارهة إلى الوراء، ثم إلى الأمام كأنهنّ يرقصن في حفل اكتمال القمر بدراً، فازددن في عينيه فتنةً حتّى أنّه وسوس لنفسه بوصيّة تقول: «لو لم تدبّ في الصحراء الحسناء لآثر أن يدس رأسه في الماء فلا يخرج منه إلى الأبد». ولكن إحداهن تساءلت فسمع صوتاً كالغناء:

ـ ما الذي حمّلك على الشكّ في انتمائنا إلى سلالة الإنس؟

أجاب بلا تردد وهو يخوض في الماء:

ـ الحُسْن!

هتفن وراءه بصوت جماعي:

ـ الحُسْن؟

ولكنه أجاب بدهاء من عرف النساء طويلاً:

ـ ليس الحُسْن وحده، ولكن الشبه أيضاً. إنكنّ تشبهن بعضكن كما تتشابه نساء الجنّ!

ـ كما تتشابه نساء الجنّ؟

تضاحكن بمرح قبل أن تتساءل صاحبة الصوت الشهيّ:

ـ تتحدّث عن نساء الجنّ كأنك أحد أبناء هذه الملّة!

ـ لست من أبناء هذه المِلّة، ولكن قرينتي الأولى كانت من بنات هذه المِلّة.

هتفن بفضول حقيقي:

ـ حقّاً؟

ثم عُدْن يتضاحكن وينثنين بقاماتهن المغرية فوق حافة العين قبل أن تتساءل إحداهن:

ـ حدثنا عن بنات الجنّ، كيف هن؟

رأى في عينيها إيماء إغواء لا تخطئه عين من عرف النساء طويلاً، فتساءل:

ـ هل تقصدين في المخدع؟

تضاحكن بجذل حقيقي. غزت وجوهن حمرة خجل لأوّل مرّة، فقرّر أن يمضي في اللعب شوطاً أبعد:

ـ لم أرَ لهنّ في المخدع مثيلاً. إنهنّ كالنّار الموقدة!

ضجّ الحقل بضحكهن. ضحك صاخب، لعوب، لم يعد يخفي الحياء ولا الإغواء. ساعتها لاحظ أنهنّ سرب مكوّن من ستة حسان، يتشابهن في الحُسْن، كما يتشابهن في طول القامة، حتّى صار من العسير التمييز بينهن حقّاً. انتهز فرصة إنهماكهنّ في المرح فتساءل:

ـ هل أنتنّ شقيقات؟

فأجبنه بأكثر من صوت:

- كلاّ!

- أنا في الديار كما تعلمن غريب، وللغريب على صاحب الدار دائماً حقّ!

- قُلْ!

- أريد أن أسمع من حناجركن غناءً في حفل السّمر!

قالت إحداهن:

- الغناء حرفتنا. ماذا ننفع إن لم نسمع الرجال غناءً؟

ولكنه أضاف بخبث:

- الحسناء لن تكون حسناء إن لم تقل أشعاراً، والحسناء أيضاً ليست حسناء إن لم تتسلّل إلى المخدع!

تضاحك منهنّ فريق، وتكلّم منهن فريق:

- لا يحقّ للرجل الذي تكلّم بالمنكر منذ قليل أن يطلب من فرقة الحسان أن يسمعنه الغناء!

- المنكر؟

- ألم تقل منذ قليل أن أحضان الماء ألذّ من أحضان الحسان؟

غاب في الماء ليستوحي نبوءة تنقذه من المأزق. قال:

- ذاك كان لسان سليل الصحراء وليس لساني!

- لسان سليل الصحراء؟

- لسان الظمأ!

ـ لسان الظمأ؟

ـ لا يعرف معنى الماء مَنْ لم يعرف نار الصحراء، فاغفرن لي!

قالت ذات الصوت الشهيّ:

ـ قبل أن تفوز بغفراننا لك عندي وصيّة!

ـ كلّي آذان صاغية.

ـ لا تسبّ المرأة حتّى في سرّك!

ـ صدقتِ!

ـ هل تدري لماذا؟

ـ كلّي آذان صاغية!

ـ كما يتولّى الطير نقل قول السوء إلى كبير القوم، كذلك فإن الهواء يتولّى نقل قول السوء إلى المرأة!

ـ هل أنت عرّافة؟

ـ كل امرأة عرّافة. المرأة عرّافة بالسليقة!

ـ أحسنتِ. أحسنتِ. أقسم أني سأعرف كيف أكافئك على الوصية، لأن الوصيّة أنفس من كوز الذهب حتى لو كانت من فم أبله فكيف إذا كانت من لسان حسناء؟!

ـ هل أنت شاعر؟

ـ كل أهل الصحراء شعراء، فَلِمَ السؤال؟

ـ لأن لا كراء للحسناء إلاّ أن تمتدحها في أشعار تتناقلها القبائل وتجري على ألسنة الأجيال، كما لا قصاص للمرأة أسوأ من هجائها في قصيدة تتناقلها الألسن، وتتندّر بها القبائل.

ردّ بإعجاب:

ـ أحسنتِ. أحسنتِ!

فتقدّمت منه ذات الصوت الشهيّ وقدّمت له نفسها قائلة:

ـ أنا إسمي «تفران».

فتراجعت خطوة لتتقدّم قرينتها قائلة:

ـ وأنا إسمي «تمريت».

تراجعت خطوة، فتقدّمت جارتها:

ـ وأنا إسمي «تامنوكالت».

تأخرت إلى الوراء خطوة لتتقدّم جارتها:

ـ وأنا إسمي «تاهلا».

تراجعت خطوة لتتقدّم جارتها خطوة:

ـ وأنا إسمي «تامولي».

تراجعت خطوة لتتقدّم صاحبتها خطوة:

ـ وأنا إسمي «تدّيكت».

عمّ السكون. الحمام توقّف عن هديله، والجنادب ابتلعت أغانيها، فتكلّم الغريب:

ـ وأنا اسمي «إسان»!

هلّل في السرب أكثر من صوت:

ـ إسان! يا له من اسم!(*).

ساعتها تقدّمت منه الحسناء المكابرة التي قالت أن اسمها «تمريت» فقالت:

ـ هل لي أن أهبك وصيّة أخرى؟

أومأ لها برأسه العاري، فقالت:

ـ إيّاك أن تعرّي رأساً أمام امرأة بعد اليوم!

فانبرى للدفاع:

ـ ظننت أن التعرّي من اللثام عار في الصحراء، ولكن ليس عند الدخول في الماء!

تأخرت «تمريت» خطوة، فتقدّمت «تامنوكالت» لتوضح ما خفي من الوصيّة:

ـ لو عرف الرجال فظاعة وجوههم لما تعرّوا من القناع يوماً!

ـ ماذا؟

ـ وجوههم وجوه البعائر!

ـ وجوه البعائر؟

(*) إسان: العارف، العليم، الحكيم.

تراجعت خطوة فتقدّمت «تاهلا» لتكمل:

- وآذانهم آذان الحمير!

- آذان الحمير؟!

تراجعت خطوة، فتقدّمت «تامولي» لتكمل:

- وأنوفهم مناقير طير!

- مناقير طير؟!

تأخرت خطوة، فتقدّمت «تفران» لتضع خاتمة الوصية:

- ألا يضيركم أن تكون لكم وجوه بعير، وآذان حمير، ومناقير طير؟!

اضطرب لأوّل مرّة وهو يجيب:

- يضيرنا، يضيرنا كثيراً!

- احترس أن تراك امرأة بلا لثام، لأنها ستكرهك حتّى لو صنعتَ لها من قلبك بيتاً، وأنجبت من بطنها ذرية تملأ الصحراء!

ساد السكون من جديد. ثم أتين بجرارهن ليملأنها من ماء العين. أنحنت «تامولي» على الغمر أوّلاً، فانفلتت جديلة شعرها الفاحمة من لفافة لحافها، وتدلّت في الفراغ بإغواء، بل وتداعت حتى سقط طرفها في الماء. زحف نحوها ليساعدها في ملء الجرّة، ولكنه اختطف الضفيرة بين يديه بدل الجرّة. احتضنها بين كفّيه. اعتصرها بجسارة داهية عرف في حياته النساء ففزّت من الجديلة قطرات الماء. احتواها بين أصابعه، هدهدها بحنوّ قبل أن

ينحني عليها ليلثمها. استنشق عبيرها عميقاً. قال مغمض العينين كأنه يخاطب نفسه:

- لم أحسب يوماً أن في الواحات زهور الرتم!

فأجابته بوشوشة كهسيس أنسام الشمال في أعراف شجيرات الرّتم:

- في الواحات أزهار ألذّ رائحة من زهور الرتم!

- أنت جنيّة!

فوسوست في أذنه مرّة أخرى:

- عطر الرجل رائحة المرأة، لا زهرة الرتم!

تشبّث بالجديلة. ضمّها إلى صدره المبلّل بجرأة لا تليق بنزيل دخل حَرَم الأغراب للتوّ، ولكن حجّته كانت أقوى. حجّة الغموض التي اعتاد أن يسير على هَدْيها دون أن يدركها هي التي ألهمته الآن أيضاً بنبوءة تقول إن النساء سلالة تتحرّر مع الأغراب وتنطلق، في حين تتحفّظ مع ذوي القربى وتنكمش؛ فأطلق لسجيّته العنان ليقينه بأن سجيّة الفتيات لن تنطلق أيضاً إذا لم ينطلق. المرأة إجمالاً دمية لا تنطلق إذا لم ندعها تنطلق، إذا لم نريها كيف تنطلق. لأن المرأة عجينة ألين من العجين بين يدي الرجل: يستطيع أن يجعل منها ناسكة، كما يستطيع أن يصنع منها غانية! ربّما لأن روحها في روح الرجل. لهذا السبب فليس ثمّ امرأة فاسدة إن لم يفسدها الرجل، كما ليس ثمّ امرأة فاضلة لم يرجع الفضل في صنع فضيلتها رجل.

أنحنت فوقه أيضاً فغمره عطرها. عطرها الحقيقي. عطر المرأة، لا عطر الرّتم. العطر الذي يصرع الرجل لا العطر الذي يخدّر الرجل. العطر الذي يصنع من بعض الرجال أبطالاً كما يخلق من بعض الرجال أرزالاً. العطر الذي يقود إمّا إلى الحياة، إمّا إلى الجنون. العطر الذي يبدع الحياة بنفس الروح التي قد يبيد فيها الحياة إذا شاء: عطر الأنثى! عطر الحسناء التي تحيي إذا شاءت أن تحيي، وتميت إذا شاءت أن تميت: تحيي العظام وهي رميم إذا قررت أن تهب نفسها، وتميت الدنيا بأسرها إذا قررت أن تمنع نفسها.

من الثوب تفلّت النهد المزموم أيضاً. طال الإنحناء فلم يطق النهد البكر صبراً فتمرّد، وارتجّ، وانزلق إلى أسفل، متحرّراً من حصنه اللئيم، فرأى أوّل ما رأى الحلمة. كانت نافرةً، واعدةً، كبيرة بحجم حبّة بلح، تتوّج النّهد المكوّر، الأبيض، الشهيّ، كأنها تنوي أن تنفلت أو تتحرّر لتصنع لنفسها مجداً بالنموّ في نهد جديد فوق النهد القديم. زعزعه مسّ، ونزّ منه عرق، فمد يده ليلامس الحلمة المزمومة المتشبّثة بالنّهد السخيّ المزموم فندّت عن الحسناء آهة انتشاء. آهة عميقة، مسموعة، كأنّها أنين شجن في موّال حنين. ارتدّ إلى الوراء فاستجاب لحركة الماء بكلام مجهول. انتشلت الحسناء جرّتها من الغمر وانتصبت بقامتها المكابرة فوق حافة العين. سرحت ببصرها بعيداً نحو شعاف النخيل في الحقول النائية قبل أن تتساءل:

- هل تدري لماذا حكم الناموس على الرجل أن يغطّي الرأس بالقناع؟

ـ إذا تكلّمت الكاهنة فليس على الدنيا إلاّ أن تسمع!

ـ لأن عورة الرجل الفم كما عورة المرأة الجسد!

ـ يخيّل لي أن سمعت قولاً كهذا يوماً.

ـ كيف لا تسمع القول إذا كان الناموس هو الذي قال، لا أنا؟!

ـ ولكنّي لم أسمع منكن قولاً يتحدّث عن الفم في الدرس الذي سمعته من أفواهكنّ منذ قليل!

ـ لم نتكلّم عن الفم لأن غايتنا القول عن الفم. لم نتكلّم عن الفم لأننا يجب أن نحوم حول الفم ونتحدّث عن كلّ ما جاور الفم تجنّباً لأن نطعن حَرَم الفم بالقول عن الفم كما يقضي الناموس.

ـ الإيماء! الإيماء! لغة الناموس الإيماء. هذا برهان آخر يؤكّد أنّي لم أخطىء عندما قلت أنكنّ ذريّة جن لا بنات إنس!

ـ وما هو الناموس إن لم يكن وصايا الجنّ لأهل الصحراء؟

ـ حقّاً؟

ـ أنسيت أن جدّ أهل الصحراء «مندام» لم يطرد من «واو» إلاّ يوم التقم بالفم من فاكهة البستان؟

ـ آه، مندام..

ـ الفم عورة أخرجتنا من البستان وحوّلت دنيانا صحراء، فهل تدري ما هو الفم في عُرف الناموس؟

ـ لست عرّافاً حتّى أعرف.

ـ الفم في وجه الرجل كالسرّ الذي تخفيفه المرأة بين رجليها سواء بسواء!

ساد صمت. حدج وجوه بقيّة الحسان فرآهن كوكبة من نساء الجنّ حقّاً. غاص بجسده في الماء. غاص لا لكي يخفي جسده، ولكن لكي يخفي رأسه، وجهه، فمه. قرّر أن يفرّ بفمه، ويستره بالماء، ليصنع له الغمر من فيضه لثاماً. ولكنه سمع الجنيّة تقول:

ـ الفم عورة الرجل، فاحترس!

غاص في الماء. غاب إلى منكبيه، ثم إلى رقبته، ثم إلى أذنيه، ثم إلى عينيه، ثم.. غرق برأسه كلّه. احتجب. اكتمل اللثام. لثام الماء. حبس أنفاسه وهمد. همد طويلاً. تجرّع من الماء نصيباً، ولكنه صمد. صمد حتى انقطع النفس ففزّ. فزّ إلى أعلى والتقم الهواء بشراهة. ترنّح وهوى مرة أخرى، ولكنه استوى على قدميه وعاد يلتهم الهواء بفمه وأنفه ويملأ صدره. اكتشف اختفاء كوكبة الحسان فتخيلهنّ بنات خفاء حقّاً. استعاد ما قالته الكاهنة عن العورة فأطلق ضحكة. ضحك بحرية، ضحك بانتشاء من يتلذّذ بالضحك. ثمّ.. ثمّ استولت عليه نوبة غضب لم يدر لها في البداية سبباً. ولكنه اكتشف السبب بعد قليل. اشتهى «تامولي» فاشتهته تامولي أيضاً. راقت لها جسارته، ولكنها لم تغفر له إحجامه أيضاً، فقرّرت أن تنزل به القصاص، قررت أن تنتقم فقرأت على رأسه أسطورة الفم، أسطورة العورة، أسطورة الجدّ الذي طرد من «واو» بسبب اللقمة التي اختلسها من البستان.

قررت أن تهزأ به أمام القرينات لتذلّه عقاباً له على جُبْنه. قررت أن تقول إن ليس عليه أن يمدّ يده إلى بستان المرأة إذا لم يكن على يقين من قدرته على قطف الفاكهة، لأن المرأة كأرض العدوّ الذي لا تغزوه إذا لم تجد في نفسك شجاعة على القتل، لأنك ستُقتل إذا لم تَقتل! قالت له: إن المرأة أيضاً ساحة عراك ستخسر حتماً إذا لم تقرر منذ البداية أن تكسبها. وهو بفعله الأحمق ألحق بها إهانة دون أن يدري، وكشف للسرب المرافق لها عن جهله بأسرار العشق.

اختنق بالغضب، فضرب الماء بكلتا يديه، وصاح بأعلى صوت أملاً في أن تدركهن الوصيّة:

ـ ولكن أسمعن ناموسي يا سلالة الجان الشقيّة: إذا لم يكشف الرجل للحسناء عن العورة، فلن يفوز الرجل بالحسناء! جعجع بضحكة جنونية وهو يتخبّط في الماء.

٣ ـ الماء

خرج من العين فتغنّى بالماء. تذكّر آخر مرّة غطس فيها في غمر عندما فاض وادي «أميهرو» بالسيول في أرباع تاسيلي منذ ما يزيد على العام، فدمدم بأغنية قديمة يمدح فيها الشاعر مولاه الماء بأبيات لا تخلو من غموض. وقد ردّد في الماضي هذه الأبيات مراراً، ولكنه لم يكتشف سرّها كما اكتشفه الآن بعد خروجه من غمر العين، فقال: إن من حقّ الشاعر أن يجعل من الماء معبوداً لأنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يطوف السماوات، ويهوي إلى الأسافل ليجتاح أبعد الظلمات، يتغسّل بأضواء الأعالي، ويعود ليتستّر بالأحاضيض، يرتاد المجهول خالقاً بالتبدّد، ويعود إلى

الأرض مخلوقاً بالتبدّي. ثم تساءل بصوت عالٍ: «من أنت أيها الماء؟». أجاب: «ما أنت، في الرحلة، أيّها الماء، إلاّ نحن: تغترب مثلنا بالنّار، وتستعيد نفسك مثلنا بأرض الوطن!». استلقى تحت نخلة ودمدم باللحن القديم برهة ثم عاد إلى القول: «نحن بالنار آباء. نحن بالماء أمّهات!». نهض على مرفقيه، راقب فيض الغسق وهو يندلق على الغمر الساكن فتغمز العين بوميض ذهبي فتّان. تبادل العاشقان (ضياء السماء وماء الأرض) الإيماء اللعوب، فتابع الإغواء زمناً قبل أن تنبثق في قلبه النبوءة، فتبسّم بخبث الداهية، ثم تمتم: «سأقيم عهدي معك يا معشوقي القديم، وسأنتقم بعونك. لأن الانتقام، يا مولاي، لن يكون قصاصاً إن لم يكن مولانا الماء له عوناً!». استنشق رائحة الحقل (الشجر، الطين، زروع الواحات، البلل الذي يعطّر الهواء) حتى استشعر الدوار. أطلق ضحكة مكتومة قبل أن يمدّ يده إلى متاعه ليستخرج قطعة من القماش الكئيب. طرحها في حجره وعاد يتلهّى بالغناء. ظلّ منحنياً على كوم القماش دون أن يتوقّف عن موّاله المجهول. حدج ساحة الغمر بالجوار متمايلاً مع لحن الشجن كأنه كاهن من كهنة الأدغال الذين لا يشرعون في تنفيذ شعائرهم الخفيّة دون تلاوة التعاويذ. مدّ اليد وتناول القطعة. أمسك بها من طرفها فتبدّت في قماشها نمنمات التمائم مطبوعة بخيوط بيضاء بهتت بسبب الاستعمال وربما بفعل تعرّضها لشموس الصحراء طويلاً. ثبّت الطرف على جبينه فتبدّت في لسان اللثام تميمة أخرى مدسوسة في غمد من جلد مجهول موسّم أيضاً برموز السّحرة. بدأ يلفّ القناع المهيب حول الرأس مغمغماً ببرطمة خفيّة كرطانات أهل الأدغال.

ثم سكت بلسان القول ليخاطب نفسه بلسان الخفاء قائلاً إن الأوان قد حان كي يحتكم إلى سرّه ويلوي ثعبانه على رأسه لكي يخفى عن الدنيا أذنيه اللتين شبّهتهما سلالة الشقوة بآذان الحمير منذ قليل، فياللنساء من ذريّة داهية! أبله ألف مرّة من ظنّ أنه يستطيع أن يخفي عن هذه الملّة أمراً ولو مرّة! لقد رأت الحسناء ببصيرتها في ومضة ما أخفاه عن الخليقة في دهر. رأت في الحال أذنيه كما تغلغلت لترى ذيله أيضاً. لم ترَ ذيله الذي يتخفّى وراء الظهر، أو الذي يتستّر بين الفخذين، ولكنها رأت ذيله الحقيقي، ذيله الخفيّ، ذيله الذي استخفى على أدهى الدهاة، فيسلّم منذ اليوم بأن المرأة هي سيدة الدهاء وسلطانة كل الدهاة! لقد تكلّمت صدقاً عندما قالت: إن الرجل لا يجب أن يعرّي رأساً، لأن تعرية الرأس ليست في حقيقتها إلاّ تعرية للنوايا. ورجل يعرّي نواياه ليس رجلاً وليس امرأة أيضاً. الرأس عورة الرجل لا لأنه متوّج بقرنين يراهما البلهاء أذنين، ولكن لأنه يخفي أسراراً، يخفي أفكاراً لو عرّاها لانكشفت عورته الحقيقية. العورة المخفيّة في الفم، في اللسان، في المجهول الذي يتوارى وراء اللسان، لا عورة الجسد التي تتدلّى بين الفخذين. فالمجد للقناع حقّاً! المجد للأقنعة حقّاً. لأن الرسالة في القناع، لأن النبوءة لن تكون نبوءة إذا لم تتستّر بالقناع!.

أحكم القناع حول رأسه. تقدّم من الماء ليتفقّد في مرآته نفسه. انحنى فوق سطح الغمر المستسلم، المغمور بفيض الغسق الذهبي، فرأى في المرآة مخلوقاً آخر، مارداً، مكابراً، مهيباً، غامضاً غموض الآلهة، فتعجّب وقال: إن من حقّ أهل الصحراء أن

ينكروا مخلوقاً نزع عن الرأس القناع. من حقّ سلالة الصحراء أن تنكر مخلوقاً تنكّر. وقد صدق الناموس المفقود عندما أوصى بإنكار كلّ سليل قبيلة نزع اللثام لأنه تنكّر، كما أمر بإكبار كل سليل قبيلة وضع اللثام حتّى لو انتمى لقبائل الأغراب أو نزل الصحراء دخيلاً.

عاد إلى المتاع. استخرج من الجراب صرّة ملفوفة في قطعة جلد منمنمة أيضاً بالعلامات الخفيّة. استخرج من اللفافة مسحوقاً مريباً. تفحّصه بعناية قبل أن يعيده إلى الجراب. دسّ يده في الجراب من جديد ليستخرج مرّة أخرى، صرّة ملفوفة أيضاً في جلد أشدّ كآبة من قطعة الجلد الأولى. فكّ رباطها وخطا نحو الساحة حيث يطفو الماء. وقف فوق الحافة. تأمّل إيماء الضوء في بدن معشوقه الماء. أنصت لصمت لا يعكر صفوه إلاّ لحون الجنادب. تمتم بالتميمة بصوت مجهور:

- كن يا مولاي الماء في العراك معيني، وأنقل للخليقة وصيّتي!

نثر عقار السرّ في الماء، فتلامعت الذرّات المشبوهة تحت الضوء في الفراغ، قبل أن تهوي لتتناثر على سطح الماء. راقبها وهي تتدافع وتنتشر بلهفة الممسوسين حتى استولت على الغمر كلّه.

٤ ـ الحنين

التأمت حلقة السَّمَر ليلة استوى القمر، فتربّع البدر في عرش السماوات ربّاً، فاحتكمت العذارى إلى حَرَم الأشعار،

واستودعن قلوبهن أغاني الشجن حنينهن القديم رسالة إكبار للمعبود.

ارتفعت حناجرهن الظمأى بأغاني الشجون، ودسسن في اللحون حنيناً قديماً، قِدم الصحراء الخالدة، مرسول إكبار للمعبود القديم قِدم السماء الخالدة. انتظمت حلقة النساء في العراء الذي يجاور أبنية الواحة في الجهة الشمالية الشرقية، ويحدّ الحقول المترامية في جهة الجنوب الغربي. أقبل الرجال أيضاً، ولكنهم لم يتحلّقوا، بل تربّعوا، بالقرب، في صفّ مهيب، ولاذوا بالصمت ليتجسّسوا (على النساء أم على الخفاء؟) كما اعتادوا أن يفعلوا كلّما جمع بينهم مجلس.

استنطقت الحسان الطبول بالأنامل فخرج من جوف الطبول نداء.

استنطقت الحسان حنينهنّ بألسنتهنّ فخرجت من الأفواه نبوءة.

لم يكن طبولاً ما مسسنه بالأنامل، ولكنّهن اعتصرن بالأنامل قلوبهنّ.

لم يكن أصواتاً ما أطلقته حناجرهن، ولكنّهن لفظن في الأصوات أرواحهنّ، فما كان من قناع المعبود الذي تصدّر عرش السماء إلاّ أن تخضّب بالمسّ والدّم فخرّ أرجل الرجال أرضاً، وزحفوا على الركب والأيدي طرباً، وسقط آخرون يتمرّغون في التراب وجْداً وحنيناً ووسوسةً.

أمّا هو، غريب الأجيال، وسليل اللعنات، وصاحب الأتان الخالد، فقد تـوارى وراء الرابية الرملية، وطفق يشاهد المحفل خلسةً. وعندما بدأ المأتم الأبدي، ونزفت قلوب الصبايا حنيناً، أرتجّ أيضاً، وترنّح، وتزعزع بوجود لم تعرف له خليقة الصحراء مثيلاً حتّى أنه أطلق شهقة مميتة كاد يخسر بسببها نفسه لو لم ينطلق ليرتاد الرحاب. لم يجدب بالجسد، ولم يطعن صدره بالمدية، ولم يحطّم صدره بالحجارة، كما يفعل أهل الوجد البلهاء، ولكنه فرّ. فرّ من المكان، من وراء الرابية، من الواحة، ومن الصحراء كلّها. فرّ إلى البستان، ولكنه لم يلج الحصون. حام حول المكان الذي لا وجود فيه للمكان، وراقب في الحنين صاحب البستان الذي طرده يوماً من ملكه قبل أن يطرد «مندام» من الحَرَم، فتحسّر على خلوته الأبديّة لأوّل مرّة، وتمنّى لو جاء معه بالجنيّة «تامولي» لترى ما لم تره يوماً، ولتسمع ما لم تسمعه يوماً، ولتلتقم ما لم تلتقمه يوماً. لو امتلكت الشقيّة موهبةً، أو نالت من الخفاء هبةً، ورافقته في رحلة الآفاق، لأدركت السرّ، ولما تجاسرت بعدها بأن ترميه بخطيئة الجهل بالناموس، ولعرفت أن القصاص الذي استنزله صاحب البستان بصاحب الأتان أقسى بما لا يقاس من القصاص الذي نزل على رأس سليل الشقوة «مندام»..

وإذا كان في الصحراء ما يمكن أن يغفر للحسناء خطيئتها، فلن يكون ذلك غير أغنيتها الجنونيّة التي زعزعته وجرّدته من بدنه القبيح، فاستطاع أن يفرّ كما يفرّ الآن ليرتاد رحاب المحال التي لم يدركها سليل يوماً بالسبيل، لأنها تنام بعيدا في القلوب، حتّى أنّها لا تُنال إلاّ بمارد أطلقت عليه القبائل اسم: الحنين! فهل هذا

أنت حقّاً أيها البستان القديم، وهل هذا أنت حقّاً يا نهر العسل الممزوج باللبن؟ وهل هذه حقّاً أنت يا شجرة الإبهام؟ وهل هذه أنتِ يا فاكهة الألغاز؟ وهل هذه أنت يا سدرة المنتهى؟.

فزّ فجأة. فزّ وطفق يركض. ركض بسرعة الريح. بل بسرعة الجان. اجتاز الخلوة في غمضة. اجتاز حلقة النساء بقفزة جنونية وتوارى. بلغ الحقول في غضمتين. تخطّى العين في ومضة. بلغ الشطوط الرملية في ومضة أخرى، فانهار هناك، وشرع يرتجف وينتحب.

سمع نفسه ينتحب كطفل فَقَدَ دمية.

القسم الثاني (الرُّسُل)

١ ـ الأبله

يُروى في الواحة أن الأبله يرجع بأصوله إلى سلالات الصحراء مثله مثل أهل الواحات، وقد نزل الواحة مع شتات إحدى القبائل الشمالية في إحدى الأعوام العجاف التي أباد فيها الجفاف الأنام مع الأنعام فاستجار الخلْق بالواحات الجنوبية كما اعتادوا أن يفعلوا في كل مرّة يسود فيها القحط في الصحراء لزمنٍ طويل. ويُقال أيضاً نقلاً عن أهل الصحراء أن الشقيّ ظهر لأوّل مرة في قطيع لامرأة من الإماء. وجدته يندس في زحام الماشية ملتقماً ضرع معزاة مغمغماً بأصوات رتيبة كأنّها الغناء، فقرأت على رأسه التّمائم المستعارة من لغة الأوّلين المجهولة، وانتظرت أن تقبل عليها أمّه لتستعيده دون جدوى، فما كان منها إلاّ أن لفّته في لحافها وعادت به إلى بيتها لتصنع منه ابناً لم تنجبه من بطنها. ولكن الوليد لم يصر لها ابناً إلى الأبد، لأن الأبناء الذين يرمي بهم المجهول إلى الخلاء لم يولدوا ليصيروا للقبائل أبناء، ولكنهم وُلدوا ليصيروا في القبائل غرباء. والأقدار لم تهبهم لسلالة الصحراء

لتنالهم، ولكن لتحتضنهم، لأنهم في كل الأحوال لن يرتضوا الركون ولا الانتماء. وكان عقلاء القبيلة الذين أوتوا علماً بهذا السرّ يرمقون امرأة الإماء بإشفاق وهي تركض بين الأخبية في ربوع القبيلة بحثاً عن وليدها المزعوم الذي لم يعد إلى بيتها منذ أيام، ليقين هؤلاء بأن الوليد المزعوم ليس ككل الأولاد، والمسكينة لن تناله وليداً حتّى لو جاءت به إلى الدنيا من جوفها، فكيف إذا كان مجيئة إلى الدنيا بحيلة من حيل المجهول؟ والدليل أن البطن الذي حمله شهوراً، قد تنصّلت منه ودسته في القطعان يأساً من مصيره بعد أن ألهمها المجهول بالحقيقة التي تقول أن الوليد الذي اصطفته الأقدار ليكون لها رسولاً، لن يستطيع الخلْق أن يخلقوا منه سليلاً، لن تستطيع حتّى الأم أن تصنع منه ابناً.

ولكن الوليد الذي يختفي أياماً، بل وأسابيع، كان يستظهر أحياناً. يستظهر فجأة كما كان يختفي فجأة. يستظهر ربما شفقةً على الأم برغم أنه لم يحدّثها يوماً عن سرّ غيابه، ولا عن المكان الذي صار له وطناً خلال تلك الأيام. كان يكتفي بالانطلاق في ضحكة بلهاء كلّما أخضعته الأمّ للاستجواب قبل أن يندفع ليلتحق بالأنداد في العراء. ويقال أيضاً أن غزواته الخفيّة هذه كانت سبب الخلل الذي أتلف فيه العقل. فقد غاب مرّة أمداً زاد على الشهر، فخرجت القبيلة كلّها للبحث عنه، ولكن القبيلة لم تعثر له على أثر. جاء دهاة وتتبّعوا الأثر، ولكن الأثر انقطع عند رابية مهيبة، مطوّقة بأضرحة الأسلاف القدماء، تعلو وادي الأثل القاحل المؤدّي إلى الصحاري الغربية. بعد انقطاع الأثر لم يبق للقبيلة إلاّ أن تهيم بالرجال على وجهها، وتتسقّط الأنباء من الرعاة أو السابلة أو

المهاجرين أو أهل العزلة. تصرّمت أيام أُخر، ثم أسابيع، ولكن المخلوق الضائع لم يظهر. وكما يحدث دوماً في الصحراء فإن الخلاص من البلاء لا يأتي قبل اليأس من الخلاص. فقد يئس القوم واستسلموا فظهر الفقيد في عشية أحد الأيام محمولاً على ظهر جمل يقوده أحد الأغراب الذي ألقى به إلى المضارب وواصل سبيله إلى المجهول. كان ما يزال محموماً، غائب البصر، ينزّ من فمه الزّبَد، ويحاجج جلساء مجهولين لا يراهم سواه. تولّته الأَمَة بعقاقير الأعشاب، وأخلاط النبوت، وبالأسحار، فدبّ على قدميه بعد أيام. دبّ على قدميه جسداً، ولكن الرحلة حفرت فيه العلامة: أصاب العين حَوَل واضح، ونال العقل عطب أوضح. انقلب في لسانه المنطق، ورأى في الدنيا ما لايُرى، وسمع ما لا يُسمع. فكان يذهب لينام في العراء حتّى في أشدّ الليالي صقيعاً مسمّيّاً الأخبية والبيوت حبوساً، وكان يمزّق على صدره الثياب ويركض عارياً مسمّياً اللباس قماطاً. وكان يحتقر الذهب أشدّ احتقار ويسمّي السبائك التي يتباهى بها تجّار القوافل العابرة نحاساً. كما يسمّي حسان القبائل أشراكاً، برغم أنه يروق له كثيراً أن يمازحهن وينقل رسائلهن إلى عشّاقهن. أمّا الأقران فكان يشاركهم اللّعب، ولكنه كان ينعتهم بـ«قبور الآباء» كلّما نشب بينه وبينهم شجار. فكان الأشقياء يستفزّونه ويرمون في وجهه بلقب «اللقيط»، فكان يتضاحك ويجيبهم بعقل التلف: «تفاخرون بآبائكم في الأرض، ولكن أروني أباكم الذي في السماء!». وعندما كانوا يتباهون بالانتماء إلى آبائهم أمامه كان يقول لهم: «لا يجب أن نسمّي الأب أباً إن لم يكن غائباً. لا يجب أن نتباهى بالانتساب إلى

أبٍ نراه بالعين ونسمعه بالأذن حتى لو كان زعيم القبيلة أو كاهن القبيلة!».

ثم يحزن فجأة حتّى تلتمع الدموع في عينيه ويقول وهو يرنو إلى الخلاء الأبدي الفسيح: «كلّنا في هذه الصحراء لقطاء!». ولكن الأشقياء لا يرون حزنه، لأنهم أعقل من أن يدركوا سرّ قوله، فيتبارون في السخرية منه ويردّدون: «أنت ابن جنيّة!»، فيجيبهم هازئاً أيضاً: «أنتم أبناء الآباء، وأنا ابن السماء!». وعندما يقرّرون أن يمضوا في الاستفزاز شوطاً أبعد ويعيّرونه بعطب العقل كان يجيبهم بتحدٍّ: «الحمد للسماء التي حرّرتني من هذا المارد الجائر!». فكان أبناء العقل يتضاحكون من منطق قرين يتباهى بالتحرّر من سلطان العقل، وكان الأبله يسخر من عقل أقران يتباهون بامتلاك عقال العقل، فلا يستطيع حتى أعقل عقلاء القبيلة لأيّ الطرفين يحكم بالعقل.

وكان يروق للأبله أن يردّد عندما يملّ تهكّم الأنداد: «عقولكم في رؤوسكم، ولكن عقلي في قلبي». ثم يُدْبِر عنهم كأنه يفرّ إلى الأبد.

ولكن ما لم يطق الأبله أن يتحدّث عنه هو تلك الرحلة المجهولة التي فَقَدَ فيها عقله، أو تحرّر فيها من المارد الجائر كما يروق له أنْ يقول. فكلّما جاء الناس على ذكرها وحاولوا أن ينتزعوا منه السرّ بدافع الفضول كان يسرح ببصره إلى الخلاء البعيد، ويغزو الحزن فيه المقلتين، وتزداد عينه اليمنى حَوَلاً، ويكتفي بالقول أن الأرض استجابت لندائه فسافرت بالرابية التي

جلس عليها عند الغسق، ونزلت به وطن الحنين. ولكنه لم يجب يوماً عن الأسئلة التي تستفسر عن هوية هذا الوطن الذي يسمّيه حنيناً! وعندما كان الناس يمطرونه بالأسئلة تلهّفاً لسماع المزيد كان ينسلّ من المجلس وينطلق إلى العراء. فكان عقلاء القبيلة يقولون: إن البلهاء ملّة لا تخون رسالتها، لأنها لم "دنيا عقلها، إلاّ لتستعيد بالخفاء قلبها.

٢ ـ الحكيم

شنّ غزاة الغرب غارة على أرض القبيلة في أحد الأعوام فوجدوه يرعى إبله في البرّ المجاور لسلسلة الجبال الزرق، فوضعوا في رقبته حبل المسد وذهبوا به أسيراً ليبيعوه مع من باعوا في أسواق «توات»، فاشتراه أحد أكابر قبائل «آهجّار» التي تستوطن صحاري الغرب. خرج به مولاه الجديد إلى أوطان قبيلته فباتا ليلتهما في وادٍ كئيب مطوّق بسدود الصلصال، فأخرج من جيبه نايه الذي استقطعه لنفسه من دغل القصب في مستنقع إحدى واحات وطنه الضائع فنفث فيه حزنه على الوطن الضائع بعد أن ابتعد عن المولى مسافة في قاع الوادي. ولكن المولى أقبل عليه بعد منتصف الليل. وجده يقف فوق رأسه كشبح الجنّ ويترنّح مع أنغام الناي. توقّف عن العزف فحثّه على المضي قُدُماً بإيماءة. نفخ في الفوهة حنينه فلفظ مع أنفاس الحنين نزيفه. تمايل المولى بانتشاء أهل الوجد، بل وتخلّى عن وقار الأكابر فترنّم بأغنية شجن قديمة لإسناد اللحن المتدفّق من فوهة الناي. تأجّج في القلب الحنين فنفث في الأنفاس ناراً استجاب لها العود بالشكوى والأنين. ازداد

السكون عمقاً، فازدادت الصحراء باللّحن عزلةً، فتخلّت السماء عن لا مبالاتها الأبديّة ومالت نحو قاع الوادي، فالتمعت النجوم بوميض النشوة والفضول. وعندما تخلّى عن إلناي وتنزّل بعد النشيد الصمت قال المولى:

- لم أحسب أن بمقدور إنسان أن يغنّي وفي رقبته حبل المسد.

زفر أنفاس الإعياء قبل أن يجيب:

- حبل المسد في رقبتي يا مولاي، ولكنه ليس في قلبي.

صمت ثم أضاف:

- لا نخسر شيئاً ما لم نخسر أنفسنا يا مولاي.

تساءل المولى بلهجة تفضح دهشةً:

- ألم تخسر نفسك؟

- كلاّ. ربّما خسرت جسدي، ولكني لم أخسر نفسي.

- أليست العبودية رأس الخسارة؟

- العبودية رأس الخسارة للجسد، لا للقلب. نخسر أنفسنا يا مولاي بعبودية القلب ونحن طلقاء، ونكسب أنفسنا بحريّة القلب ونحن في الحبوس!

- هل أنت شاعر؟

- كلّنا يا مولاي شعراء.

ـ هل تجرّعت أوجاعاً كثيرة؟

ـ وماذا نفعل في دنيانا غير أن نتجرّع الأوجاع حتى نستطيب مرارة الأوجاع؟

ـ ويل لمن لم يستطب مرارة الوجع.

ـ عبدك يا مولاي الذي بين يديك رأى في دنياه بلايا تتضاءل إلى جوارها حتّى بليّة العبوديّة.

ـ ولكن ألا يُقال أن الموت أهون من العبوديّة؟

ـ الموت هينّ حقاً يا مولاي. الموت أهون من كل شيء حتّى لو لم تكن له العبودية ثمناً، فكيف إذا كنّا نستطيع أن نرهن البدن وحده ونشتري بالرهن حياة القلب؟

ـ ما أعسر هذا!

ـ عسير أن نحيا، يسير أن نموت.

سكت المولى فأكمل العبارة:

ـ عسير أن نحيا لأننا حكماء بالألم، يسير أن نموت لأننا أشقياء بالعلم!.

وافقه المولى بأنين موجع كأنه لحن شجن، ولكنه لم ينصرف ليهجع إلاّ قبيل مطلع الفجر.

في الليلة التالية جالسه في المساء وطلب منّه أن يحدّثه عن البلايا، فأخبره بأنّه رأى في دنياه أرضاً تتزحزح لتبتلع ما عليها، ووطناً يستبدل أبناءً بأبناءٍ، وإعصاراً يذهب بالأنام والأنعام ويأتي

بأنام وأنعام، وابناً يرفع يداً ليطعن أباً، وبنتاً تتنكّر كل ليلة وتذهب لتلتحم بأبيها في المخدع. حدّثه بأفاعيل الوباء عندما يعمّ الصحراء، ومصائب الجدب، وأهوال الغزوات، وببلايا أخرى كثيرة.

لم يكن عسيراً على الرجل أن يقرأ في كل نكبة مما سمع رسالة من رسائل الخفاء، فاستمرأ السّمر، ودأب على مجالسته كل ليلة حتّى صار له في ساعات استرخائه أنيساً. أسرّ له يوماً برأيه فقال له: إن الإنسان لا يجب أن يخشى جانب إنسان تألّم، لأنه كما لا خوف على إنسان تألّم، كذلك لا خوف من إنسان تألّم. كان ذلك قبل أن يضع بين يديه كل ما ملكت يداه، بل قبل أن يوليه أمر دنياه كلّها فصار هو المولى، وانقلب المولى مملوكاً. علّق يومها على الصفقة ضاحكاً: «المالك في دنيانا هو المملوك، والمملوك هو المالك، فلا تظنّ أنّي حرّرتك عندما تخلّيت لك عن أمري، لأني سأصير في رقبتك منذ اليوم قيداً». ولم يحدّثه عن شأن من شؤون ما ملكت يداه بعدها إلى أن أصابته علّة لم تمهله طويلاً، فوجد أهله في أمتعته رقعة الجلد التي يوصي له فيها بنصف ما امتلكه من قطعان متوّجة بهبة اسمها الحريّة، فعاد إلى الوطن.

عاد إلى الوطن في صحراء الشمال فلم يجد لا أهلاً ولا قبيلة ولا كلأ. الأهل بادوا، والقبيلة تشتّت، والأرض حرقها الجدب، فنزل إلى الجنوب، وترك نصف قطيع الإبل هميلاً يبحث عن عشب سنوات القحط في الأرباع الرملية المتاخمة للواحات،

وذهب فنزل الواحة ليبيع نصف القطيع الباقي في الأسواق. ابتنى كوخاً هناك وانتظر؛ يتسقّط أخبار إبله من العابرين وأصحاب القوافل، ويستفسر عن أحوال الصحراء. ولكن لعنة الجفاف هيمنت فرأى أن يحتال على النكبة باللّهو. ونسي أن الإنسان يرتكب الخطأ دائماً عندما يقرّر أن يلهو، لأن اللهو كما تبيّن تاليا ليس في حقيقته سوى إهانة للعقل.

فقد استحسن فتاةً من بنات الفلاحين فقال لنفسه يوماً: «لماذا لا أفعل اليوم ما يجب أن أفعله يوماً؟ لماذا لا أسلم أمري وألتصق بامرأة كما ألتصق أسلافي بنسائهم من قبلي؟». ولم يعلم إلاّ تاليا أنه ارتكب خطأ آخر يوم قرّر أن يقدم على أمر لم ينله وصيّةً من سلطان العقل، ولكنه علّقه في رقبة أسلافه.

اقترَن بسليلة الواحات فصارت له المرأة في الواحة وتداً.

٣ ـ العرّاف

استخدمته النسوة منذ الطفولة المبكّرة في استجلاء الغيوب وإخبارهن بأنباء أحبابهن الذين اغتربوا في طقوسهن المثيرة. وقد ذاع صيته في التنبّوء من بين كل الصغار الذين استخدمتهن نساء القبيلة في حفلات ما اعتدن أن يطلقن عليه: «استحضار الغائب»، فتولّى أمره العقلاء ابتهاجاً بميلاد النبوءة في ربوع القبيلة. فتّشوا في عينيه عن العلامة، وتطوّع آخرون فجرّدوه من الثياب طلباً لعلامات أخرى. بعدها أخضعوه للاستجواب ليالٍ، وعندما فرغوا لجأوا إلى حيل الدهاة. تركوه يلعب مع الصغار في العراء، ولقّنوا أحد أنداده بسؤال تجنّباً لإرهابه بأجرام الكبار، وبعثوا به إليه ليعود

بالجواب. عاد لهم الرسول بالجواب ولكنهم انتظروا أياماً. وعندما تحقّق التبأ أذاعوا في القبيلة ميلاد العرّاف!.

ولكن كثيرين شككّوا في الأمر وأنكروا ميلاد النبوءة كما هو الحال دائماً مع كل نبوءة. وقد قرّر أحد الأشقياء أن يسخر منه فتقدّم منه ووضع في يده حبّة تمر وألقى في وجهه بسؤال خبيث: «هل تظنّ أني سأجد ناقتي الحلوب الضالّة التي سأخرج في طلبها غداً؟»، فما كان منه إلاّ أن حدجة بنظرة خفيّة قبل أن يتساءل: «هل قلت أن الناقة حلوب وضالّة؟». ثم أجاب قبل أن ينتظر جوابه: «بلى، بلى. سوف تجد ناقتك الضالّة». ولكن الشقيّ جعجع بضحكة جنونية قبل أن يصيح أمام الجمع: «هل سمعتم؟ لقد قال: أنّي سأجد ناقتي الحلوب الضالّة وأنتم أعلم الناس بأني لا أملك لا ناقة حلوباً ولا ناقة ضالّة»، فما كان من الجمع إلاّ أن ضجّ بالضحك أيضاً.

ولكن الخفاء قرّر أن يكذّب الشقيّ ويصدّق النبيّ. ذلك أن الرجل خرج بعد أيام بحثاً عن الكمأ في السهول الغربية برفقة عدد من الأقران، فلدغته هناك حيّة، فاستطلع الرفاق بحثاً عن القوافل، فلم يجدوا بالجوار إلاّ ناقة وحيدة ليحملوه عليها إلى المضارب. وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما علموا أن النّاقة التي يملكها أحد أكابر القبيلة لم تكن ضالّة وحسب، ولكنها كانت تلقّب بـ«الحلوب» لسخائها في استدراد الحليب! كفّ عنه المكذّبون منذ ذلك اليوم، واعترف له بالهبة حتّى الدهاة.

ولكن الرؤيا التي كانت تسقط في القلب إلهاماً زمن الطفولة

استعسرت عندما أدرك سنّ الرجولة، فحثّه الأخيار على الاستعانة بالخلوة. صار يخرج إلى المفاوز البعيدة، ويعتصم بالأجبال، وينقطع عن الدنيا هناك الأيام والأسابيع ليعود للقبيلة بالنبأ اليقين. وقد لاحظ مع تدفّق الأزمان أن الخلوة لم تكن للنبوءة ثمناً وحيداً، ولكنها حلقة أخرى في سلسلة تنتهي بما سمّاه فيما بعد بـ«الكابوس». وهو دهليز مميت جرّب أن ليس أعسر من الخروج منه إلاّ الدخول إليه. فكان يغيب في فلوات، ويرتاد أوطاناً، ويتنقّل في بروج، ويفقد في الطلب الهويّة، حتّى ينبلج القبس ويومض الدهليز بالشرر الذي يحوّله من دهليز مغمور بالظلمة إلى نفق يلوّح بالرؤيا.

وكانت المعاناة تستنزفه فلا يحترق فيه الجسد بالحمّى وحسب، ولكنه يستشعر خواء، والخواء يخلّق حزناً. وقد حاول مراراً أن يتنصّل من الأمر كلّه ويضع للاستلهام حدّاً متسائلاً: «ما حاجتي إلى الرؤيا؟ وما نفع النبوّة لقبيلة سوف تعرف ما هو آتٍ في كل حال؟ وما نفع أن نستكشف الغيوب إذا كنّا لا نستطيع أن ندفع ما ستأتي به الغيوب أخيراً كان أم شرّاً؟».

قرر أن يتخلّى، ولكن الخليقة لم تترك له الخيار ولم تدعه يتخلّ. وقد أمسكت بيده العجوز التي أشرفت على المائة لتلقنه درساً يوم أبى أن يستكشف لها الغيوب ويخبرها بنبأ أبنائها الثلاثة الذين خرجوا في رحلة تجارية إلى أوطان الأدغال ولم يعودوا منذ سنوات. قال لها يومها أنه تخلّى فهزّت رأسها عجباً، ثم تناولت معصمه وطلبت منه أن يقترب. أطلقت ضحكة استهزاء قبل أن

تقول: «هل حقاً ما أسمع؟ هل تريد أن تتخلّ؟ وهل تتخلّى الأم عن إرضاع وليدها؟ هل يتخلّى الطير عن إطعام فراخه في العشّ؟ هل يتخلّى الراعي عن الرعي؟ هل يتخلّى الأبطال عن الدفاع عن أوطان القبائل؟ هل تتخلّى السماء عن إنزال المطر على الأرض؟». سكتت برهة وهي ما تزال تمسك بمعصمه بأناملها الهزيلة كأنها عيدان، ثم أضافت وهي تحدّق في فراغ الصحراء: «ألا تدري أن التخلّي سوف يقلب الصحراء رأساً على عقب؟ ألا تدري أن الرؤيا قدر العرّاف والنبوءة في عنقه دَيْن وعبادة؟ ألا تدري يا بني أنّك لم تختر رؤياك، ولكن الرؤيا هي التي اختارتك؟ ألا تدري أني سأموت الليلة إذا لم تعدني بأنك ستأتيني بأنباء أبنائي غداً؟ ألا تدري أني لا أحيا إلاّ بأمل أن أراهم قبل أن أرحل؟ هل أدركت الآن أن النبوءة ليست لهواً، ولكنها الأمل؟».

ثم تركت يده فرأى في مقلتيها الكابيتين، الحزينتين، بللاً، دموعاً، فانسلّ من خبائها وهرع إلى الخلاء. هرع إلى الخلوة. هرع إلى قَدَره. هرع إلى قدَرَه كي يأتي لعجوز الأجيال بكنزها، بالأهل، لأنّه إن لم يفعل بعد اليوم فإن الأم لن ترضع وليدها، والراعي لن يرعى القطعان، والرجال لن يمتشقوا السيوف ليذودوا عن الأوطان، والسماء لن تهب الأرض غيثاً، والناموس سيتزعزع، والدنيا سوف تتزلزل وتنقلب رأساً على عقب.

عاد إلى رحاب قدره ليتعلّم أن كل حَرَم إذا استعصى فهو تلك الحمّى التي لا تطهّر إن لم تحرق، ولا تلد جوهراً إن لم تُهلك كياناً، ولا تحيي روحاً إن لم تُمِت بدناً.

حمل قدره في قلبه ونازع دنيا الخفاء إلى أن جاء اليوم الذي عبس فيه الزمان، فأجدبت الصحراء طويلاً، فلم يكن أمام القبيلة إلاّ أن تتفرّق بين الواحات، فنزل الواحة مع من نزل، حاملاً في الوجدان حزناً، وفي القلب وزر النّبوءة.

القسم الثالث (الاستجواب)

١ ـ إدهـي

استيقظ بعد الشروق فوجد شبحاً يتربّع بالجوار ويحدّق فيه بفضول. بادله تحديقاً بتحديق، ولكن الشبح لم يتزحزح، ولم ينبس، فتساءل:

ـ من أنت؟

طاف في عينيه إيماء ابتسامة غامضة قبل أن يجيب:

ـ وهل هذا سؤال يُلقى في وجه ضيف؟

نهض على مرفقيه. راقب فيض الشمس وهي تغسل هامات السيوف الرملية البعيدة. قال:

ـ كلانا ضيف على الخلاء.

ـ ولكن العرف قضى بأن يستضيف مَنْ سبق إلى الخلاء. أنت الآن على الخلاء مولى، وما أنا سوى طيف حلّ ضيفاً على سيّد الخلاء.

ـ علّك تدري أنّنا لسنا وحدنا على الخلاء سادة. فهناك أهل الخلاء الحقيقيين الذين نسمّيهم بلغتنا «أهل الخفاء». وقد أردت بسؤالي أن أستفهم عن هويّة ضيفي الحقيقية أهو من سلالة جنّ أم من سلالة إنس، ليقيني بأن أهل الخفاء سيصدقوني القول لأنه لم يحدث أن سمعنا بمخلوق سمع من أفواههم أكذوبة.

ظلّ الضيف يرمقه بفضول طوال الوقت دون أن تختفي من حدقتيه بسمته الغامضة. قال:

ـ حسناً. سوف أصدقك القول أيضاً برغم أنّي لم أعلم لنفسي صلة بقبائل الخفاء التي تتحدّث عنها. فأنا إسمي «إدَهي»، الأبلة «إدهي» إذا شئت المزيد. جئت من أكابر الواحة رسولاً كي تقبل دعوتهم في لقاء.

ـ لم أذهب في حياتي لوليمة، ولم ألبّ في دنياي دعوة داعٍ، فاحترس أيها الأبله!.

سكت الأبله برهة. تناول عوداً هزيلاً. كسره نصفين. قال بتصبّر العقلاء:

ـ ولكننا لم نُخلق في هذه الصحراء إلاّ لنلتقي، ولم يتجاور الناس إلاّ ليجتمعوا، فما الجرم في قبول دعوة الدّاعي؟

ولكن الغريب لم يتردّد، فأجابه بصرامة:

ـ الجرم في اللقاء، بل لم نعرف في دنيانا جُرماً إلاّ باللقاء. فهل تنكر أن الناس لم يجتمعوا إلاّ ليتنافروا ويتناحروا؟

سكت الأبله. اختفت من عينيه البسمة وتنزّل في المقلة

حزن. قال كأنه يتوسّل:

- ولكن التنافر أيضاً حياة. لأننا لا نعلم حقيقتنا إن لم نتخاصم ونتنافر. لأننا لا نتنافر أيضاً إلاّ لنتجاور من جديد ونرتمي في أحضان بعضنا البعض. هذا ما كان من زمان، وهذا ما هو كائن، وهذا ما سوف يكون، فلِمَ المغالاة؟

- آليت على نفسي ألاّ أخالف وصاياي، لأني جرّبت أنّي لم أخالف يوماً وصيّة من وصايا ناموسي إلاّ تنزّل على رأسي قصاص كنت في غنىً عنه، فاغفر لي إكباري لناموسى.

- تتحدّث عن الناموس كأنه ملكك وحدك.

- بلى. ناموسي ملكي وحدي.

- ألاّ تتحدّث عن «آنهي» ناموس الصحراء الضائع؟

- أتحدّث عن ناموسي الذي لا أدري عمّا إذا كان مستعاراً من ناموس الأجيال الضائع، أم أنه مستعار من قلبي الذي يخفي أسراراً لم أقف على حقيقتها لكثرتها إلى اليوم.

عمّ الخلوة سكون. سكون الصحراء الذي يسمّيه أهل الناموس بـ«نداء الأبديّة». قال الأبله بلهجة من يخاطب نفسه:

- أستطيع الآن أن أفهم لماذا لم تسقط قطرة مطر واحدة منذ حللت على ديارنا ضيفاً!.

- ماذا تريد أن تقول؟

- لقد اعتدنا أن يأتينا الأخيار بالغيث دائماً. في أقدام

الأخيار يتستّر المطر دائماً. هذا ما ورثناه في الناموس الضائع أيضاً.

تضاحك باستهزاء قبل أن يعلّق:

- وكيف تريدني أن أحمل في قدمي مطراً إلى خلْقٍ يدسّون التمائم الفظيعة في كل زاوية ليتحصنوا من المطر خوفاً على جدران سجونهم الطينية من المطر؟

- بلى. يفعل بعض الأشقياء ذلك حقّاً، ولكنّي أتكلّم بلسان سليل الصحراء وليس سليل الواحات.

- هل أنت سليل صحراء؟

- بلى. لم أعرف لي أباً ولا أمّاً سوى الصحراء!

- في المرّة القادمة سأنزل على رأسك مطراً وحدك. ها - ها - ها..

جلجل بضحك منكر زعزع السكون وخنق في صدر الصحراء نداء الأبديّة الخالد، ففزّ الأبله وانطلق نحو الحقول. فزّ الجليس أيضاً وطارده مسافة. لم يدركه فرجمه بنداء:

- هل جئت تعلمني السّحر يا شقيّ؟ أعرف هذا الناموس: يتستّر بالبلاهة الدهاة، ويتستّر بالدهاء البلهاء. إذا كنت أنت أبلهاً فأنا كبير البلهاء؟ ها - ها - ها..

٢ - إليلي

هجر الحقول والتجأ إلى المقبرة.

حمّل دابته أمتعته قائلاً إن أنسب مكان لمقام الإنسان ليس مجاورة الأحياء، ولكن جوار الأموات. حشرج بضحكته المكتومة وهو يتسلّل إلى حضيض الجبل الذي يتوسط الواحدة حيث تهجع المقبرة. لقد استطلع المكان مراراً منذ نزول الواحة، واكتشف أثناء ذلك أن الجبل ليس جبلاً كما يعتقد أهل الواحة البلهاء، ولكنه أجداث الأجيال التي تتابعت في الواحة منذ تصحرّت الصحراء واحتوت في أحضانها واحةً. تراكمت المقابر على المقابر، وتفتّتت الحجارة لتعلو أكوام حجارة أخرى، وتداعت أبنية لتتسلّق هامة أبنية سبقتها، وتكدّست عظام الموتى الذين خلفوا فوق جماجم الموتى الذين سلفوا وارتفعوا إلى الأعالي في بنيان جدير بأن يسمّى حَرَماً لا جبلاً. تعالى في الفضاء ليقيم للناس البرهان على باطلهم، وينبئهم كل يوم بالمصير الذي ينتظرهم وينتظر أخلافهم من بعدهم. ولكن الخلق عميان لا يرون، وصمّ لا يسمعون، وجهلة لا يقرأون. ولو كانوا يرون لأبصروا مصيرهم الذي ينتظرهم في الرمم التي تبرز هنا وهناك في الصرح القديم، ولو كانوا يسمعون لتبيّنوا نداء الحقيقة في سكون الصحراء الخالد، ولو كانوا يقرأون لقرأوا الرسالة المزبورة في صدر الحَرَم بعظام الجماجم. ولكن الأشقياء مع الحقيقة في خصام خالد، والدليل أنهم كانوا يفرّون على مرّ الأجيال من دورهم الطينية ما إن تطوّقها المقابر، ويتزحزحون جانباً. ولكن المصير يلاحقهم هناك أيضاً، لأن المقابر لا بدّ أن تطوّقهم، فيضطرّون للزحف من جديد. وها هم الآن يهجرون حقيقة ما ينتظرهم ويفرّون ببيوتهم في الخلوات المجاورة، ويطلقون على صرح الأجداث جبلاً، وعلى حضيضه المقدّس مقبرةً،

دون أن يجسروا على الانطلاق بعيداً، دون أن يجسروا على التحرّر حقّاً، دون أن يجسروا على الفرار من المعتقل وتسليم أمرهم للصحراء الأبديّة التي لن تذكّرهم أبداً بحقيقتهم، لأنها هي نفسها الحقيقة التي لن تحتاج أن تبني لهم من جماجم الأسلاف صروحاً تذكّرهم بالأثر الباطل، لأن من استجار بها استهان بالهلاك، إذْ لا هلاك في الجوف الذي أنجبنا. ولكنها لا تغفر لمن خانها، لأنّه لا يموت غريباً وحسب، ولكنه يحيا شقيّاً أيضاً؛ لأن مَنْ لم يستجر بالموت، لأن مَنْ لم يستجر بالصحراء، صارت حياته كلّها موتاً، صارت حياته كلّها صحراء!.

في دهليز أحد هذه الأقبية المعلّقة في سفح الجبل زاره في مساء أحد الأيام صاحب العقل: شيخ يعسر التنبّؤ بالزمان الذي سلخه في الدنيا، طويل القامة، شاحب البشرة، مهزول البنية، كأنّه جاء من متاهات الصحراء عابراً، كأنّه لم ينهل من مياه الواحات اللئيمة التي تبلّل الأبدان كما تبلبل العقول، يتقنّع بلثام مخطط باهت اللون، يلوّح في الهواء بعكّاز كئيب بدل أن يتخذه معيناً يتوكّأ عليه. يجادل خلْقاً لا يراهم أحد بحماس مسموع، ويسبّ رطوبات أرض الواحات التي أصابته بداء المفاصل جهاراً.

وقف خارج الضريح مع غروب الشمس وسمعه يقول كأنّه يحاجج شبحاً من أشباحه الخافية:

ـ لا يجب أن نقول أبداً: «هيّا بنا نفعل ما كان يفعل آباؤنا»!

خرج إليه فوجده يجاور قبراً تفتّتت حجارته ولم يبق منها

سوى شاهد القبر. يتابع الأفق المسربل بحمرة الغروب ممسكاً عكّازه بكلتا يديه. قال:

- هل يوصي مولاي بقول بديل؟

أجاب بلا تردّد:

- بلى. يجب أن نقول: «هيّا بنا نفعل ما يقوله العقل»!

- وماذا يقول العقل يا تُرى؟

- العقل يقول: «إيّاكم أن تسلّموا زمام أمركم لنساء الواحات، لأنهنّ سيصرن لكم في الأرض أوتاداً»!.

- كلّ أمرٍ في الأرض وتد: البدن وتد، والأرض نفسها وتد، فأين المفرّ من قَدَر الوتد؟

- يحزنني أن أسمع هذا من فم غريب نزل الواحة عابراً.

قرّر أن يتلذّذ بمشاهدة المغيب فتربّع إلى جواره. قال:

- بلغني أن مولانا جاء الواحة يوماً من الصحراء عابراً أيضاً.

- جئت الواحة عابراً أيضاً، وكنت أنوي أن أعبرها لو لم أخن عقلي وأقول لنفسي يوم استمرأت الصبيّة: «آن الأوان أن أفعل ما فعله آبائي من قبلي!»، فدفنت نفسي حيّاً!

حدجه من وراء اللثام خلسةً. تساءل:

- هل قلت دفنت نفسك حيّاً؟

ـ وما هو الاستقرار إن لم يكن استرخاء يعقبه موت؟

ابتسم من وراء اللثام ففضحت مقلته الخبيثة بسمته. ولكن صاحب العقل لم يلحظها لأنه لم يعد من رحلة الآفاق منذ حلّ على ضريحه ضيفاً. وافق ضيفه بقول:

ـ يروق لي أن أسمع هذا من إنسان ارتضى يوماً الواحة مقاماً.

ـ يهون الأمر لو اكتفى الاستقرار بإصابة أبداننا، ولكن ما يخيف أنه يصيب عقولنا أيضاً إلى جانب أبداننا.

ـ يروق لي ما أسمع! يروق لي كثيراً!

ـ يصيب أبداننا بداء المفاصل، يصيب أبداننا بالبلل والترهل والأوبئة، ولكن الأسوأ من هذا كلّه الدّاء الذي يصيب به عقولنا. انتظره أن يفصح، ولكن الضيف سكت. سكت طويلاً فتساءل بخبث:

ـ هل البلاهة جنس من أجناس هذا الدّاء؟

ـ البلاهة؟

ـ نعمت بزيارة مخلوق فَكِه يسمّي نفسه أبلهاً فظننت أنه أحد الذين أُصيبوا بالدّاء الذي تحدّثت عنه منذ قليل!

كتم ضحكته اللئيمة، ولكنها أفلتت فحشرج قليلاً ثم أوضح:

ـ لم أصدّقه بالطبع وإلاّ كنت أكثر منه بلاهة. فكما لا يجب

أن نصدّق من يقول عن نفسه حكيماً، كذلك لا يجب أن نصدّق من يقول عن نفسه أبلهاً، لأن عُرْف الإخفاء علّمنا أن حقيقة الشيء في ضدّه لا في ندّه.

ولكن صاحب اللثام المخطّط لم يعد من رحلة الأفق. قال من وطن البُعِد:

- أتدري أن كل من رأيت من الفلاّحين كانوا يوماً أهل صحراء؟

- وما البرهان على هذا؟

سكت. عمّ الكون. سكون المساء. في الأفق الذي يلي الحقول، ويطوّق السيوف الرملية الأحطّ قامة في أقصى الغرب، زحفت ظلمة ممزوجة بحمرة. تكلّم الشبح الملقّب بـ«صاحب العقل»:

- أَمِلْ بأذنك إليّ كي أسمعك سيرة.

- ما نحن إلاّ آذان صاغية!

- الواحة في الزمان القديم لم تكن واحة، ولكنّها بحيرة ككلّ البحيرات يلفّها الخلاء والسكون وتتلألأ مياهها تحت أنوار السّماء. في البحيرة كانت تعيش مخلوقات يُقال لهنّ في الناموس القديم «بنات الماء». وكانت هذه الجنيّات يتقنّ الغناء. لم يكن غنائهن غناء كالذي نسمعه من ألسنة الصبايا اليوم. ولكن ما نسمعه اليوم من غناء ما هو إلاّ محاكاة رديئة إذا قورن بغناء ساحرات البحيرات، حتّى أن أحداً لم يسمعه إلاّ فقد عقله وضلّ

سبيله إلى الأبد. وكان رجال ذلك الزمان ملّة مهاجرة قدرها أن تحيا سعيدة ما لم تستقر في أرض كما تقضي بنود عهد خفيّ لا تدري الأجيال عنه الكثير. ويُروى أن صاحب الأتان اللئيم هو الذي قادهم إلى البحيرة ليسمعهم الغناء من حناجر بنات الماء في حفل السَّمَر الذي يقمنه كلّما استوى القمر بدراً. سمعوا الغناء يوماً فجنّوا، وفقدوا سبيلهم إلى الأبد. فقدوا السبيل فركنوا إلى المكان كما يليق بكل عابر ضلّ السبيل. لهذا السبب تراهم يجدبون ويتمرّدون ويحاولون أن يحطموا أغلالهم كلّما سمعوا الغناء ووقعوا في نوبات الوجد. لأن الغناء يوقظ فيهم حقيقتهم القديمة التي يسمونها حنيناً، فيحاولون أن يفلتوا من القيد ويستعيدوا نفوسهم الضائعة!.

- يا لها من سيرة!

- حقيقة كلّ أمّة في سيرتها، فاحترس أن تستهين بالسِّيَر!

- لا أنوي أن أستهين بالسِّيَر، ولكنّي سئمت أن أسمع كيف يعلّق الأشقياء آثامهم في رقبة صاحب الأتان كلّما أعمتهم شهوة أو جنحت بهم نزوة!.

التفت إليه لأوّل مرّة. عاد من رحلة الأفق فحدّق فيه بعينيه الشاردتين كأنه يكتشفه إلى جواره لأوّل مرّة. كأنه كان يخاطب أشباحه طوال الوقت لا جليسه. قال بنبرة شكّ:

- هل تظنّ بأنهم يدّعون على صاحب الأتان باطلاً؟

- لم أشكّ في ذلك يوماً. فالنّاس لا بدّ أن يدّعوا على من

أراد بهم خيراً باطلاً أكثر مما يدّعون الباطل على من أراد بهم شرّاً. ألم يجرّب مولاي أنهم سبّاقون لطعنه كلّما دعاهم للاحتكام إلى سلطان العقل؟

مضى يحدّق في وجهه صامتاً. ثم طأطأ ليقول بلهجة يأس:

ـ الحقّ أنهم لا يعادون إنساناً كما يعادون الإنسان الذي يدعوهم للاحتكام إلى ساحة العقل!

هلّل الجليس:

ـ أرأيت؟ هذا يدعونا أن ندخل في السيرة تحسيناً فنقول: إن شهواتهم هي التي قادتهم للارتماء في أحضان جنيّات الماء بدل أن نقول: إن صاحب الأتان هو الذي وضعهم رهائن في قبضة الغناء. ولكن. . ولكن دعنا من سير الأوّلين وحدثني عن سلطان العقل. ألم تأتني هذا المساء كي تقودني إلى صراط العقل؟.

حشرج بضحكته الخبيثة، فتكلّم صاحب العقل:

ـ العقل رسول يقود، ولكنه لا يُقاد. وما جئت لأقنعك به، تستطيع أن تقنع به نفسك.

ـ لست عرّافاً حتّى أقرأ الخفايا التي تجوس في الصدور.

ـ كل صاحب عقل عرّاف. العقل في الدنيا أعظم عرّاف.

ـ ولكن النبوءة في لسان العراف أقوى. الوصيّة في فم صاحب العقل أنبل.

زحفت العتمة على الواحة. التهمت في سبيلها الأفق، ثم

استولت في رحلتها على الحقول أيضاً. أبنية البيوت وأكواخ الفلاحين المبعثرة هنا وهناك تحوّلت في قبضتها أشباحاً. قال الزائر بعد صمت:

- اسمع منّي إذن أولى وصايا العقل: لا تخالف العُرف أبداً. لا تخالف عُرف أرض نزلت بها ضيفاً أبداً. فهل أخطأتُ؟

عمّ صمت. من البُعْد علا نداء الجنادب. حرث تراب المرتفع المخلوط بمسحوق عظام الموتى قبل أن يقول:

- أنت لم تخطىء لأنك تكلّمت بناموس من يحيا حياة الناس. ولكنّي لا أستطيع أن أعترف بأعراف الأغيار لأني لا أحيا حياة الأغيار.

- ليس من حقّ إنسان يحيا بين الناس أن يستهين بناموس الناس. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جوابه، فسارع يجيب:

- لأنه لا يستطيع أن يستغني عن الناس.

فأجابه بيقين:

- مهلاً، مهلاً. لا نستغني عن الناس حقّاً ما دمنا نعترف بانتمائنا إلى ملّة النّاس. ولكني لا أستطيع أن أسلّمهم أمري أيضاً ليجعلوا منّي إنساناً ككل الناس.

- ماذا تريد أن تقول؟

عاد يتحدّث بيقين أشد:

ـ كي نحمل الحقيقة إلى الناس، لا بدّ أن نرفض حياة الناس. كي ننقذ الناس، لا بدّ أن نبتعد عن الناس.

ـ ولكن الناس أطفال أحياناً، والناس أشقياء تارةً أخرى. ما ضرّنا لو احتلنا عليهم بسماع شكواهم؟ ما ضرّنا لو أحيينا ضعفهم بقبول عطاياهم؟ ما ضرّنا لو سررناهم بالانخراط معهم في لهوهم؟

ولكن الجليس ردّ الحجّة بعناد:

ـ لو سايرناهم لجرّونا إلى دنياهم. لو تظاهرنا بقبول ألعابهم لتمادوا في عبثهم ظنّاً منهم أننا نوافق هواهم. لو تنازلنا لهم شبراً لفقدنا أنفسنا وصرنا جزءاً من زحامهم إلى الأبد.

ـ ولكنّك لن تأمن الناس إذا لم تكشف للناس عن نواياك!

أفلتت منه صرخة احتجاج:

ـ أكشف لهم عن نواياي؟ كيف أكشف لهم عن نواياي إذا كنت أعلم أني بهذا الفعل لن أخسر نواياي وحسب، بل سوف أخسر وصاياي أيضاً؟ لن أخسر وصاياي وحسب، ولكن سأخسر نفسي؟.

ضرب بعكازه الأرض مرّتين. أطلق أنين حنين طويل كأنه ينوح على ما مات من زمان كما اعتاد عقلاء الصحراء أن ينوحوا. قال رافعاً رأسه إلى أعلى كأنه يخاطب السماء المزروعة بنجوم المساء:

ـ هذه بليّة الرسل! أقسم بربّة الأرباب «تانيت» أن هذه لهجة

الرسل! لو أخذ الرسل الناس باللّين لما ارتفعت يد لترجم الرّسل بحجر.

ثم مال إليه ليتساءل بغموض:

- هل أنت رسول؟

أجابه الجليس في الحال:

- كلّنا رسل. كلّ صاحب نيّة رسول!

ثم حشرج بضحكته: ضحكة طويلة، مكتومة، ماكرة، لا مبرّر لها.

٣ - يَـــزَّال

العرّاف وقف ببابه بعد منتصف إحدى الليالي. عاد من جولة في غابات الحقول الجنوبية فوجده شبحاً ينتصب قبالة الضريح كأنّه يتعبّد: يرتدي السواد من لفافة اللثام حتّى الخفّ الذي يخفي القدمين، فيبدو في الظلمة ظلاًّ حقيقياً من ظلال الجنّ. وبرغم التنكّر (تنكّر الظلمة وتنكّر الأقنعة) إلاّ أنّه كان المخلوق الوحيد من بين الجميع الذي لم يخطىء له هويّة، فقرّر أن يمازحه:

- ألا يخشى صاحب الناموس على نفسه من بطش أهل الخفاء عندما يتسكع بين المقابر في آخر الليل؟

استجاب الشبح للدعابة في الحال:

- وهل في صحرائنا كلّها مكان أنسب لصاحب الناموس من مقابر الأسلاف، أو من خلوة البريّة؟

ـ يسعدني أن أسمع من حامل النبوءة حسن ظنّه بالمقابر وبخلوات البريّة!

ـ إذا عدم صاحب الوصيّة خلوة البريّة، فليس له إلاّ أن يلتجىء إلى الاسترخاء بلادة، وفي البلادة موت القلب!

ـ ما لا نناله برحيل الروح، لا نناله برحيل البدن. ونحن لا نستطيع أن نهب سليل الترحال ما لم يهبه لنفسه. أنت تفهمني.

زفر صاحب الأتان أنفاساً لاهبة. ويبدو أنه قرّر أن يضع حدّاً للاشتباك فدعا ضيفه إلى المجلس، ولكنّهما تربّعا مواجهة كأن قدَر الخصومة أن تستمرّ. قال صاحب الأتان:

ـ أنا أفهمك، ولكن الناموس لن يفهمك. أنتم حملة الناموس أوّل من خان الناموس: لقد نفختم في لغز الروح من أنفاسكم حتّى أنسيتمونا وجود الجسد، ونصّبتموه على الرقاب ربّا حتّى أيقنا بأننا روح بلا جسد، ونسيتم أنّنا لا نملك في دنيانا إلاّ هذا الجسد، وقدرنا أن نحمله كما يحملنا، لأننا نعرف أننا سنفقد في الصفقة كل شيء إذا استهنّا بأمره، وعنايتنا باللغز الذي تسمونه روحاً رهين بعنايتنا بهذه الأمانة التي أخبرتنا الأجيال بأنها لا تستقيم إلاّ بالترحال، ولا تعطب إلاّ بالاستقرار.

ـ الحقّ أني لم آتِ للجدل في أمر الروح والجسد.

ـ هل جئتني أيضاً كي تدعوني لأن أشرب من مياهكم المسمومة؟

ـ بل جئت كي أدعوك لأن تشرب من مياه الأرض المستعارة أيضاً من مياه السماء.

- مياه الصحراء وحدها مياه سماء، أمّا مياه الواحة فمياه حضيض. فلا تحاول أن تقنعني!

- حللت على ديارنا ضيفاً، ولا نريد إلاّ أن نقري الضيف عملاً بوصايا الناموس الذي يقول: إن الضيف دائماً رسول يحمل للناس بشارة دون أن يلزمك إكرامنا بأن تعتنق عرفنا أو تصير واحداً منّا.

- ولكن ماذا يفعل الرسول الذي يحمل للناس البشارة ويرى في قبول دعوة الناس خطراً على البشارة؟

- يحزنني أن أسمع هذا.

- يحزنني أيضاً. ولكن ناموس الضيافة أهون خيانة من ناموس البشارة.

ساد سكون.

في أحراش حقل الجنوب نعقت بومة.

القسم الرابع (الأخيار)

١ - الـوِزر

في الطريق إلى السوق اجتاز دروباً مكسوّة بتراب بلون الرماد. تتلألأ فيها شظايا العظام القديمة تحت شمس الضّحى كما تتلألأ ذرّات التّبر عندما تتبعثر على الأرض. تعترضه، في مسيره، مسارب هزيلة أخرى، تنحدر بعضها إلى أسفل وتصعد دروب أخرى إلى أعلى، نحو قمّة الجبل الملفّق من أجداث الموتى وجماجم الأسلاف الأوّل. عند جدار السور القديم، المهدّم، وجد بقيّة من حيطان الأبنية الطينية التي تداعت ولم يبق منها سوى أطلال كئيبة تستثير الحزن، وتوقظ اليقين بزوال كل ما علا الأرض، ليصير يوماً أسفل الأرض، جزءاً من الأرض، ليكوّن حقيقة الأرض التي تدبّ على جسدها هذه الظلال المكابرة التي تسمّي نفسها خلْقاً. ها هي بقايا الجدار الذي آوى الإنسان يوماً، وها هو رماد الموقد الذي أطعم الإنسان يوماً، وها هي شظايا الفخار التي كانت لربّ البيت آنيةً يوماً، وها هي قطع عظام مرصّعة بلآلىء خفيّة تلتمع تحت الضياء بإغواء الغموض هي كل ما تبقّى من ربّ كان بالبيت

مستبدّاً يوماً. أليس مهزلةً أن ينهزم ربّ البيت فينقشع، وتبقى الأدوات التي استخدمها برهاناً وحيداً على وجوده يوماً؟ أتكون الأداة أقوى من ربّ الأداة، وأطول عمراً من ربّ الأداة وهو الذي داس الرقاب، وأراق الدّم، وداس على الأرض باستعلاء الخالدين أبداً، فاختفى اختفاء السراب لتصير شظية الفخار على وجوده دليلاً وحيداً؟.

شظايا الجماجم تتلاشى على التوالي لتصبح جزءاً من تربة السبيل، والجدران تتهاوى لتستوي بالأرض التي خرجت منها، وقطع الفخار ستتبدّد أيضاً يوماً لتعود طيناً، ولا يبقى في الأرض إلاّ الأرض، فكيف يشكّ المخلوق المكابر بأنه لم يكن يوماً إلاّ نبتة أرض غرّر بها المسعى فعاثت الفساد في الأرض؟.

وبرغم ذلك إلاّ أنه لم يملك يوماً إلاّ أن يشعر نحو هذا الكائن بالإكبار، لا لشيء إلاّ لشجاعته التي تجعله يذهب ليختفي في حبّات الترباء وهو يتطلّع برأسه إلى النجوم. ترثه في دنياه أحقر أدواته، برغم ذلك يكابر ولا يفقد يقينه بأن الرحلة سوف تقوده إلى المطاف الذي سيتبوّأ فيه عرش السّماء. ولكن ما يدهش أكثر ليس تعلّقهم بالأعالي، بل تشبّثهم بالأسافل، تمسّكهم بالحضيض، استسلامهم للأرض التي يجب أن يفرّوا منها لا أن يركنوا إليها ما داموا يدرون أنهم سيصيرون يوماً في جوفها لقمةً. خانوا وصيّة أسلافهم الذين اعتنقوا ناموس الهجرة لإيمانهم بأن أهل الاستقرار وحدهم أموات، لأنهم وحدهم يملكون أبداناً تستثيرهم الأرض، أمّا أهل الترحال الذين لا يحطّون في المكان،

ولا ينزلون الأرض، فلا يملكون ما يستفزّ الأرض أو يستثير شهوتها، لأنهم لا يملكون شيئاً: لا يملكون متاعاً، ولا جدراناً، ولا أبداناً، ولا حتّى أحلاماً. يملكون عبورهم فحسب. يملكون لغزاً واحداً لا سلطان للأرض عليه، ولا تستطيع دنيا الأحاضيض أن تجد له تأويلاً: الخلاص!.

فهل يجازف اليوم عندما ينزل ساحة الأسافل ليذكّر القوم بالوصيّة، مكبّلاً بوزر تميمة طوّقته بها الأجيال اسمها: الخلاص؟!.

من الشمال هبّت نسمة مبلّلة بأنفاس مطر بعيد، فتولاّها بصدر ظامىء، ثمّ أطلقها في زفرة كالفحيح.

٢ ـ البيت

قبل أن يخترق الأبنية الطينية المؤدية إلى ساحة السوق، فزّ من وراء جدار خرب، مخلوق جسور اعترض سبيله، فأنكره في البدء، ولكنه لان في وجهه حالما عرف في مسوحه الأبله، فقرّر أن يمازحه:

ـ هل هذا بيتك الذي جئتني يوماً لتدعوني إليه؟

فأجابه باقتضاب:

ـ هذا ليس بيتي.

سكت غمضة ثم أضاف:

ـ دعوتك يومها إلى بيت آخر.

ـ بيت الأغيار؟

- بل بيت الأخيار!

- بيت الأخيار؟

هوى بقبضته على صدره قائلاً:

- إنه هنا، في قلبي!

- سألتك عن بيتك في الدنيا، لا عن بيت الحنين.

- لا أملك بيتاً سواه.

- ولكن لا بدّ للإنسان من مأوى ما دام لا يريد أن يتزحزح ليطلق ساقيه للآفاق.

- لا يعوّل على مأوى إن لم يكن قلباً.

سارا جنباً إلى جنب في طريقهما إلى ساحة السوق. عبرا زقاقاً ضيّقاً مطوّقاً بصفتين من البيوت. في البُعْد سمعا جلبة الخلْق المتزاحم في السوق. عاد إلى استفزاز رفيقه في السبيل:

- إلى أين ستقودني إذا قلت لك أني قررت أن أقبل دعوتك؟

- إلى قلبي. هل في الدنيا بيت أكثر أماناً من القلب؟

- دعنا من سيرة القلب..

- لقد أردت يومها أن أدخلك قلبي، ولكنك كابرت. لقد جئتك يومها رسولاً لقلوب الكلّ، ولكنك استكبرت لسرّ لن تخفيه الأيّام طويلاً.

- ها - ها.. ها أنت تتحدّث عن الغيوب منتحلاً دور العرّاف أيضاً!

- من منّا في هذه الصحراء ليس عرّافاً؟

- ولكن ألا ترى أن أنسب حديث بين رجلين هو النساء؟

حدجه «إدَهي» بارتياب قبل أن يتساءل:

- هل قلت النساء؟

غمز بخبث قائلاً:

- سرب الجنيّات. قيل لي إن في الواحة جنيّات حسان، عددهن ستّ، يتشابهن كما تتشابه حبّات الشعير، ويحسنّ الغناء أكثر مما يحسنه الطير!

- أراك تتحدّث عن بنات الماء!

- بنات الماء؟

- ألم تسمع بسيرة بنات الماء اللائي كنّ سبباً لوجود الواحة يوماً؟

- أظنّ أني سمعت شيئاً من هذا القبيل، ولكنّي لم أسمع عن صلة جنيّات الواحة ببنات الماء يقيناً.

- ما سرب البنات الستة إلاّ سلالة بنات الماء!

استوقفه ليشجّعه على قول المزيد، ولكنهما بلغا مشارف السوق، فتقدّم منهما رجل رثّ الثياب، قصير القامة، يميل إلى البدانة، قال له إن اسمه «أمجار»، ولقبه «كبير التجّار».

٣ ـ الحُبّ

دخل برفقتهما الزحام، فانشغل بمشاهدة الخلْق الذين يشترون ويبيعون، يروّجون ويحتالون. بعضهم ينسى حاجته التي جاء إلى

السوق من أجلها فينفق ماله في شراء سلعة أخرى لم تخظر له على بال، فيعضّ بنان الندم بعد فوات الأوان. والبعض الآخر يندمج في المساومات والمضاربات والمماكسات فيبيع، لأن الغاية التي جاء من أجلها أن يبيع، لأن ناموس التجارة أن يبيع صاحب التجارة، حتّى إذا باع اكتشف أنه باع بثمن الخسارة. ولكنه لا ييأس، لأنه يعرف أنه سيعوّض في صفقة الغدّ ما خسره في صفقة اليوم. ولأنه يعرف أيضاً أنه سيقوّض اللعبة، ويخرّب عُرف التجارة إن تردّد اليوم وكفّ عن البيع خوفاً من الخسارة، لأن الجبن هو الإثم الذي لا تغفره التجارة. لأن الأهم من الربح هو البيع والشراء. الأهم في اللعبة هو الحركة، هو الفوز والفقد، هو الكرّ والفرّ، لأن الحركة، لأن الفوز والفقد، لأن الكرّ والفرّ، ليست شريعة للعبة التجارة وحدها، ولكنها ناموس لدمية الدنيا كلّها. لهذا السبب كانت التجارة دائماً قريناً لحميمتها الدنيا، لا تحيا إحداهما بعيداً عن الأخرى أبداً.

قال كبير التجّار كأنه قرأ قلبه:

ـ التجارة سرّ دنيانا، و لو لم تخلق التجارة لما خُلقت الدنيا!

ـ التجارة عدوّي اللدود.

استفهم الرجل بنبرة لا تخفي الاستنكار:

ـ ماذا تقول؟

ـ التجارة عدوّ الخلاء. التجارة عدوّ الخلاص. وكلّ عدوّ للخلاص عدوّي!

ـ لا أفهم عن أيّ خلاص تتحدّث، ولكن ما أعرفه أن وجود هذه الواحة رهين بهذا المارد الذي يسميه الناس مبادلة، أو مقايضة، أو تجارة!

حاججه ببرود:

ـ مارد حقاً، ولكنها مارد شرير. فاتنه ـــ، ولكنها الفاتنة التي تنسج لنا من جدائل شعرها قيداً!

ـ لم أسمع في دنياي كلّها إنساناً واحداً يتحدّث عن ربّة الدنيا بمثل هذه اللغة.

ولكن الداهية أراد أن يضع حدّاً للجدل فتساءل وهو يتلفّت حوله:

ـ ولكن أين الأبله؟

ـ لا تعره اهتماماً. الأبله يظهر فجأة، ويختفي فجأة:

وقف فوق رأس عطّار يحشد على خرقة أعشاباً ويروّج لبضاعته بأعلى صوت: «عشبة الباه! عشبة الباه! كلّ من أعجزته مهرته في المخدع فعليه بعشبة «إزير» الي تشعل الباه!». سأل العطّار عن الثمن بلا مبالاة. ثمّ تجاهله والتفت ليحدّث الرفيق:

ـ هل تدري؟ الأحبّ إليّ من تجارتكم هذه، هو أبلهكم هذا!

رمقه صاحب التجارة بدهشة، فعاد يؤكّد على القول:

ـ بل الأحبّ إليّ من دنياكم هذه، هو أبلهكم ذاك! ها ـ ها..

ـ لا أريد أن أسعى بين الناس بالنميمة، ولكني استنتجت من كلام الأبله يوماً أنه لا يبادلك حبّاً بحبّ.

ـ ها ـ ها.. أعلم، أعلم. لأنه لا يعلم أنّي من طينة لا يسعدها أن تُحَبّ بقدر ما يسعدها أن تُحِبّ.

ـ لا أفهم.

ـ أنا لا أحبّ من يحبّني، أنا أحبّ من أحبّه. هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جوابه، فمضى كمن يحدّث نفسه:

ـ من أحبّني وضع القيد في عنقي، أمّا من أحببت فقد وضعت الغلّ في عنقه!

ـ عجباً! لقد ظننت دائماً أننا أسرى من أَحْبَبْنا، لا من أحبّنا.

ـ ذاك منطق الدهماء. ذاك لسان الضعفاء الذين لا يعرفون لماذا أحبّوا من أحبّوا، ولا حول لهم ولا قوّة في أن يكفّوا عن حبّ من أحبّوا يوم يدركون حقيقة من أحبّوا!

ـ وهل بمقدور مولاي أن يقلع عن حبّ من أحبّ إذا اكتشف حقيقة من أحبّ؟

ـ القدرة على الإقلاع قَدَر من يخطىء لا من يصيب، لأني عادةً لا أحبّ أبداً إن لم أدرك أوّلاً حقيقة من أحبّ.

وقف في مواجهتهما رجل مارد، معمّم بلثامين مزدوجين،

مدجج بسيفين مدسوسين في غمدين موسّمين بالتمائم والعلامات السحرية القديمة. يمسك بيمناه حربةً طويلة، شرسة الرأس، كئيبة اللون. قدّمه كبير التّجار بإجلال قائلاً:

ـ هذا مولانا البطل «إمّار»!

٤ ـ البطولة

بكفّ في حجم خفّ البعير صافحه باستعلاء الأكابر، ولكنه لم ينبس على عادة هذه الملّة، فقرّر أن يحتكم إلى المديح ليستدرجه إلى القول:

ـ لقاء أهل البطولة دائماً فأل خير، ففي أي حملة فاز مولانا باللقب الجليل؟

ولكن البطل المزعوم لم يتكلّم. تسكّع بجواره في زحام السوق صامتاً، يركل بنعله حجارةً، ويدفع الخلق بمنكبيه الجبارين بلا مبالاة تثير الإعجاب.

انتظر الجواب طويلاً، فتطوّع كبير التجّار للردّ نيابةً عنه:

ـ البطل «إمّار» لم يشترك يوماً في حملة!

ـ ألم يصدّ عن الواحة الغزاة أيضاً؟

ـ كلا، كلا.

ـ ولم يشنق في جذع النخلة الأشقياء؟

ـ لم يشنق في جذع النخل أشقياء!

ـ ولم يطعن بحربته قطّاع الطرق؟

تبادل كبير التجّار مع «البطل»، نظرة خفيّة، فلاحظ في عين

المارد بسمة ماكرة، كأنه يخوله حقّ الإجابة نيابةً عنه:

- ولم يطعن بحربته قطّاع الطرق أيضاً!.

هنا توقف النزيل فجأة، وهدهد عمامته بكفّه قائلاً:

- لقد تذكرت. صاحبنا ورث اللّقب المهيب عن أسلافه يقيناً.

ولكن كبير التجّار نفى ذلك أيضاً:

- كلاّ، كلاّ. لم يرث البطل اللقب عن أجداده يوماً.

أطلق حشرجته المكتومة قبل أن يقول:

- هذه أحجية! أقسم أن هذه أحجية مدبّرة، وعزائي في فكّ طلسمها في اعترافي بعجزي!.

كتم ضحكته الفظيعة، فقال كبير التجّار بروح اللامبالاة:

- مولانا «إمّار» صرع مارد الجنّ في رهان، ففاز بلقب البطولة عن جدارة!.

رمقه من تحت اللثام، ولكن كبير التجار لم يستجب. تساءل:

- هل هذه دعابة؟

- كلاّ!

- ظننتك تستهزىء!

- لماذا استهزىء؟ أتحسب أن الإطاحة بمارد الخفاء عملاً هيّناً؟

- ها ـ ها.. لا أحسبه عملاً بطوليّاً أيضاً!

ـ ما الذي يحمّلك على هذا الظنّ؟

ـ لأن البطولة شيء آخر. البطولة أن تصرع نفسك لا أن تصرع الجان!.

ـ أوضح..

ـ البطولة أن تفعل ما لا تريد لا ما تريد.

ـ ظننت أن البطولة أن تفعل ما تريد لا ما لا تريد.

ـ هراء! من يفعل مايريد لا يفلح في دنياه إلى الأبد.

ـ أذكر أني أردت الثروة يوماً عندما كنت في المهد صبيّاً فسمعت هاتفاً يحثّني على الإلتحاق بالقوافل واحتراف التجارة ففعلت. فعلت ما أردت أن أفعل. فعلت ما أردت لأني أدركت أن التجارة قدري، والهاتف الذي هتف في أذني نبوّتي. ولولا يقيني بذلك لما أفلحت، ولما صرت، كما تراني اليوم، كبير التجّار في الواحة، وربما في الواحات كلّها.

ـ ها ـ ها.. ولكن التجارة ليست بطولة. بل التجارة نقيض البطولة. البطولة، يا مولانا كبير التجار، هو أن ترفض التجارة، وتتخلّ عن الثروة!.

ـ التخلّي! التخلّي! لو اعتنقنا التخلّي جميعاً لما كانت الدنيا دنيا، ولما ضجّت الواحة بالحياة كما تراها أمامك الآن. التجارة، يا مولانا الغريب، هي الحياة!.

ـ إذا كانت التجارة هي الحياة، فلا شكّ أن البطولة عكس الحياة.

- البطولة هي الموت تريد أن تقول؟

- بلى. البطولة هي أن نموت لا أن نحيا. ولكن.. مهلاً، مهلاً. لماذا لا يجيب مولانا «البطل» عن أسئلتي؟ هل هو أبكم؟

- لأن الأبطال لا يتكلّمون.

- هل تستهزىء؟

- ألم تقل منذ قليل أن البطولة هي الموت، والأبطال هم الأموات؟

- ها - ها..

اعترض سبيلهم جمع أكابر، يتوسطهم رجل متوسط القامة، أميل إلى البدانة، ملفوف بمسوح الوقار الزرقاء. هلّل له كبير التجّار بإكبار كأنه يتلو أبياتاً في قصيدة مديح:

- هذا كبيرنا، ووليّ أمرنا، مولانا المبجّل «إِوَرْ»!

٥ - الخلاص

سعى إليه كبير القوم وفي عينيه بسمة. تقدّم حتّى كاد أن ينطحه بعمامته المهيبة فلاحظ في وجنتيه آثاراً لبثور خلفها وباء الجدري. حدّق فيه بعينين ضاحكتين قبل أن يمازحه قائلاً.

- هل أرى الغريب الذي أقبل على ديارنا محمولاً على ظهر الأتان؟

شدّ طرف لثامه السفلي إلى أعلى، ثم ثناه إلى أسفل ليضاعف إخفاء الشفتين على طريقة الأكابر وزعماء القبائل. استلقى برأسه

إلى الوراء مغالباً ضحكة مرح قبل أن يضيف:

- كيف تريد العقلاء ألاّ يسيئوا بك الظنّ وقد أقبلت علينا محمولاً على ظهر الأتان على طريقة اللئيم «وانتهيط»(*) الذي تتندّر بسيرته الأجيال؟.

رفع كفّه يسوّي طرف اللثام أيضاً قبل أن يتصدّى للدفاع:

- استثمرت سوء ظنّ القوم حقّاً، برغم أنّي لم أستدرج الدهماء بألعاب الكذب لأسوقهم إلى الهاوية بعد!

تضاحك الجمع. ضحك كبير القوم أيضاً. قال وهو يداري ضحكته بلثامه:

- وهل تنوي أن تفعل؟

- ها - ها.. وهل يستطيع المخلوق أن يتمرّد على قَدَره؟ سوف أسوقهم حتماً، ولكن ليس في طريق الهاوية كما تروي الأجيال السيرة، بل إلى سبيل الخلاص!

- الخلاص! الخلاص! لن نعرف إلى الخلاص سبيلاً ما لم نمحُ هذه الكلمة من لساننا. كلّ من انضمّ إلى فرقة شذّاذ الآفاق ادّعى النبوّة ونادى في القبائل قائلاً إنه رسول خلاص. الداهية «وانتهيط» أيضاً ادّعى أنه سيحمل القوم إلى سبيل الخلاص يوم رمى بهم في فم الهاوية.

- الهاوية أيضاً، يا مولانا، أحياناً خلاص!

(*) وانتهيط: صاحب الأتان.

ـ هل سمعتم؟

جذب طرف لثامه على أنفه ليخفي وجنتيه الموسمتين بآثار الجدري، وتضاحك بمرح طفولي وهو يستلقي إلى الوراء:

ـ الهاوية أيضاً خلاص يليق بالدهماء تريد أن تقول؟

ـ بلى. ألا نحرق الجسد بالنّار كي نجتثّ الدّاء؟

ولكن كبير القوم مال إليه بعمامته وهمس في أذنه:

ـ لماذا لا نرجىء حديث الخلاص إلى حين تأتي لتشاركني العشاء الليلة؟

ـ آليت على نفسي ألاّ أجتمع مع إنسان على وليمة أبداً.

اختفى وميض المرح من عينيّ الوليّ وتساءل بلهجة تفضح دهشةً:

ـ هل هو عهد؟

ـ تستطيع أن تسمّي هذه الحماقة عهداً.

ـ هذه حماقة حقّاً، لأن العهد أن نجتمع على الوليمة، لا أن نتربّص ببعضنا البعض.

ـ التخلّي عن الوليمة، يا مولاي، ليس دائماً مكيدة.

ـ ولكن العهد الذي ورثناه عن أسلافنا قال بالأمس غير ما تقوله أنت اليوم.

ـ ها ـ ها. العهد الذي ورثناه عن أسلافنا قال وصايا

كثيرة لو اعتنقناها لما احتجنا إلى التطاول في البنيان، وتشييد الواحات، والاجتماع في الأسواق.

- أدونت أكمان أنفان![*] هذا ما قاله الناموس القديم.

- إتَكّا تيرَكَفت تقَّال إويتفلْد![**] هذا ما قاله الناموس القديم أيضاً.

- هل هو نداء العبور؟

- لا نداء، يا مولانا، سواه.

- ولكنّنا سنعبر في كل الأحوال. سنعبر حتماً حتى لو هجعنا دنيانا كلّها.

- عبور الهجعة التي يتحدّث عنها مولاي، عبور العار، لا عبور الوصيّة التي تحدّث بها لسان الناموس.

زفر الوليّ بتأفف، ولوى طرف اللثام السفلي حول سبابته ليخفيه أعلى وجنته اليمنى، قبل أن يقول:

- لا أحسن المجادلة في السوق. لم أجادل أحداً في وصايا الناموس في زحام الأسواق قبل اليوم، فاقبل دعوتي وسوف أنحر ناقة لشراء العهد.

أطلق ضحكة ليداري حرجاً، ولكن صاحب الأتان كابر بتصميم:

(*) الناس وجع، ولكنهم أيضاً نفع!.

(**) أينما ذهبت القافلة، فإنها إلى المنطلق تعود!.

ـ هيهات!

الوليّ أيضاً استبسل:

ـ هل ترى في الركون إلى القبور أُنساً أنبل من مجالسه الخلق؟

طأطأ داهية الأتان لأوّل مرّة. ولكن الجمع اقتنص إيمان الحزن الذي حاول أن يخفيه قبل أن يقول:

ـ في مجالسة أسلافنا الذين هجعوا يا مولاي، حكمة الهجعة الأبدية. لأنهم يقولون لنا بهجعتهم ما لا يقوله لنا أهل الدنيا بوقفتهم. يقولون لنا الحقيقة يا مولاي.

ـ تلك حقيقة سنقف عليها يوماً شئنا أم أبينا، فلِمَ العجلة؟

ـ لأننا لا نحيا حقّاً يا مولاي إن لم نستطعم مذاق الهجعة. لأننا لا نحيا اليوم حقّاً، يا مولاي، إن لم نمت قبل حلول أوان الموَت.

ـ أنت تدهشني. أنت توقظ في قلبي فضولاً ظننت يوماً أنّي دفنته، أفلا سبيل لسماع الضيف الجليل إلاّ في ساحة سوق يعلو فيها صوت الغوغاء؟

أجابه بإيماءة، ثمّ طأطأ أرضاً قبل أن ينطلق. هتف كبير القوم خلفه بنداء:

ـ أهل العزلة دائماً على حقّ. عبثاً نحاول أن نكسب الرهان مع مَنْ اعتزل!

القسم الخامس (الأجنة)

١ ـ الدّاء

تركت السِّرْب يدبّ في غابة النخيل، وخرجت تحتطب في السهول الشرقية عندما أحسّت بالدوار. غزت عينيها سحابة ظلمة، واستولى عليها وهن شامل، فتزعزع البدن، وترنّحت. جلست وهي تغالب غثياناً. أغمضت عينيها وسحبت الأنفاس بعمق. على جبينها نزّت حبّات عرق. ارتجت بقشعريرة عنيفة، فسقطت على ركبتيها. حاولت أن تتقيّأ الكوم الذي غصّ به البلعوم، ولكنّها لم تلفظ إلاّ لعاباً رجراجاً مريب اللّون. أطلقت صوتاً غريباً وهي تجاهد لتتحرّر من الدّاء. صوت أفزعها أكثر مما أفزعتها النوبة، لأنه ذكّرها بصيحة الاستنكار التي أطلقتها جارتها قبل أن تلفظ بين يديها أنفاس النزع الأخير منذ ما يزيد على العام. وإيماء الاستنكار الذي رأته يومها في عينيها فاق إيماء الاستنكار الذي أطلقته بصوتها. فهل الموت مخيف إلى هذا الحدّ؟ هل أفزعها المصير إلى هذا الحدّ برغم أنها كانت تعلم أنها ستموت منذ أمد بعيد، بل كانت تتمنّى أن يأتي الموت ليضع حدّاً لآلامها كما قالت لها مراراً؟.

تراجع الدوار وانقشعت سحابة الظلمة، فانتظمت الأنفاس.

نهضت لتعود إلى سرب الغابة، ولكنها لم تجتز أحراش النخيل المبعثرة على مشارف الغابة حتّى فزّ من بين رجليها أرنب أشهب اللون. فزّ شرقاً نحو السيوف الرملية، ولكنه انحرف فجأة، وطار ليختفي وراء أكمة تفصله عن الغابة. انقبض قلبها بيأس من أيقن بالهلاك، فسارعت تلجلج بلسانها تعويذة الأقدمين لطرد الأرواح الشريرة. أسرعت، ولكنّها تعثرت فسقطت، لعثم لسانها بعبارة: «نحس! نحس!»، ظلّت تردّدها بديلاً عن التعويذة المبهمة. حاولت أن تنهض من جديد، ولكنها انهارت. ساعتها اعتصر جوفها الوجع. لم يكن وجعاً، ولكنه سكين مزّق أحشاءها بشراسة جنونية، فصاحت بأعلى صوت. حاولت أن تنهض مرة أخرى، ولكن الألم الفظيع صرعها، فهوت أرضاً، وشرعت تتلوّى. استمرّ النصل الشرس يحصد الأحشاء في جوفها، فاستمرت تعتصر بطنها بكلتا يديها، وتتلوّى. غزا بدنها عرق سخيّ جدّاً حتّى أنها أحسّت بالرمل الظامىء تحتها مبللاً بعد أن استعار الماء من جسدها. توقّف السكين عن عمله ففتحت عينيها لتكتشف أن السائل الذي غمرها وبلّل الأرض تحتها لم يكن عرقاً، ولكنه دم ينزف من بين فخذتيها. أطلقت أنيناً طويلاً، موجعاً، حتّى أنها لم تسمع نداء إحدى بنات السرب التي هرعت لنجدتها:

ـ النجدة يا بنات الناس، تفران تسبح في الدّم!

٢ ـ النّداء

بعد شروق شمس نهارٍ بشّر بالقيظ انطلق في الواحة نداء:

ـ اليوم، يا أهل الواحة، وقع في الديار بلاء، وأصاب بطون النساء الدّاء، فانحروا القرابي، واجتنبوا البلبلة حتّى ينجلي الأمر ويُعرف سبب الوباء. أمانة في عنق حاضركم أن يبلّغ غائبكم!

تسكّع الأبله بين الأحياء مهرولاً حيناً، متمهّلاً حيناً، يمسح العرق بطرف لثامه حيناً، وبكم جلبابه حيناً. يرفع عقيرته بالنداء حيناً، ويسكت ليلتقط أنفاسه حيناً. توقّف في سبيله أمام المنازل والأكواخ مراراً ليتلقى من أيدي النساء الماء. كنّ يتابعنه بفضول وهو يتجرّع الماء من القلل أو الأوعية الخشبية قبل أن ينطلق في مسيرته من جديد. ولكن الأبله وحده كان يعلم أن ما يراه السابلة في عيون النساء يومها لم يكن فضولاً، لم يكن ظمأ إلى الأنباء، ولم يكن خوفاً من المجهول الذي يخفيه عادةً نبأ كل بلاء، ولكنه إحساس أكبر من الفضول، ومن الظمأ إلى الأبناء، ومن الخوف. في عيونهن إيماء يفضح يقيناً، يخفي فجيعة، لأن البلاء هذه المرّة لا يهدّد ملّة النساء فحسب، ولكنه مكيدة ستقطع السلالة من الواحة، وربّما من كل الصحراء. ولكن فجيعة النساء لم تقطع الوصية على لسانه، فعاد يهتف بالنداء:

ـ اليوم، يا أهل الواحة، وقع في الديار بلاء، وأصاب بطون النساء الدّاء، فانحروا القرابين، واجتنبوا البلبلة حتى ينجلي الأمر ويُعرف سبب الوباء! أمانة حاضركم أن يبلّغ غائبكم!

انضمّ له الصبيان في السبيل. رافقوه في صفين أحدهما هرول على يمينه وثانيهما على يساره. يتخلّف بعضهم عندما يطول

المسير، ليلتحق بالمسير آخرون كلّما بلغ الطابور حيّاً جديداً. وكان العقلاء يتبذّون في مداخل الأكواخ أو بيوت الطين ليقفوا واجمين وجوم الأشباح، ساكنين سكون الأنصاب، فلا يتزحزحون حتى يمرّ الموكب وتغيّب الكوكبة الأحراش أو مرتفع الروابي عن الأبصار.

نزيل الواحة وحده اعتصم بخاصرة الجبل في صباح ذلك اليوم، فراقب الموكب منذ انطلق من زحام البيوت الشمالية، وعَبَر الأكواخ المبعثرة على السهل المؤدّي إلى المنازل التي تحيط بساحة السوق، وتطوّق الجبل من جهتي الشمال والشرق، ولم يغب عن بصره حتّى عندما انحرف ليتسلّل عبْر الأزقّة الضيّقة حيث تلتحم المنازل، وتتداخل جدران البيوت، كأنها تحتمي ببعضها خوفاً من خطر مجهول.

وكان النّداء الملحون يغزو سمعه أيضاً: يدنو حيناً فيميّز العبارة بوضوح، وينأى حيناً آخر حتّى ينقلب طنين ذباب في سكون الفلاة. وبرغم أنه كان يحشرج بضحكته الجسورة منذ بدأت المسيرة وانطلق النّداء، إلاّ أنّه غصّ بالعبْرة أكثر من مرّة بسبب الفجيعة المخبوّة في النغم لأنه لم يسمع في النداء إلاّ المرثية. ربما لأنه لم يسمع في النداء إلاّ فجيعة، ولم يقرأ فيه إلاّ وصيّة نواح كلّما علا في ربوع القبائل. فهل قَدَر الخليقة ألاّ تسمع من فم النذير إلاّ وصيّة نواح كلّما علا في ربوع القبائل؟ فهل قَدَر الخليقة ألاّ تسمع من فم النذير إلاّ مرثية، أم لأن البشارة سرّ خجول بلا لسان، يتسلّل إلى الأرباع خلسةً، وعلى استحياء، ويفرّ من الربوع

أيضاً خلسةً، وعلى استحياء، كما جاء؟

٣ ـ الفأل

اختنق بضحكته المريبة مرّة أخرى، لأنه كذئب أساطير الأوّلين الذي لا يملأ شدقيه ضحكاً إلاّ عندما يجوع، لأنه يعلم أن الجوع لا بدّ أن يعقبه شبع. ولكنه لا يبكي إلاّ عندما يشبع لأنه يعلم أن الشبع لا بدّ أن يعقبه جوع. هو أيضاً يحشرج بالضحك عندما يحزن لأنه أعلم الخلق بأن نهاية الحزن دائماً فرح، ولكنه يبكي عندما يوهب سبب الفرح، لأنه يعلم أن عاقبة الفرح حزن.

ابتلع ضحكته ونزل السفح ليلتقي بكبير التجّار في الحضيض.

كان مبلبل البال، يغزو القلق مقلتيه، ينحسر لثامه عن فمه، يكشف عن أثرٍ قديم لجرح عميق أصاب نصيباً من الخدّ الأيسر واخترق الشفة العليا. استوقفه بسؤال:

ـ هل أصابك سوء؟

رفع إليه بصراً غائباً قبل أن يجيب:

ـ وماذا في دنيانا غير السوء؟ لا نلتقط أنفاسنا من سوء حتى نتلقّى نصيباً جديداً من السوء. ألم تسمع النداء؟

ـ سمعت النداء ورأيت من علٍّ نذيركم وهو يسرح بالنداء.

حدّق فيه بعينين محتقنتين:

ـ البارحة أسقطت الحوامل من البطون الأجنّة.

ـ لا!

لكنّ ضحكته المريبة أبت إلاّ أن تفلت من صدره، فحشرج قليلاً، ثم خنقها ليقول:

ـ وما سبب العلّة؟

ـ الدّاء عندما يسود لا يكون علّة. الدّاء عندما يسود قصاص!

ـ والقصاص كما تعلم كثيراً ما يكون رسالة خلاص. فهل يجب أن نخشاه إلى هذا الحدّ ونستسلم للبلبال؟

لوّح «آمجار» بيده في الهواء كأنه يهشّ ذباباً ثم تساءل بيأس:

ـ ماذا نفعل بنساء خاويات البطون؟

مدّ يده والتقط طرف لثامه الذي انحسر عن فمه. لواه حول سبابته قليلاً، ثم سحبه إلى أعلى حتى جاور أذنه اليسرى. دسّه في ثنايا اللثام فأخفى الأنف تماماً. تساءل بلهفة مفاجئة:

ـ قل لي: هل المرأة امرأة إذا لم يملأ بطنها جنين؟

خنق في صدره ضحكته اللئيمة مرّة أخرى. أجاب:

ـ إذا لم يملأ الجنين بطن المرأة، فلا شك أن المرأة ليست امرأة، وليست رجلاً، أيضاً!

ـ البارحة، بعد منتصف الليل، سقط الجنين من بطن امرأتي أيضاً!

ـ لا!

ـ لفظته بين يديّ كما تلفظ المعزة جدياً!

ـ ها ـ ها..

ـ تلوّت وجعاً كما تتلوّى الحيّة، وأطلقت صوتاً ذكرّني بثغاء الماعز، ثم شهقت شهقة أفلت معها الجنين..

ـ عجباً!

ـ لم أكن لأتوجّع لو رزقت بالذريّة كبقية الخلق.

ـ لا أفهم..

رفع إليه بصراً غائباً:

ـ إنها المرأة الثالثة التي تدخل بيتي. وهي المرأة الوحيدة التي استطاعت أن تثمر فيها بذاري..

ـ يؤسفني أن أسمع هذا.

ـ ولكن الخفاء قرّر أن يقتصّ منّي لأني نسيت النذر!

ـ النذر؟

ـ أجل، أجل، النذر. نذرت للربّة «تانيت» وليمة لو وجدت من بين النساء امرأة تنبت بذوري، وعندما بدأت تتقيّأ، وتتوحّم بالتهام الطين، واعترفت لي بالحمل، تذكرت النذر، ولكنّ نسيته في الصباح لانشغالي بقافلة لي عادت بالبضائع من بلاد الأدغال. ثم نسيته نهائياً ولم أتذكّره إلاّ البارحة بعد وقوع البلاء!

ـ النسيان قَدَر النذور. نحن لا نتذكّر نذورنا إلاّ بعد وقوع البلوى دائماً.

شيّع إليه بصراً مريباً قائلاً:

ـ ولكن العقلاء يقولون أنّك أنت السّبب!

ـ أنـا؟!

أشاح ببصره بعيداً ليقول:

ـ ليسوا على يقين، ولكن هناك دائماً فأل السوء.

ـ ها ـ ها.. وهل قرأوا في لوح الغيب أنّي حامل السوء؟

ـ العرّاف لم يؤكّد، ولكنه لم ينفِ أيضاً.

ـ من حقّهم أن يظنّوا بي الظنون لأني الغريب الوحيد الذي نزل الواحة في الآونة الأخيرة، كما يحقّ لهم أن يسيئوا بي الظنّ أيضاً لأني رفضت الانتساب إلى ملّتهم يوم رفضت أن آكل من أيديهم.

ـ أشكّ أن يكون الرفض وحده سبباً.

ـ بلى، بلى. رفض الدعوة إشارة. رفض الوليمة دائماً علامة خروج على الناموس الذي سنّه الكُلّ كي يمتثل له الكُلّ. ولكن.. ولكن ماذا تظنّ أنت؟

سكت زمناً قبل أن يجيب:

ـ ماذا يظنّ صاحب المصاب؟ من حقّ صاحب المصاب أن يسيء الظنّ، لأن الملدوغ بناب الأفعى وحده يرى في الحبل حيّة!

٤ ـ العُقار

تأبّط الصرّة وخرج.

استيقظ قبيل السَّحَر. لجلج بتعاويذه المجهولة مبكّراً، ثم تسلّل إلى زاوية الدهليز. دسّ رأسه في أمتعته. استخرج الجراب المهيب المنمنم بتمائم الأوّلين. تناول من الجراب حفنتين من مسحوق الأعشاب المريب. دسّهما في صرّة جلدية أصغر حجماً. دسّ الصرّة في كمّه الفضفاض المطرّز بالوسم المبهم أيضاً. ترنحّت الصرّة في خواء الثوب المهلهل فثبّتها تحت الإبط وخرج.

عَبَر العراء الممتدّ بين الحقول والجبل بخطوات وئيدة، ولكنها مكابرة. بلغ الجداول المرويّة بسلسبيل العين فغزته رائحة الأرض والعشب وأهوية الرطوبة. سحب نَفَساً عميقاً، فاهتز في المجهول وتر، وفرّت من العين دمعة. اجتاز جداول النّبوت بخطوات واسعة أشبه بوثبات المجاذيب، وتغلغل في أحراش النخيل حتّى وقف فوق العين.

كان الماء هادئاً، والسكون حول الماء شاملاً: الجنادب أجهدها غناء الليل فكفّت، والحمام لم يستيقظ بعد، وأصحاب الأرض استمرأوا الالتحام بنسائهم فتأخّروا في الوصول إلى الحقول، ولم يبق إلاّ شعاف الكثبان الرملية شاهداً على الدنيا ورسولاً للصحراء الواسعة التي تعد بابتلاع هذه البقعة التافهة يوماً لتصير جزءاً خالداً من الخلوة الكبرى. نزع نعليه وتمشّى في الأرض المؤدية إلى السيوف الرملية المجاورة للعين حافياً. خلع ثيابه وركع عند حافة الغمر. مدّ يده وأغرقها في اليمّ. كان دافئاً كجسد الحسناء، لميساً

كجسد الحسناء، لذيذاً كجسد الحسناء، فما كان منه إلاّ أن أغمض عينيه، وأطلق أنين انتشاء. تساءل: تُرى ما جدوى وجود الحسناء بجوار وجود الماء؟.

لم ينشغل بالبحث عن جواب، لأنه فزّ ودخل الماء. مشى خطوات بجوار الشطّ، يعبث بالماء بيديه حيناً، ويغمر جسده بنثرات حيناً آخر. تسكّع وتلهّى كالطفل قبل أن يخاطب نفسه بصوت مسموع: «حقّاً لا يعرف حقيقة الماء إلاّ من أحبّ الصحراء!». توغّل في العمق قبل أن يرمي بنفسه في اليمّ. ارتجّت العين كلّها حتّى فاضت على الشاطىء وغمرت ألسنة الرمل المجاورة.

مكث في أحضان المعشوق طويلاً، ولكنه، عندما خرج، لم يتردّد في انتزاع الصّرة الجلدية من كُمّ الجراب. فكّ رباطها بهدوء أهل اليقين. تأمّل نثار العشب الخفيّ الذي تتخلّله زهيرات نبت صفراء اللون، ثم تقدّم من الغمر الجليل ليطرح في يمّه نثار العُقار الخبيث. عاد من ذات السبيل بُعَيْد الشروق، ولكنه لم يكد يتحرّر من دغيل الأحراش الكثيفة ويعبر جداول الزروع المروّية حتّى فزّ له الأبله من وراء شجرة رمّان.

القسم السادس (المساءلة)

١ ـ اللهو

في زحام السّوق تكأكأ عليه العقلاء. أقبل عليه كبير التجّار «آمجار» أوّلاً. إلى جواره مشى البطل المزعوم «إمّار»: ينتصب بقامته المارِدة في الهواء، يعقد يديه الشبيهتين بخفّي بعير وراء ظهره، يشيّع منكبيه العملاقين عالياً فيتضاءل رأسه بينهما حتّى أنه يبدو في البُعْد كرة حنظل تستقرّ بين صخرتين. لجلج صاحب التجارة بالتحيّة، ولكنه لم يتبيّنّ القول، لأن هرج الخَلْق، ولغو الألسن، وصياح الباعة، سطا على القول وابتلع كل شيء، فتعجّب لأن البلاء استطاع أن يزلزل الدنيا ويقلب حياة الواحة رأساً على عقب، ولكنه لم يمسّ هذا الجنّ المسمّى تجارة بسوء. ولكي يغلب صوت التجارة الذي يعلو في ألسنة الناس صاح بأعلى صوت:

ـ طالت يد البلاء كل شيء في الواحة، ولكن حتّى البلاء أعجزه أن ينال من السوق، فأيّ جنّ تخفيه التجارة يا ترى؟

قطع صاحب التجارة خطوات ودفع في سعيه الرجال بالمنكبين، قبل أن يجيب:

ـ سرّ التجارة من سرّ الحياة، حتى أن الإنسان لم يحدث أن اجتمع في صحرائنا هذه إلى إنسان دون أن تكون الصفقة في الاجتماع لهما طرفاً ثالثاً.

ـ حقّاً؟

ـ لا نجتمع يا مولانا إلاّ لإنجاز الصفقة!

ـ أعرف أنّنا عندما نجتمع لنتقاتل إنما ننجز صفقة خسارة، كما أعرف أنّنا عندما نجتمع لنحبّ إنما ننجز صفقة بشارة، ولكنّني لا أعرف ماذا نفعل عندما نجتمع لكي لا نفعل شيئاً. أعني عندما نجتمع لنلهو!.

أجاب «آمجار» بلا تردّد:

ـ اللهو أيضاً صفقة!

ثم دحرج بنعله حجراً قبل أن يضيف مطاطئاً:

ـ بل اللّهو، يا مولانا الضيف، أكبر صفقة!

توقّف الضيف عن سعيه. واجه رفيق السبيل فجأة. واجهه بهيئة مَنْ يريد أن ينقضّ، أو يفرّ، أو يصرخ، أو يأتي هذه الأفعال كلّها في مرّة حتّى أن البطل تقهقر إلى الوراء خطوات من فرط الدهشة، ثم مدّ كفّه الفظيعة التي تشبه خفّ البعير ليتحسّس مقبض سيفه. أمّا الداهية فقد مضى يعترض سبيل كبير التجّار، منتصباً بكبرياء، محدّقاً بعينيه، دون أن ينبس. ولم يكن الموقف ليستثير الشكوك لو لم يمتنع الرجل عن الكلام. ويبدو أن الرجال الثلاثة قد تيقنوا في تلك اللحظة أن أيّ فعل أو أيّ إيماء يصدر

من هذا اللّغز المسمّى إنساناً يبقى غامضاً، بل ومحفوفاً بالأخطار، إذا لم يستعن عليه الإنسان باللسان. بلى، بلى. الإنسان لسان، فإن عجز في الإنسان اللسان، صار الإنسان ظلاًّ، شبحاً، بعبعاً.

أخيراً تكلّم اللسان. أخيراً تكلّم في الداهية الإنسان:

ـ هل يحسن عاشق التجارة أن يلهو؟

استفهم «آمجار» إيماءً، فأعاد الداهية السؤال مرّتين دون أن يتزحزح عن وقفته الاستفزازية المريبة. أجاب صاحب التجارة أخيراً:

ـ ومَنْ منّا لا يحسن أن يلهو؟

لحظتها فقط لاحظ الرجلان أن صاحبهما يرتجف برغم أنه ظلّ يبذل جهداً بطولياً كي يخنق في صدره البلبلة المجهولة التي لم يدركوا لها سبباً. برطم بعبارة استفهام مبهمة، فتكلّم كبير التجّار. تكلّم هذه المرّة كأنّه يغنّي. تكلّم بالصوت الملحون لأنه تحدّث عن محبوبته التجارة.

أعاد سيرة حلم الطفولة التي أسمعه نتفاً منها يوماً، وعرّج على الصفقة ليغدق عليها المديح بحماس لم يسمع له مثيلاً إلاّ في أشعار الملاحم القديمة. تحدّث طويلاً. تغنّى طويلاً قبل أن ينتهي إلى القول بأن التجارة هي الحياة، ومَنْ لا يحسن أن يلهو، لا يحسن أن يحيا.

توقّف عن الغناء ليسحب نفساً. ولكنه لم يلبث أن أعاد الشطر الأخير من الملحمة:

ـ مَنْ لا يحسن التجارة لا يحسن الصفقة، مَنْ لا يحسن الصفقة لا يحسن اللّهو، من لا يحسن اللّهو في هذه الصحراء لا يحسن الحياة! فالويل، ثم الويل، لمن لم يحسن اللّهو!.

٢ ـ المكيدة

ولكن الداهية لم يستسلم. الداهية قرّر أن يجادله في الفرق بين حياة الدنيا وبين حياة الحياة بسؤال صغير:

ـ ألم يكن جديراً بصاحب التجارة أن يقول أن التجارة هي الدنيا بدل أن ينتهي إلى القول بأن التجارة هي الحياة؟

صاحب التجارة أيضاً لم يستسلم:

ـ هذا جدل سوف يطول. ولكني أريد أن أضع له حدّاً قبل أن يستفحل لينقلب سبباً لخصومة كما هو الحال مع كل جدل. أريد أن أضع له حدّاً بعبارة واحدة بعد إذن مولاي: التجارة لصاحب التجارة وصيّة. وكلّ وصيّة لحامل الوصيّة حياة. فهل بلّغتُ؟

ـ صدقتَ. في سؤالي بذرة جدل سوف يطول. ولكن لماذا لا تحدّثني عن آخر أنباء البلاء؟

ـ كما في كل مرّة: البليّة تعقبها البلبلة!

ـ البلبلة؟

ـ والبلبلة كما تعلم ساحرة عمياء لا تعرف الفرق بين القريب والغريب.

ـ الحقّ أنّي لا أفهم.

ـ أردت أن أقول أن البلبلة قد أدركت مولانا أيضاً.

حدجه مستفهماً، فتنازل «آمجار» عن لسان التورية ليوضح:

ـ مولانا أيضاً لم ينجُ من إصبع الاتّهام.

ـ ها ـ ها..

ـ في أقدام بعض الغرباء سيول، وفي أقدام بعض الغرباء جدب. في أقدام بعض الغرباء سرور، وفي أقدام البعض الآخر سوء. في خطوة الغريب دائماً سرّ!

ـ هذا ما يقال من قديم الأزمان.

ـ ألسنة القوم تقول: إن البليّة التي نزعت من بطون نسائنا الأجنّة في قدميك!

ـ حقّاً؟!

اعترض سبيلهما الحكيم «إيلي» الذي سار برفقة العرّاف «يزّال».

تكلّم العرّاف كأنه يواصل حديثاً بينهما لم ينقطع:

ـ ما أغناك عن الاستكبار! لو قبلت اللقمة من أيدي الناس لما أشار لك الناس بأصبع الاتّهام.

فأجابه في الحال كأنه يؤكّد على الحديث الذي لم ينقطع بينهما:

ـ لا أحسب أن الناس ستكفّ عن الإشارة بأصابع الاتّهام حتّى قبلنا اللقمة من أيدي الناس.

ـ اللقمة بلسم. اللقمة تميمة تبيد الوسواس وتجير الناس من شرّ الناس، صدقني!

ـ البحث عن قربان مّا جبلّة الناس.

ـ ولكن لا يجب أن ننكر على الناس يقينهم القائل بأن من يرفض أن يأكل من أيدي الناس، إنسان يخشى جانب الناس. وإنسان يخشى جانب الناس لا بدّ أن يخشى جانبه الناس.

ـ ولماذا على الناس أن يخشوا جانب إنسان لا يريد أن يأكل من أيدي الناس؟

ـ ليقينهم بأنه داهية، ليقينهم بأنه يخفي في الكُمّ مكيدة!

ـ مكيدة؟

ـ بلى. الامتناع في عرف الناس مكيدة. العزلة في عرف الناس دائماً مكيدة!

زفر الداهية أنفاساً سخيّة استعداداً لخوض جدل ضارٍ، ولكن ظهور كبير القوم برفقة الأبله أربك المسير وبلبل الجمع، فابتلع الحجّة وآثر الصمت.

٣ ـ المرافعة

ولكن كبير القوم لم يرحمه أيضاً. وقف في مواجهته متكئاً على عكّازه الموسوم بالسيماء الخفية ليقول باللسان الصريح:

ـ ألم يعلم سليل الأغراب أن لاخافية في دنيانا تُخفى؟

اشتمّ في القول الخطر، فقرّر أن يحتكم إلى الاستنفار أيضاً:

ـ أفصح!

ـ شوهدت وأنت تطرح في عين الماء مسحوقاً مشبوهاً، فهل تنكر؟

ـ ها ـ ها.. حتّى تهمة الحقّ تحتاج في الإثبات إلى شهود، فكيف بتهمة الباطل؟

تهدّل لثام «إور» فكشف عن آثار وباء الجدري في الوجنتين. رفع طرف اللثام وعلّقه على أنفه ليقول بابتسار:

ـ ثَمّ شهود..

أومأ للأبله فتقدّم «إدهي» إلى الإمام خطوة، ثمّ خطوتين. وجد نفسه في طوق الأكابر فارتجّ وطأطأ أرضاً قبل أن يقول:

ـ رأيتك تسبح في العين فجراً. رأيتك تطرح في العين عشباً، أو شيء كالعشب، قبل أن تنصرف..

سَرَتْ في الجمع همهمة. تبادل الرجال كلمات، وتبادل آخرون نظرات. حول الطوق التفّ طوق آخر من الباعة والفضوليين ودهماء القوم. استشعر الداهية خطراً في وجوده في جمع الغوغاء أكثر من إحساسه بالخطر بسبب التهمة. أحسّ ككلّ غريب بأنه وحيد، وحيد، وحيد لا في السوق وحسب، ولا في الواحة وحدها، ولكنه وحيد في الصحراء كلّها. والإحساس القاتل

بأنه مهجور إلى الأبد، مهجور من المهد إلى اللّحد، هو الذي مدّه بالحماس كي يتولّى الدفاع. إذْ من يستطيع أن يتولّى الدفاع عن الإنسان المهجور إن لم يتولَّ بنفسه الدفاع عن نفسه؟.

قرّر أن يلجأ إلى الدهاء ويستدرج صاحب الاتهام بسلطان اللسان:

ـ مولانا ألقى في سبيلي بمخلوق، والمخلوق رمى في وجهي بتهمة، فهل يستطيع مولانا أن يخبرني بملّة صاحبي الذي يتهمني؟

لوّح «إور» بعكازه في الهواء مرّتين مشيراً إلى الأبله، ثم أجاب بلا تردّد:

ـ صاحب التهمة هو الأبله. عجباً! ألم يُسْمعك التّهمة بعضلة لسانه منذ قليل؟

أجاب الداهية بخبث الدهاة:

ـ لقد أسمعني التهمة بعضلة لسانه حقّاً، ولكني لم أسمع أنه أبله إلاّ منك!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ولكن الداهية تجاهل السؤال ومضى في الاستجواب شوطاً أبعد:

ـ أريد أن أتساءل عما إذا كان الأبله للرجل اسماً أم مجرّد لقب ككل الألقاب.

ـ الأبله لقب. كلّنا يعرف أن اسم الأبله «إدهي» وما البلاهة للشقيّ إلاّ نعت!

ـ إذا كان مولانا قد اعترف أمام هذا الجمع بأن الأبله أبله بالفعل لا بالاسم، فبأي ناموس يسوق العقلاء شهادة الأبله برهاناً؟ تبلبل القوم بهرج شديد. تناطحت رؤوس، وتعالت في صفوف الدهماء ضحكات. تلهّى «إور» بلثامه مرّة أخرى ليداري حرجاً جليّاً. تساءل بصوت من فقد ثقته بنفسه:

ـ ماذا؟

ـ لقد قلت أن من شاهدني وأنا ألقي بالمسحوق المشبوه كما تسمّيه هو الأبله، واعترفتَ أيضاً منذ قليل بأن الأبله أبله بالفعل لا بالاسم، فكيف يُعقل أن تكون شهادة البلهاء دليلاً؟

ـ ولكنه أبله ليس ككلّ البلهاء. الجميع يعلم أن «إدهي» أبله ليس ككلّ البلهاء!

ـ ها ـ ها.. الأبله هو الأبله. الأبله هو الأبله في كل الأعراف، وفي كل الأزمان، وفي كل القبائل، وفي كل الألسن.

ـ أُصدّقُ شهادة هذا الأبله أكثر مما أصدّق شهادة أكبر عاقل في هذه الواحة، فما ظنّك؟

ـ ها ـ ها.. هذا شأن مولانا لا شأن الناموس. يستطيع مولانا أن يصدّق من يشاء. يستطيع مولانا أن يصدق أبله البلهاء أكثر مما يصدّق أعقل العقلاء، ولكن الناموس لا يعترف إلاّ بالعقل على الدنيا سلطاناً. الناموس يقول: إن الموت ليس شرّاً، ولكن الشرّ هو فقدان العقل!.

ـ مهلاً، مهلاً. الناموس قال: إن الموت ليس شرّاً حقّاً،

ولكن الناموس لم يقل إن فقدان العقل هو الشرّ، بل قال: إن الجنون هو الشرّ.

- ها - ها.. وهل يرى مولانا فرقاً بين الجنون وفقدان العقل؟

- الحق أني أرى فرقاً. كل صاحب عقل يستطيع أن يرى فرقاً بين الجنون وبين فقدان العقل.

- هل يستطيع مولانا أن يسمعنا الفرق؟

- كثيراً ما نفقد العقل. كثيراً ما يفقد أعقل العقلاء العقل. ولكنّا بالجنون نفقد العقل مرة واحدة وإلى الأبد.

- وهل البلاهة عقل أم فقدان عقل؟

- البلاهة تحرّر من عقال العقل لا يدوم طويلاً!

- عجباً!

- بلى، بلى. البلاهة حدّ بين الجنون والعقل. بين التحرّر والعقال. بين القيد والنبوّة.

- هل قال مولاي النبوّة؟

- أجل. النبوّة. البلاهة أحياناً نبوّة!

- ألن تُعِدُّ هذا تجديفاً في حقّ ناموس الأوّلين الضائع؟

- كلاّ، كلاّ. البلاهة أحياناً نبوّة!

جعجع الجمع بهرج. استمرّ الصخب طويلاً. قال الداهية بلهجة قاطعة:

ـ ما يبيح لنا القول بأن البلاهة نبوّة يبيح لنا أن نقول أيضاً: إن النبوّة بلاهة!

ـ النبوّة ليست بلاهة وحسب، ولكن النبوّة جنون أيضاً!

ضرب الداهية كفّاً بكفّ، في حين ارتجّ السوق بالهرج. لم يكتفِ القوم بهرج مكتوم كما في كل مرّة، ولكنهم استنكروا بأصوات الاحتجاج.

القسم السابع (السرّ)

١ ـ الترحال

تحرّك في صدرها الجنّ يوماً، فقالت:

ـ أهلكتني! أهلكني الجري في الصحاري وراءك!

لم يستنكر المعنى في العبارة يومها بقدر ما أنكر اللّهجة التي قيلت بها العبارة. فقد أسمعته عبارات أخرى أكثر مرارة في المعنى مراراً، ولكنها لم تجسر يوماً على بعثها في لهجة كاللهجة التي قالت بها هذه العبارة. لأن اللهجة هي برهاننا الوحيد على حقيقة القول، لأن النغم في الكلم هو دليلنا الوحيد على قول المحبّة، أو.. قول الكراهة!.

وهي، هذه المرّة، فضحت بالنغم قول الكراهة.

سرح يومها في الخلاء الأبدي الذي لم يَعِذه يوماً إلاّ بالخلاص، ثم قال بسكينة أهل الخلوة:

ـ وماذا تريديننا أن نفعل؟

فأجابت في الحال كأنها كانت تتوقّع السؤال:

ـ نفعل ما يفعل كلّ الناس.

ـ وماذا يفعل كل الناس؟

ـ كل الناس يحطّون الرحال وينزلون الأرض!

ـ ولكنّا إذا حططنا الرحال فسوف نهلك!

ـ لا تقل أنّنا نرحل لنطارد الكلأ في الفلوات. لا تقل أننا نهاجر لنبقى على قيد الحياة. لأنّك تعلم أن كل الناس يطاردون الكلأ في المراتع، ولكنهم يركنون إلى الأرض حيناً ليعلموا أنهم أحياء أيضاً، فلا تقل لي أن الأحياء وحدهم المهاجرون، وما أهل الدعة إلاّ أشباحَ موتى كما اعتدت أن تقول دائماً.

ـ نعم. لن أستحي من أن أكرّر بأن أهل الركون أموات حتى لو عاشوا، والمهاجرون أحياء حتى لو هلكوا!

ـ نحن نهاجر لاّ لنطارد الكلأ في البراري. نحن نهاجر لنطارد أنفسنا. نحن نهاجر لنفرّ من أنفسنا. فهل تنكر؟

ـ لا حاجة لي كي أنكر. بل يروق لي أن أردّد معك بأننا نهاجر لنطارد أنفسنا. بل ونهاجر لنفرّ من أنفسنا. من أي لسان سمعتِ هذه الوصيّة يا ترى؟ ها ـ ها..

ـ لم أسمعها لا من الأمّ ولا من الأب. لم أسمع الوصيّة إلاّ من سيرة الترحال. لأن سماع الوصايا هي فضيلة الترحال الوحيدة.

ـ يسعدني أن أسمعك تعترفين للترحال بفضيلة.

ـ لا أستحي من الاعتراف بأن الترحال يعلّم الوصايا، ولكنه يبيعنا وصاياه بأفدح الأثمان، لأنه يأخذ مقابلها الحياة!

ـ وصيّة مزوّرة تلك الوصيّة التي لا ندفع الحياة ثمناً لها.

ـ نستطيع أن ندفع الحياة ثمناً للوصايا لو كنّا نحيا مرّتين.

ـ هراء! يجب أن ندفع الحياة ثمناً للوصيّة حتى لو عشنا مرّة، حتى لو عشنا نصف مرّة، حتّى لو لم نعش بالمرّة، لأن حياتنا الحقيقية في الوصيّة لا في الدنيا التي تريدنا أن نلقي عصا الترحال لنركن إليها!.

ـ تستطيع الوصية أن تروي عابر الدنيا، كما تستطيع أن تنقذ صاحب الخلوة، ولكن الوصية لا تحيي قلب المرأة.

ـ قلب لا يرتوي من نبع الوصيّة: قلب هو أم صُلْب؟

ـ المرأة دائماً طينة أخرى!

ـ ها ـ ها.. اعترف بأن هذا ما أردت أن أسمعه. فهل تعترفين بأن المرأة مخلوق ملفّق من سلالة أخرى؟

ـ هذا لا يحتاج إلى اعتراف!

ـ أتوافقين بأننا مخلوقين من ملّتين مختلفتين؟

ـ كيف لا أوافقك إذا كنت ترى أن معبود الرجل الفرار من الأرض، ومعبد المرأة توسّد الأرض؟

ـ هل يعني هذا أني خالفت ناموس الخلق يوم تنقلّت بكِ في رحاب الصحراء الشاسعة؟

ـ كيف لم تخالف ناموس الخليقة إذا كنت قد حاولت طوال

السنين التالفة أن تشيّع الأرض وتصنع لها عرشاً في رحاب السماء؟

ـ هل تريدين أن تقولي أنك في الرحلة أرض؟

ـ لست أنا من قال: إن المرأة دائماً أرض، والرجل في الرحلة ريح!

ـ ها ـ ها..

ـ أنت تكابر ولا تريد أن تعترف بأنك ظلمتني.

ـ ظلمتكِ!

ـ ألاَ نظلم الإنسان عندما نطلب من الإنسان أن يأتي أمراً لم يُخلق له؟

كفكفت دموعاً سخيّة قبل أن تضيف بفجيعة:

ـ لقد أجرمتَ في حقّي، لأنّك تعلم أني في يدك رهينة: لا أب يحميني، ولا أخ ينجدني، ولا أم تعزّيني!

٢ ـ الذريّة

ولكنه لم يتوقّف عن الترحال. لأنه برغم أنه لم ينكر حجّتها في ظلمه لها، إلاّ أنه لم يستطع أن يبدّل ما بنفسه ليقينه بأن الإنسان لا بدّ أن ينزل بالأغيار ظلماً إذا أراد أن يحمل العبء، إذا أراد أن يؤدّي الأمانة، إذا أراد أن يبلّغ البلاغ يوماً.

لم يتوقّف عن الترحال حتى يوم احتالت على الأمر وأنجبت له من جوفها وتداً. كان يعلم أنها لم تفعل ذلك إرواءً لظمأ المرأة إلى الولد، ولا لإشباع الشهوة إلى زرع الذريّة البشرية في رحاب برّيّة لا تبالي بالبذار ولا بالذريّة، ولكنها فعلت ما فعلت لإحكام

الطوق حول عنقه هو، لإحكام الغلّ حول الرقبة، لشدّه إلى الوراء، إلى المكان، إلى الأسفل، إلى الحضيض. بلى، بلى. الحضيض هو ما أرادته الجنيّة له بإنجابها للولد. وعلمه بالسرّ هو الذي زلزله وبعث في نفسه الهول. أحسّ بالغُلّ يلتفّ حول عنقه كأفعوان الأدغال، فشرع يختنق، والأرض تنشقّ وتكشف عن هاوية ظلماء تريد أن تبتلعه ليختفي في جوفها إلى الأبد. لم تَتَبدَّ له هذه الأقدار في رؤى اليقظة وحسب، ولكنها صارت كوابيساً ليليّة، ومصيراً يومياً، فكان يهبّ من هجعته واقفاً في كل مرّة، ويجري في الخلاء كالممسوس.

تمادت الرؤى، واشتدّت الكوابيس، فقرّر أن يضع للكابوس حدّاً، ففرّ. فرّ من جديد. رحل من حدود الحمادة الغربية إلى ما وراء الصحراء الكبرى الوسطى. سافر إلى «مساك صطفت» تحدياً لشبح الاستقرار، فرأى في السبيل الإيماء الشقيّ في عينيها مرّة أخرى. رأى الكراهة التي سمعها في صوتها يوم فاتحته بشقوتها وتعبها من الأسفار لأوّل مرّة. ولكنه لم يبالِ. مضى في السبيل مسلّماً زمام الأمر للآفاق دون أن يتأصّل الإيماء ليقف على حقيقة ما يخفيه الإيماء. لأن عين المرأة إذا برقت بإيماء، فإنها لا بدّ أن تبيّت أمراً بالإيماء. لأن عين المرأة إذا سطعت بكراهة، فلا بدّ أن تدبّر مكيدة لتبرّر الإحساس بالكراهة، عكس الرجل الذي يستطيع أن يستشعر الكراهة، ولكنه لا يهدهد الكراهة ليجد لها متنفّساً في المكيدة.

قطع بها الصحارى الجنوبية محمولة على ظهر البعير، تحتضن الوليد الذي أرادته له وتداً فصار له مهمازاً، بل مِسْعَراً متوّجاً

بالجمر. وكلّما توالدت الآفاق، وترامت الصحراء لتلد الصحراء، ازدادت وجوماً واكتئاباً وسواداً. بلى. احتقنت وجنتاها احتقاناً مريباً، واسودّت ملامح وجهها اسوداداً لم تكن رياح القِبْلي لتكون له سبباً. ظلّت تتحصّن بوجومها حتّى في الأمسيات التي يحطّون فيها الرحال ليبيتوا الليالي استعداداً للانطلاق في الأيام التالية. سألته يوماً سؤالاً لم يدرك حقيقته إلاّ بعد ارتكابها لفعلتها البشعة: «هل تستطيع الذريّة أن تجد لها مكاناً في قلب صاحب الرحيل يا ترى؟». يذكر أنه أجابها يومها: «لا يحبّ الذريّة كما يحبّها صاحب الترحال. صاحب الرحيل لا يختار الذريّة في دنياه حقّاً، ولكنه يحبّ ذريّته عندما تأتي إلى الدنيا كما لا يحبّها أولئك البلهاء الذين يتباهون بحبّ الدنيا». ابتسمت بسمة ماكرة في تلك الليلة، ولكنه لم يعر مكرها اهتماماً لأنه سرح مع غموض صحراء الليل وهي تتغسّل بفيض القمر، ورحل في ركاب السكون بعيداً ليستعير من مجاهل الخفاء الوصايا. ولم يدرِ أن الكراهة إذا استبدّت، فلا بدّ أن تنتزع لنفسها القربان عاجلاً لا آجلاً.

في الصباح وضعت أمامه الوليد ملفوفاً بالقماط، جاحظ العينين، أزرق الوجنتين، على رقبته الهشّة ما زالت ترتسم آثار أصابعها. قالت بصوت غريب: «ظننت أن الذريّة التي لم يخترها صاحب الترحال، لن يظنّ عليها بدفنها في التراب!».

٣ ـ الربّة

هجرها.

تركها في العراء وانطلق يهيم في البريّة. وكان كلّما تذكّر

فعلتها هوى على الأرض وتقيّأ حتى كاد يتقيّأ أمعاءً خلت من الطعام أيّاماً. اقتات الكلأ، في نجعته، وشرب من كدر الغدران مصمّماً ألاّ يعود إليها أبداً. ولكن وسوسة مريبة دبّت في صدره تحثّه على العودة. وسوسة غريبة لم يعرف لها اسماً، وكان عليه أن يتخشّع في برّيّته أيّاماً أُخر حتى يستعير لها ذلك النعت الأغرب: الشفقة، الرحمة، الدَّيْن الذي يطوّق قلب كل صاحب قلب، فعاد.

عاد ليجدها تبرك في مدخل الخباء كروح شرّيرة. حدجته بجفاء ساحرة وعين بومة، ولكنها لم تنبس. أحسّ أنه أخطأ بعودته، ولكنه أدرك أيضاً أن نداء الدَّيْن لا يقود إلاّ إلى الوجع برغم أنه يريح القلب. استشعر وجودها إلى جواره وهقاً مميتاً في رقبته فقرّر أن يتحرّر. أقبل عليها يوماً وفاتحها قائلاً:

- هل تذكرين لكِ أهلاً آخذكِ إليهم؟

فأجابت بالجفاء:

- لا أهل لي.. أنت تعلم.

- ولا صلة بعيدة بذوي قربى؟

هزّت رأسها نفياً، فاستشعر ضيقاً في رباط الوهق، ولكنه لم ييأس:

- أشيري عليّ بما يجب عليّ أن أفعله بك.

- لا تفعل إلاّ ما يجب أن يفعله الرجل إذا استولى على امرأة: أن يستقرّ بها في أرض!

ـ لا مستقرّ لصاحب رحيل.. أنت تعلمين.

ـ ولكنني لست صاحبة رحيل. أنا امرأة، أنا أنثى، أنا أمّ، ولن أحيا إن لم أسكن. أريد أن أسكن. أن أسكن. هل هذا حقّ أم باطل؟

حدّق في وجهها بفضول:

ـ تدّعين الأمومة وقد كتمت بالأمس أنفاس وليد أخرجتيه من بطنك؟

ـ كتمت أنفاسه لأني أعرف أني سأستعيده.

ـ تستعيديه؟

ـ نعم. سأستعيده ما دامت الأرض هي التي احتوت رفاته.

ـ أراكِ تتكلّمين بيقين الكاهنات.

ـ أنا المرأة، أنا الأنثى، أنا الأمّ، أنا الأرض، أنا الربّة «تانيت» التي ولدت نفسها من نفسها وخلقت الصحراء كلها من لحمها.

ـ عجباً!

ـ مصيبتك أنك لم تعرفني يوماً.

ـ لم أعرفك حقّاً.

ـ أنا قَدَرك!

ـ قَدَري؟

ـ المرأة قَدَر الرجل. هل نسيت وصايا الناموس التي تدّعي صونها بالهرولة في دروب الصحراء؟

ـ لم أسمع من لسان الناموس بوصيّة كهذه يوماً.

ـ من يستطيع أن يدّعي الإلمام بوصايا الناموس؟

رمت ببصرها إلى الخلاء المغمور بفلول الغسق فتبدّت كاهنة حقيقية تتلو نبوءة مجهولة:

ـ الناموس كالصحراء، بلا بداية، بلا نهاية!

٤ ـ الإختفاء

بعد ذلك ابتدعت سيرةً. صارت تردّد أغنية جديدة صباح مساء: «خطفتَني يوماً وهجرتني. لماذا خطفتني إذا كنت تريد أن تهجرني؟». ويوم سئم المَوّال ولوّح في وجهها الكئيب بحجّته قائلاً: «لم أخطفك، ولم أهجرك. كل ما هنالك أني لم أشأ أن أخون وصيّتي وأرجع عن الترحال». استولى عليها حزن مميت حتّى أنه نسى فعلتها فهدهدها في حجره وقد قرّر أن يضع حدّاً لآلامها ولآلامه معاً، أن يضع حدّاً للمهزلة التي تسمّيها القبائل قراناً. ذهب إلى المربد وحلب من الناقة حليباً طازجاً متوّجاً برغوة كثيفة. أخرج من جرابه مسحوق العشبة الخفيّة. ألقى بحفنة المسحوق في وعاء الحليب وأتى به إليها. اشتكت من الصداع ومن الغثيان ومن داء المفاصل أيضاً. تربّع بالجوار وراقبها وهي تحتسي شراب السرّ. تتجرّع قليلاً ثم تكف لتختلس إليه نظرات مبهمة. تعود لتنهل من الوعاء فتغزو الرغوة شفتيها الشاحبتين. انتهت فوضعت الوعاء

جانباً. قالت: «لا تحسبنّ الحمل سبب دائي. أنت تعرف سبب دائي!». أسند رأسها إلى عجيزته. همهم: «أعرف..». ولكن جوابه لم يشفِ غليلها، فقرّر أن يسألها:

ـ لماذا على المرأة أن تلد أطفالاً؟

أجابت بصوت ليس صوتها:

ـ لأن المرأة أمّ، لأن المرأة أرض، لأن المرأة ربّة. ألم أقل لك ذلك يوماً؟

ـ لماذا على الأم أن تهلك أطفالها إذا كانت لهم أمّاً؟

ـ لأن الأم تحبّ أطفالها.

ـ أتقتل الأمّ الأطفال حبّاً؟

ـ بلى. مَنْ يحبّ، لا بدّ أن يقتل من يحبّ.

ـ لماذا على الأم أن تلد إذا كان عليها أن تقتل؟

ـ لأن الشمس أيضاً تشرق، ولكنها لا تشرق إلاّ لتغرب. كل شيء يظهر لا ليبقى، ولكن لا يظهر ألاّ ليختفي.

ـ لماذا على الشيء أن يظهر إذا كان لا بدّ أن يختفي؟

ـ لا بدّ للشيء أن يختفي، لأنه إن لم يختفِ فإنه لن يستطيع أن يظهر من جديد.

تهدّج صوتها، وبدأت تغيب، ولكنها لم تتوجّع، ولم تتشكّ. تضعضع الصوت، وتعثّر اللسان. داعب خصلات شعرها، مسّد وجهها، ساءلها:

ـ أنختفي أفضل، أم أن نستظهر؟

ـ بالظهور نخسر، ولكننا نسترد ما نفقد في الخفاء.

ـ يسعدني أن أسمع هذا، لأنك سوف تستعيدين هناك كلّ ما فقدتيه هنا..

لم تردّ. جسّ نبضها فوجد أن الحبل المزموم قد وَهَن، ثم انقطع. انحنى فوقها ليرى التعبير في عينيها تحت الضوء المنبعث من موقد النار، فرأى في المقلتين تسليماً عميقاً. أسبل الجفنين، وتمتم كأنه يخاطب السكون الأبدي في الخلاء الأبدي:

ـ وداعاً يا شاعرة الأجيال! ودائماً يا كاهنة القبائل! وداعاً يا ربّةً أنجبت نفسها من نفسها، وخلقت الصحراء من لحمها!.

الـجـزء الـثـانـي

القسم الأول (الدواب)

١ - البعير

اتخذ الأتان بعد أن عانى الويل من خبث البعائر. بل أحقاد هذا الجنس من المخلوقات هي التي هَدَتْه إلى الأتان. فقد انهمك مرّة يمتح من بئر على جمل له ناله من أحد الأغيار مقابل دَيْن له عليه ليروي إبلاً له في «تاسيلي» دون أن يتخيّل يوماً أن ما يروى عن غدر هذه المِلّة من أساطير يمكن أن ينقلب حقيقة. فبعد أن انتصف النهار، واشتدّ القيظ، وأجهده الكرّ والفرّ حول فوهة البئر، كما أجهد المخلوق أيضاً كما بدا، فوجىء بالعدبّس يتمرّد: انحرف عن السبيل يميناً في البداية فظنّه ضلّ. وعندما حاول اللحاق به ليردّه إلى السبيل هرجل بخطوٍ أسرع فتمزّق الدلو على بكَرة البئر، فجرجر وراءه الحبل. انطلق خلفه، ولكنه لم يدركه إلاّ بعد أن نزل وادياً هزيلاً بالقرب. هناك توقّف بعد أن عرقلت زمامه شجرة طلح فوجده يزبد ويلفظ شقشقة في حجم قربة الماء محاولاً الإفلات من الفخ الذي دبّرته له شجيرة الطلح. شدّه من اللجام وحاول أن يهدّىء من روعه، ولكن هيهات. استيقظت في

المخلوق طائفة الجنّ التي عقدت مع أسلاف هذا الوحش حلفاً قديماً كما تقول أساطير القبائل، فرأى في مقلتيه الجاحظتين، الفظيعتين، شرّاً بيّناً. حرّر اللجام من جذر الشجرة، وربت على فخذته ليهدهده كما تهدهد الأمهات الأطفال لعلمه بعشق الجمال لأجناس المداعبات، ثم ترنّم بلحن شجن ليقينه بافتتان هذه المخلوقات لألحان الحنين، ولكن الجنون مارد لا يعترف بالحنان إذا استيقظ، والمسّ غول لا تستدرجه أغاني الحنين إذا انفلت. أطلق بصدره صوتاً منكراً، ولوى رقبته إلى الوراء في حركة خاطفة ليلتقم يده بأنيابه الوحشية الملوّثة بالزَّبَد واللّعاب، وكاد أن ينالها لو لم يسقط بجسده إلى الوراء في آخر غمضة، فاختطّت الأنياب جرحاً على ظهر اليد اليسرى.

بعدها نشب العراك. شدّ الرسن بقوّة، ولكن الوحش لوّح برقبته الخرافية إلى أعلى في تمرّد جنوني، فانقطع الحبل الملتفّ حول رأس الداهية، فتحرّر المارد نهائياً. تحرّر فهجم عليه وهو يهدر ابتهاجاً بالحرّية وتيقّناً بالغلبة. لم يجد ما يفعله للدفاع فتراجع بقفزة. ولكن العراء لم يجر هارباً من جمل هائج، فوثب جانباً واستجار بشجرة الطلح. طاف حول الشجرة فطارده باستبسال من قرّر أن يأخذ بثأر مجهول. ولكنه استمات في الطواف بالشجرة أيضاً فأعجزه. توقّف وهو يدمدم ويهدر ويتوعّد في الجانب الآخر من الشجيرة. مدّ رقبته التي تشبه جرم الأفعوان ليلتقمه فتراجع إلى الوراء. بلغ الغضب بالمارد المدى، فألقى بجسده فوق أعراف الطلحة غير عابىء بالأشواك. داس الفروة الشرسة ببدنه، وهرس الأشواك بأخفافه، وعَبَر إليه. ساعتها لم يجد سبيلاً للخلاص غير

العراء. انطلق راكضاً صوب السلسلة الجبلية المجاورة، وانطلق خلفه الوحش حثيثاً. دخل أرضاً مفروشة بحجارة شرسة، سلخت رجليه ونهشت في قدمه رباط نعله الأيمن. تحرّر من النعل فالتهمت الأحجار رجله. عَثَر عند رابية في المسافة التالية، فترنّح وسقط. أدركه المارد فتدحرج عبر سفح الرابية، ثم استعان بيديه لينتصب ويواصل الفرار.

في المسافة التالية نسي نفسه، فنسي الخطر الذي يتهدّده، لأنّه سرعان ما اعتاد الجري، بل واستمرأ الفرار، فأدرك أن الإنسان لا ينجو من الخطر إلاّ عندما يستمرىء الخطر ويعتاد المعمعان. استشعر الإعياء، ولكن السلسلة الجبلية ما زالت بعيدة برغم أنها تبدو قريبة جدّاً. جبال تاسيلي مثل جبال تادرارت: تبدو للعين على مرمى حجر، ولا يدركها المهاجر إلاّ بعد سفر يستغرق أيّاماً.

نال منه الإعياء والظمأ واستشعر بفم الغول فوق رأسه. أسقط على ذراعيه نثار زبد، فأدرك أن اللئيم قد أدركه. قرّر أن يحتكم إلى الدهاء فانحرف ناحية اليمين فجأة. قطع مسافة قصيرة ثم انعطف مرة أخرى يساراً. ولكن الداهية ظلّ يقتفي أثره وينحرف وراءه بخفّة الطير ومرونة الحيّة، فيئس. يئس لأن الإعياء ناله، والظمأ خذله فألقى به إلى رحاب الإحساس بالخطر من جديد. والتهلكة تكمن في الإحساس بالخطر في معمعمان الخطر.

في المسافة التالية جرّده من اللثام عندما فتح فكّيه ليلتهم رأسه، فجرى في العراء حاسر الرأس. نزل في مفرّه شعاباً، ولكن الشعاب أفضت إلى مرتفع صارم. بدأ يصعد المرتفع وهو

يلهث، يكاد قلبه يثب من صدره مع أنفاسه، ولو لم يستعن في الصعود بيديه لبطش به الوحش قبل أن يدرك شعفة المرتفع.

أدرك الشعفة فهوى. هوى فتدحرج عبر سفح أشدّ صرامة، ولم يستعد عقله إلاّ عندما بلغ الحضيض فوجد نفسه في وادٍ عميق تتناثر في قاعة الأشجار وترعى فيه الأنعام. أنعام؟ كلاّ. تلك كانت حميراً ولم تكن أنعاماً. أجفل شطر من القطيع، ولكن الجزء الآخر استنفر ولكنه لم يفرّ. بجواره، على بعد خطوات من موقع سقطته، وقفت أتان شهباء اللّون تتأمّله بعينين فضوليتين. قرأ في مقلتيها بسمة غامضة، وقرأ في البسمة الغامضة رسالة النجاة. وثب إليها، واعتلى ظهرها بقفزة أخرى. استنكرت في البداية، ففزّت في الهواء برجليها الخلفيتين في محاولة بطولية للتخلّص منه، ولكه تشبّث بظهرها، بل التأم بظهرها ليقينه بأنّه قشّة النجاة الوحيدة. في تلك اللحظة أدركهما الغول فما كان من الأتان إلاّ أن رفسته بخلفيتيها لتوقف هجمته أوّلاً، ثم انطلقت عبر الوادي بعدو مَنْ أصابه مسّ. عبرت الأشجار وأدركت شطر القطيع الذي فرّ، واجتازت القطيع في غمضة لتواصل فرارها الجنوني. بلغت حدود السلسلة الجبليّة في أمد لا يُصدّق. وأودعته غدير ماء وفير في قدم الجبل خلّفته سيول الموسم الماضي وحماه الأخدود الصخري من نار الشمس. تخلّف العراء، واختفى مع العراء الوحش، فقفز إلى الغدير لينهل الماء.

٢ ـ العابر

صعد السفح واستلقى في الغار طويلاً، وعندما عاد من

الغيبوبة تساءل عن سرّ البعير. كان يدري الكثير من حقد البعائر. ولكنه لم يذكر أنه أصابه يوماً بسوء منذ تلقّاه من أحد أكابر إحدى قبائل «آزجر» تسديداً لدَيْن له عليه ماطله فيه طويلاً. فماذا دهاه يا ترى؟.

في اليوم التالي نزل إلى الحضيض ونهل في الماء واقتات أعشاباً في قاع الوادي، قبل أن يهتدي إلى الأتان. وجدها ترتع في انحناءة الوادي جنوباً، فربت على رقبتها طويلاً، وغنّى لها موّالاً شجنيّاً قديماً، ثم مزّق ثوبه الملوّث بدماء الرحلة الجنونية، وصنع لها من خرق الثوب قيداً. وضع العقال في ساقيها، وانطلق يستكشف الأرض. وجد آثاراً لإبل، ورماداً لنيران الرعاة، ولكنه لم يدرك أحداً حتّى حلّ المساء، فركن. اعتلى السفح واعتصم بالغار. هجع فغفا في الحال. ولكنه لم يلبث أن استيقظ بفعل هرجة. بحث عن أصحاب الهرج في مدخل الغار، ولكنه لم يتبيّن أحداً. زحف خارج الكهف فوقف فوق رأسه رجل ملفوف في أثواب العتمة الزرقاء من اللثام حتى القدم. نهض فوجد نفسه مع الشبح وجهاً لوجه. سأل كما اعتاد أهل الصحراء أن يسألوا إذا شكّوا في سلالة عابر أو ملّة غريب:

- هل أخاطب إنساً أم جنّاً؟

أجاب الشبح في الحال:

- في كهوف تاسيلي كثيراً ما نقابل أناساً في أبدان الجنّ، كما نقابل الجنّ في أبدان الناس.

- ولكنا نستطيع دائماً أن نحتكم إلى التمائم. رطانات الأولين

تعرّي معدن المخلوق، وتمزّق قناع من تنكّر.

- في كهوف تاسيلي دفنتْ قبائل الجنّ أقوى التمائم، ولا تميمة هنا تفيد إلاّ تميمة إنسان لم يرَ فرقاً بين إنس وجنّ.

- الحقّ أني لم أرَ بينهما فرقاً في يومٍ من الأيام.

- هذه هي تميمتك الحقيقية.

- يستطيع مولاي أن يشاركني المجلس، ولكني لا أستطيع أن أستضيف مولاي لا بطعام ولا بشراب لأني في هذه الأرباع أيضاً ضيف.

- كلّنا في هذه الربوع ضيوف. والشقيّ من ظنّ غير هذا.

تواجها في مدخل الغار. تحدّث الضيف عن الغيث، وعرّج ليتحدّث عن الغزوات، ثم عن الأوبئة، وأخيراً عن المجاعات. وعندما جاء دوره وتحدّث عن أحوال القبائل في الصحاري الشمالية، وانتهى إلى نزوحه إلى الصحراء الوسطى فروى امتحانه الدموي مع البعير الذي ناله مقابل الدَّيْن، استوقفه الضيف بسؤال:

- هل قلت أنّك نلته مقابل ديْن؟

- بلى.

- السرّ في الدّين وليس في البعير.

- ماذا؟

- نخالف وصايا ناموسنا الضائع عندما نستدين، ونخالف الناموس مرّتين عندما ندفع للناس دَيْناً.

ـ هل هذا أحجية؟

ـ مهلاً، مهلاً. أخطأت يوم دفعت لصاحبك دَيْناً، لأنّنا بالدّيْن نربّي في الأغيار العداوة وندفعهم ليصيروا لنا أعداءً.

ـ ولكن لماذا؟

ـ سليقة الخلْق!

ـ هل تظنّ أن صاحب الدّيْن دسّ لي في جثمان البعير سرّاً؟

ـ ألم أقل لك أن الأسوأ من الجنّ هم الناس الذين يتنكّرون في ثياب الناس؟

ـ ولكن ماذا نفعل لأناسٍ أصابتهم ضائقة وصاروا في أمسّ الحاجة إلى ديْن؟

ـ نعطيهم ما نستطيع أن نعطي على سبيل الهبة لا على سبيل الدَّيْن.

ـ عجباً!

ـ هذا أهون من أن تهبهم على سبيل الدّيْن فتنال من أيديهم مكيدة، بدل الدَّيْن.

ـ لا أفهم كيف يستطيع إنسان أن يحمّل شرّاً في دابة لكي يؤذي به إنساناً.

ـ يستطيع بأيسر مما تتخيّل. يكفي أن ينزل بالدّابة ظلماً، ثم يبعث بها إلى الخصم أو العدوّ كي تنفث غلّها فيه بدلاً من صاحبها الذي أنزل بها السّوء.

ثمّ هبّ ليمضي، فنزل معه إلى الحضيض ليشيّعه.

٣ ـ الثأر

قرّر أن يحتكم إلى سلطان الدهاء فنزل الوادي ليستودع جلد البعير رسالةً.

سار مع التواءات الوادي جنوباً حتى بلغ الكهوف التي اعتاد أن يخفي فيها مستلزمات أسفاره: القِرَب، الدّلاء، السروج، الحبال، الرمّاح، السيوف، النّبال.

في الكهف القديم، المزبور برسوم الأوّلين، اكتشف اختفاء السرج، ولكن القربة ما زالت معلّقة في سقف الكهف حيث تركها منذ عام أو يزيد: تغضّنت، وانكمشت، وتيبّست جلدتها حتى صار من العسير الاعتراف بها كوعاء يصلح لتخزين الماء. ولكن القربة والسرج لم يعلّقا أمام الأعين إلاّ ليكونا حيلة مستعارة من مسلك السحرة الذين يطرحون قطعة الذهب في متناول الأيدي ليضلّلوا الأثر إلى الكنز الحقيقي.

وقف في قلب الكهف في خشوع من انتوى أن يتعبّد. يمّم صوب الفوهة وخطا إلى الأمام خطوة، خطوتين. توقّف. التفت يميناً. خطا مرّة أخرى خطوتين مغمض العينين، مرفوع الرأس. توقّف. استدار نحو عمق الكهف. خطا خطوة، خطوتين، ثلاث خطوات. توقّف. انحرف يميناً مرّة أخرى. واجه الجدار الشمالي الموسم بأحافير ملوّنة لمخلوقات هي خليط من حيوان وإنسان وجان. وقف في مواجهة محراب السلف بخشوع يليق بمكان تفوح

منه رائحة القدمة ويحمل رسالة آلاف السنين. لعثم بتميمة اللغة المنسيّة المستعارة من لسان ذات القبيلة المنسيّة التي تركت له ذات الوصايا الغامضة المحفورة في جدار الكهف. فرغ من التميمة المجهولة فانحرف يساراً، ثمّ خطا خطوتين قبل أن يركع أرضاً ويبدأ الحفر في أسفل الجدار. حزر الكنز من أهل الأسافل الذين وضعه في أيديهم أمانةً كل هذا الزمان، فامتلكوه ولم يكن ليستطيع أن يستعيده منهم بدون كلمة السرّ، بدون مراسم خشوع، بدون قراءة تمائم الملل الأولى. حفر طويلاً. استخرج تراباً، ثم حجارة، ثم كنزاً مجسّداً في سيف نحاس ورمح متوّج الساق بمثلّث شرس من حديد. السيف معدن ورأس الرمح معدن، والمعادن كنوز مثلها مثل معدن الذهب، يروق لأهل الخفاء أن يستولوا عليها كما يستولون على التّبر أو على صغار الإنس الذين وُلدوا توّاً ولم تحمهم أمهاتهم بأعشاب الشيح أو أنصال السكاكين أو حصون السلف المدسوسة في قطع الجلود. لوّح بالرمح في الهواء، ثم جرّد السيف من الغمد، وصرع عدوّاً خفيّاً بضربة واحدة، ثم نزل الجبل.

التحق بإبله في الوديان الشمالية، فوجد حيوانه المجنون يكتم بكلكله الفظيع أنفاس ناقة. أشعل بالقرب ناراً. في رماد النار دسّ رأس الرمح الحديدي. أتى من الأمتعة بحبل جديد من المسد. استغلّ انشغال الحيوان باعتلاء الناقة فأحكم القيد حول فكّيه وشدّ الحبل إلى الوراء ليحكم الرباط بفخذته الخلفية. تناول من النار الرمح فتبدّى الرأس ملتهباً كقطعة جمر. تقدّم من البعير المحموم فحشا مثلث النار في مؤخرته. استشاط اللّحم بفحيح يشبه فحيح

الجمرة إذا سقطت في الماء، فغزت أنفه رائحة الشياط. توجّع الوغد بصوت ليس بصوت حيوان ولا بصوت إنسان. صوت هو إلى الملل المجهولة أقرب. صوت غول أو سعلاة أو جان. اختلط مع صوت الناقة الشقيّة فتحوّل الزعيق زلزلةً زعزعت سكون الصحراء. ولكنه لم ينتهِ. ذهب بالرمح وعاد من أرة النار بالسيف مشتعلاً بالأتون. وضع النصل على فكّ الوحش الأيمن فاحترقت الجلدة وعلا في الهواء الدخان. تزعزعت الأرض بعويل الغول، وحاول أن ينهض ليتجنّب عذاب النار، ولكن التئامه بجسد الناقة وتحوّلهما جسداً واحداً عرقل محاولات الخلاص، فانهار على بدن الناقة، فهوى على فكّه الآخر بنصل النار، فعلا دخان الشياط مرّة أخرى.

فرغ من الوصيّة فتقدّم من الضحيّة. لجلج بتعويذة قبل أن يقول:

- هذه رسالتي إلى مولاك يا سلالة النحس!

حرّره من العقال وذهب به إلى أحد الرعاة ليعيده إلى صاحبه هديّةً.

لم تمرّ أيام حتى أنبأه الرعيان كيف استغفل اللئيم صاحبه عندما هجع لينام فوثب عليه وسحقه بكلكله.

٤ ـ الأتــان

أقسم منذ ذلك الزمان ألاّ يتخذ من سلالة البعير رفيقاً، لأنه لم يَرَ في دواب الأسفار إلاّ رفاقاً في صحراء الرحيل الخالد.

ذهب إلى الوديان العليا، وفتّش في قطعان الحمير البريّة عن أتانه التي أنقذته من أنياب الهلاك يوماً، فأطعمها من يديه شعيراً، واشترى لها من قوافل العابرين برسيماً مجفّفاً مستجلباً من الواحات، ووضع في رأسها الرسن، واتخذها منذ ذلك اليوم رفيقاً بديلاً لسلالات اللؤم والأحقاد والغدر المسماة في ألسنة القبائل بعائر. لم يكتفِ بهذه الصفقة التي أثارت استنكار عشاق المهاري وعُبّاد البعائر، ولكنه شنّ حملة ضاريّة ضدّ هذه الملّة متهماً إيّاها بالانتماء إلى سلالة أهل الخفاء، وقال في إحدى قصائد الهجاء التي أبدعها مستعيناً بمواهب أحد الرعاة الدهاة أن مردة الجنّ يروق لها أن تتشبّث بظهور البعائر لتتخذها مطيّة، بل البعائر تحتلّ المرتبة الثانية في عُرف هذه القبائل الخفيّة بعد الريح، ولهذا السبب صار الاستكبار والشعور بالزهو لعنة تطوّق كل الفرسان الذين يمتطون المهاري، ولكن قبائل الصحراء لم تعرف مكابراً واحداً استشعر الزهو وهو يمتطي حماراً. وقد جاء الأوان الذي ستنقلب فيه هذه البدعة رأساً على عقب، كما انقلبت الصحراء قبلها ببدعة التجارة التي جعلت من أعزّة القوم أذلّةً، ومسخت أكابر الفرسان سفلة، في حين صنعت من السفلة أكابر.

نسبت له القبائل أشعاراً مثيرة تحطّ من شأن الجِمال، وتمجّد بالمقابل الحمير. وبرغم السّخط الذي أثارته هذه الأشعار التي رأى فيها البعض تحدياً لناموس الفروسية، وبدعةً من بدع الدهماء، إلاّ أن عقلاء كثيرين وجدوا أنّها لا تخلو من حكمة، سيّما وأن الحمير كانت أوّل دواب استأنسها أسلافهم الأوائل، فكانت لهم في حياتهم الأولى معيناً سبق حتّى الأبقار التي اندثرت بسبب الجفاف

ولم يبق لها في الصحراء أثر. هؤلاء أكّدوا على القول بأن من البهتان أن يتنكّروا لرفيق الأجداد الذي هبّ يوماً لنجدة السلف، ويتغنّوا ببطولات البعير الذي ضربوا بحقيقته المثل عندما وضعوه طرفاً في ثالوت الحقد إلى جانب العبد والسيل. وعندما سادت أشعار المديح، وشاعت السيرة في القبائل، تندّر الخبثاء فأطلقوا عليه لقب «وانتهيط» تيمناً بصاحب السيرة التي تناقلتها الأجيال قائلةً: إن صاحب الأتان سوف يقبل على النجوع في آخر الزمان ليغوي القبائل إلى الوليمة، ولكنه يسحب بساط الوليمة من تحتهم ليتقاطروا في هاوية بلا قاع! بلغته الرسالة فردّ على القوم برسالة في قصيدة طويلة انتهى فيها إلى أنه لا ينكر أنه صاحب أتان، ولكنه ليس صاحب الأتان الذي سيقود القبائل إلى وليمة الهاوية، بل هو صاحب الأتان الذي سيقود القبائل إلى وليمة الخلاص!.

القسم الثاني (الترياق)

١ ـ الواحة

تستلقي الواحة في حضيض تطّوقه من جهتي الجنوب والشرق شبكة السيوف الرملية، ويحدّه من الشمال عراء مفروش بحجارة محروقة بجحيم البراكين القديمة، تشقّها وديان ضحلة تؤدي في النهاية إلى سلسلة جبلية بعيدة مجلّلة بزرقة غامضة. أمّا في الغرب فيمتدّ خلاء سمح مغمور بالحصباء وبأتربة رملية مستوية.

في قلب الواحة ينتصب الجبل الوحيد لم يكن جبلاً بالأصل، ولكنه صار جبلاً بتدّفق سلطان اسمه الزمان. كان يسحق أبنية جيل من الأجيال ليحيلها أكواماً تعتليها أبنية الجيل الذي يليله، ولا تمرّ حلقة أخرى في ملحمة الإبادة حتّى تنهار أبنية هذا الجيل أيضاً لتقوم على أنقاضها أبنية الجيل الذي يلي، إلى أن ارتفعت هامة البنيان بتتابع الأيام لتصير في النهاية جبلاً حقيقيّاً متوّجاً في الأعالي بالمغارات، وموسمّاً في كلّ مكان بجماجم الأجيال وعظام الأسلاف الذين أفناهم الزمان وطرحهم للأرض طعاماً. ويبدو أن الواحة قد عرفت في تاريخها الطويل ازدهاراً صنع لها بين الواحات

أمجاداً كما خلق لها الأعداء، فتعرّضت لغزوات الأمم المجاورة. تدلّ على ذلك بقايا السور المهدّم الأقدم عهداً الذي ما زالت آثاره باقية في الجدار الواقع عند جبل الأجداث شمالاً. ذلك أن دنيا الصحراء جرّبت أن الواحات لا تسجن نفسها داخل جدران الأسوار إلاّ دفاعاً عن نفسها من بطش الأعداء، كما جرّبت أيضاً أن الأعداء لا يشنّون الغزوات إلاّ على الواحات التي عرفت الرخاء.

أمّا عين الماء الواقعة في حدود الواحة الجنوبية الملاصقة للرمال، فإن الأجيال تروي أنها كانت جزءاً من البحيرة الكبرى قبل أن تزحف عليها حملات الريح الرملية في زمان لا يذكره أحد. وقد تقهقرت شمالاً في سيرة الدفاع عن النفس حتى احتمت بالصحراء الحجرية التي تقف السلسلة الجبلية الشمالية لها علامة. وعندما أغوت بنات الماء رجال الصحراء ليتخلّوا عن هجرتهم الأبديّة ويستقرّوا ليعمّروا الخلاء ويزرعوا الأرض، استطعن بهذا العمل المدهش وضع حجر الزاوية في بنيان العمران الذي أسمته الأجيال فيما بعد واحةً.

٢ ـ البشارة

اليوم جاء إلى السوق ممتطياً ظهر الأتان. أوقفها عند جدار بالجوار وطرح أمامها ربطة برسيم لتتلهّى. تقدّم إلى الساحة فهرع لاستقباله كبير التجّار. هلّل بلغة أشعار المديح:

ـ يروق لـ«وانتهيط»، كما يُروى، أن يحمل أتانه على ظهره كلّما اقتحم أوحال الوعوثات في الصحاري الرملية، أو يحملها

على ظهور البعائر كما تُحمل أنفس البضائع، إمعاناً في استصغار البعائر!

ـ ها ـ ها.. كيف لا يحمل صاحب الأتان أتانه على ظهره وقد آمنته يوماً من خوف؟ وكيف لا يحقّر صاحب الأتان سلالة البعائر وقد كانت لخوفه علّةً؟

ـ لم يعدم صاحب الأتان جواباً بعضلة اللسان يوماً. لن يذوق طعم السعادة مَنْ لم يهبه الخفاء حلاوة هذه العضلة!

ـ اللسان سعادة الدنيا، ولكن سعادة الأبدية العقل!

ـ صَدَقْتَ. مَنْ وُهب اللسان لن يحتاج لأن يعقد حلفاً مع مولانا الحظّ!

ـ ومن تحالف مع الحظّ لن يحتاج كثيراً إلى اللسان أيضاً. أنتم يا أهل التجارة سلالة حظّ!

ـ الكلّ يحسب ذلك، والقلّة وحدها تعلم أن لا شيء يحتاج إلى العقل الذي تحدّثت عنه منذ قليل كما تحتاجه التجارة. وجهل الناس بحقيقة هذه الأحجية المسماة تجارة هو علّة احتقار الناس لها. لا لأن الدهماء أعداء بسليقتهم لما جهلوا، ولكن لأنهم لم يعرفوا لذّة التجارة، ولا يدرون أن الفوز بصفقة يفوق الفوز ببكارة الحسناء!

ـ أعرف أن لا فلاح في حرفة إن لم يجد صاحبها في ممارستها لذّة.

ـ التجارة، يا مولانا الغريب، ليست تجارة. التجارة ليست

ربحاً أو خسارة. التجارة، كالمرأة، دمية! التجارة أغنية! التجارة لمن أتقنها أبيات شعر في ملحمة طويلة. الملحمة هي الدنيا، والتجارة أشعارها. والدليل على دهاء التجارة قدرتها على بعث العمران من المجهول. لولا التجارة لما قامت للواحة قائمة. لولا التجارة لما استمتعنا باللقاء في السوق كما نلتقي اليوم.

تابعة بفضول من وراء اللثام. استوقفه في الخطوة التالية قائلاً:

- أغنيتك عن التجارة هزّتني إلى حدّ أنها ألهمتني صفقة. ها

- ها.. هل تتخيّل أن صاحب الأتان يجرؤ على التطاول في التجارة ويعرض على صاحب التجارة صفقة؟

ابتسم كبير التجّار بخبث التجّار قبل أن يقول:

- ولِمَ لا؟ في عُبّ كلّ منّا تتخفّى صفقة؟ في قلب كل مخلوق ترقد أمنية يمكن أن تنقلب صفقة. في باطن كلّ إنسان صفقة. المرأة حبلى بجنين، والرجل محمّل بصفقة. حياتنا كلها صفقة من المهد إلى اللّحد. البعض يفلح في إنجازها مبكّراً، والبعض الآخر يفلح في إنجازها مؤخّراً، ولكن الويل لمن أخفق في إنجاز الصفقة. لأن الصفقة، يا مولاي، هي الحياة..

- الحقّ أن صفقتي لن تقل شأناً ما دمت ترى أنها ليست صفقة حقيقية تلك الصفقة التي لا تحقّق لنا خلاصاً، لأن كلّ خلاص حياة!

- بلى. كل صفقة خلاص، وكلّ خلاص حياة.

ـ أردتك أن تشتري مني بشارة مقابل ثمن بخس!

ـ بشارة بثمن بخس؟

ـ تبيعني شعيراً وتموراً ولحماً مجففاً مقابل الترياق!

ـ الترياق؟

ـ في عبّي ترياق لمداواة الوباء الذي يهدّد بطون نسائكم.

ـ هل تسخر؟

ـ وهل نجرؤ على السخرية من شأن يهدّد الخلق بالهلاك؟

ـ ماذا تريد أن تقول؟

توقّفا على مشارف الزحام. تواجها. قال صاحب البشارة:

ـ تستطيع أن تجرّب الترياق بامرأتك، فإن أخفق دفعتُ لك ثمن سلعتك مضاعفاً ببعائري التي تستطيع أن تبعث لها أعوانك في «دنبابة» ليتعرّفوا عليها بسيمائي التي تتندّر بها القبائل مدّعيةً أنها لم ترث من الأسلاف على الصخور لا رسماً لأرنب ولا لحمار تطيّراً من هذين المخلوقين الشريرين، لتنتهي إلى التشكيك في سيمائي التي تتوّج أفخاذ الإبل في شكل أذنين طويلتين، معتبرةً الوسم بدعة مهينة للناموس. هيء ـ هيء ـ هيء...

اختنق بضحكته المنكرة، فتسلّم صاحب التجارة زمام الكلام:

ـ لا أحسب أني سأحتاج إلى إرسال رجالي للاستيلاء على إبلك في «دنبابة»، لأني لم أكن لأكون كبير تجار هذه الواحة يوماً لو لم أثق في الخلق. الثقة ناموس التجارة، وناموسي أن أخسر

سلعة أهون عندي من أن أخسر الثقة في الإنسان. فما السبيل للتحقّق من حقيقة ترياقك؟

تقدّم من رفيقه خطوة. حدّق في عينيه بمقلتين خفيتين. اختنقت في صدره حتى الأنفاس قبل أن يقول بصوت بحيح:

- هل يسيئك كثيراً ألاّ تأتي إلى الدنيا بأبناء؟

طأطأ «آمجار». تنهّد. زفر أنفاساً مسموعة. همس كأنه يحاكي لسان صاحبه:

- من نحن بلا أبناء؟ هل تصدّق أننا نحيا دون أن نحيا في الأبناء؟ كل ما نفعله باطل في باطل إذا لم نأتِ إلى هذه الصحراء بأبناء. حتّى التجارة باطل إن لم أحملها بعدي أمانةً في عنق الأبناء.

سكت صاحب البشارة زمناً. قال دون أن يكفّ عن التحديق في مقلة صاحبه:

- أنت تعلم أني لا أذهب إلى البيوت.

- أعلم.

- أنت تعلم أن استخدام العقار يحتاج إلى قراءة التمائم..

- أعلم.

- أنت تعلم أن الترياق نبوءة، والنبوءة لا تنموّ إلاّ في رحاب الخلوة.

- أعلم.

- أنت تعلم أيضاً أن قرين الإخفاق البلبلة، والقبائل لم

تعرف فلاح أمرٍ لم يلفّه الناس بقماط السكوت.

ـ أعلـم.

ـ ابعث لي امرأتك الليلة، وسوف ترى العلامة بعد أسابيع.

٣ ـ تـفـران

فقدت الجنين. والمرأة بلا جنين ليست امرأة. فقدت كنزاً عوّلت عليه أكثر مما يتصوّر القرين. لأن الولد للأب ليس سوى دمية، ولكن الولد للمرأة هو الدنيا. ولهذا ورثت في سير القبائل أقوالاً عن نساء الأوائل اللائي قمن بإلقاء أنفسهن في الهاوية أو قيعان الوديان المغمورة بالسيول بعد أن ثبت عجزهن عن الإنجاب استجابةً لليقين القديم الذي لا يرى في حياة المرأة جدوى إذا برهنت الأيام على عقمها. وقد ظنّت بنفسها الظنون ونهشت قلبها الوساوس بعد تصرّم العام من حياتها مع القرين دون أن يتململ في أحشائها الجنين، فما كان منها إلاّ أن هرعت إلى الساحرة العمياء لتستجدي الخلاص، فأخضعتها الداهية لامتحان عسير. عبثت بأحشائها، وسقتها شراباً استفزّ بطنها فكادت تتقيّأ أمعاءها. ثمّ صنعت لها من سيور جلد البعير البليلة قماطاً خبيثاً تحوّل قمقماً خانقاً ما أن يبس فكاد يكتم أنفاسها. تركتها حبيسة القمقم ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع حرّرتها وبعثت بها إلى القرين محمّلة بأخلاط الأعشاب مطوّقة الجيد بالتمائم. لم تمضِ أسابيع على عمل الساحرة حتى استشعرت الغثيان وداهمتها أولى علامات الحمل. ولكن سعادتها لم تدم طويلاً مثلها في ذلك مثل كل سعادة، فحلّ على الواحة البلهاء الذي نال سلالة النساء وانتزع من بطون

الأمّهات الأجنة، فانتزع من بطنها جنينها أيضاً. وكان بوسعها أن تعتصم بالأمل، وتستجمع القوى انتظاراً لعودة الحمل مثلها مثل بقية النسوّة، ولكن اعتراف الساحرة بعسر الكرّة هو ما أفزعها وأعاد إلى ذاكرتها روايات الأسلاف عن قَدَر المرأة العقيم حتّى أنها تسلّلت إلى العين خفيةً مرّتين لتختبر مدى عمقها تحسّباً لليوم الذي ستقرّر فيه العمل بوصيّة الأسلاف.

كانت في الماضي الذي سبق نكبتها تستعيد مغامرتها ليلة القِران لتتسلّى بعملها الذي رأت فيه الواحة استهتاراً بأعراف ورثتها القبائل جيلاً عن جيل، ولكن الدمع بعد المصاب كان يحرق مقلتيها كلما تذكرت الليلة الأولى التي فرّت فيها لتختبىء في الأحراش كما يملي الناموس، فخرجت النساء في طلبها. وبدل أن تمضي في اللعبة إلى نهايتها قرّرت أن تستغفل النسوة وتذهب لتتسلّل إلى الخباء الذي يتربّع فيه القرين في الخلوة المجاورة للحقول. فعلت ذلك لا استخفافاً بالناموس كما ظنّت الواحة، ولا تلهّفاً للارتماء في أحضان رجلها، ولكنها خالفت الوصيّة القديمة توقاً لنيل شيء آخر لا يكفي أن يكون المخلوق امرأةً لكي يدرك حقيقته، لأن ليس كل امرأة امرأة، وليست كلّ أمّ هي أمّ حتى تهدهد في قلبها الفوز بالولد كحلم وحيد.

لم تبح بسرّها حتى لشقيقاتها ليقينها بأنهنّ لن يصدّقنها، فآثرت أن ينعتنها بلقب «تينكيرت»(*) على أن تعرّي لهنّ قلبها،

(*) تينكيرت: المستهترة، اللعوب، الشبقة.

لأنهنّ حتى لو صدّقنها فإن من حقّهن أن يستنكرن استهتارها بالأعراف، لأنها تعرف أنهنّ لم يحملن في القلب وسوسة، ولم يعرفن الظمأ إلى الأجنة.

واليوم، عندما فاتحها في أمر الترياق، تذكّرت دهشته ساعة دخلت عليه في ليلة الاقتران؛ تلك الدهشة التي حاول أن يداريها بالصمت في البداية، ولكنه فقد وقاره فجاءة، فأطلق ضحكة مدوّية ما لبث أن سقط بسببها على قفاه، وظلّ يتلوّى على عرشه الترابي طويلاً محاولاً أن يخنقها في صدره. انتظرت أن يكف عن الضحك فضولاً لسماع العبارة، لأن من يبتدع المفاجأة إنما يراهن على ردود الأفعال دائماً لا على الأفعال. بعد أن هدأت النوبة أمسك بمعصمها ليلتها ليقول العبارة: «هل تدرين؟ لم أفُز بثرواتي إلاّ بعد أن دفعت لها حياتي ثمناً. ولم أتخيّل أن أفوز بالمخلوقة التي ستبعث في قلبي الحياة المفقودة بالمجّان. هيء - هيء - هيء...».

لم تقل له ليلتها حقيقتها. لم تبح له بسرّها. تركته لغيبوبة الفوز. لوهم الفوز. لم تجد حرجاً في أن توهمه بما أراد أن يتوهّم. لأنها عرفت بسليقة المرأة أن ليس هناك أيسر على المرأة الذكية من أن تدخل السعادة إلى قلب رجل هو إلى الطفل أقرب منه إلى الرجل. لأن الرجل لا يحتاج كثيراً للإحساس بالسعادة، لا يحتاج إلى أكثر من الوهم شريطة أن يكون سبب هذا الوهم امرأة لا رجلاً. لا يحتاج الرجل، في يقين المرأة، لأكثر من دمية كي ينعم بالأسطورة المسماة سعادةً، شريطة أن تكون هذه الدمية امرأة لا رجلاً. والمرأة الداهية هي التي لا تحتاج لأن تستعير له دمية من

المدى، دمية من الدنيا، ولكنها تستطيع أن تجعل له من نفسها دمية. هذا هو سرّ المرأة. هذا هو الفرق بين المرأة الداهية والمرأة البلهاء. وقد وهبته نفسها ليلتها كدمية دون أن يحتاج إلى الانتظار لاستعادتها من فرارها إلى الصحراء ليلة، وربما ليالٍ، يخضع فيها لاستجواب عسير من العجائز اللائي لن يسلّمنه المرأة التي اختارها قرينة حياة إلاّ بعد مساومات قد يدفع مقابلها نصف ثروته، وربما ثروته كلّها كي يضعنها في يده كما تقضي أعراف الناموس المفقود.

ولكنها أنكرت الوصايا الجليلة وفرّت من الصحراء، من أيدي العجائز الساحرات، فرّت من الفرار، وألقت بنفسها إلى أحضان الغول، إلى أحضان خاطفها، إلى أحضان القرين، اختياراً. قدّمت نفسها للرجل لتوهمه بأنه نالها بالمجّان. لتوهمه بأنه كسب أنفس صفقة في دنياه كلّها، ليقينها بأن المرأة للرجل الذي جرت حرفة التجارة في عروقه مجرى الدّم لن تكون سوى صفقة أخرى. بل هي الصفقة الأخيرة التي لم يكن ليحتاج إلى جوارها إلى الصفقات التي ربحها في كلّ المسيرة التي سبقتها. لم تقل له أن في عبّها تتخفى صفقة أخرى. لم تكشف له عن عورتها. لم تحدّثه عن لهفتها إلى الجنين. وكان مقدّراً لها أن تحتضن السرّ كل هذا الأمد برغم أن السرّ لا يقى سرّاً إلى الأبد أيضاً. فقد جاء الأوان الذي قُدّر فيه للسرّ أن يُعرف يوم أقبل عليها مكتئباً ليفاتحها بأمر الترياق، فقرّرت أن تعرّي قلبها أيضاً. قرّرت أن تتولّى الدفاع عن النفس بتسفيه ما رآه الرجال دائماً يقيناً برغم علمها بأنها ستجرح بالدفاع كبرياء الرجل. لم تكن في حاجة ليلتها لتقول له: إنها لم

تفرّ إلى خبائه ليلة الاقتران تلهّفاً للفوز بملّة الرجل، ولكن لتستولي من صلبه على سلالة الولد. ولا يهمّها بعد ذلك أن تخسر الصفقة لأنها ستكسب مقابلها الحياة إذا ربحت الولد.

لم تنبس ليلتها، لأنها قالت له بعينيها ما يجب أن يسمعه بأذنيه. قالت له: إنها ستطلب الترياق لنيل الولد حتى لو لم يفاتحها بأمر الترياق. قالت له بعينيها: إن الرجل في عينيها ليس سوى ظلّ لا يعني شيئاً لو لم يحمل في بدنه بذرة الأعجوبة. وهو لم يكن ليستحقّ المرأة إلى الأبد لو لم يدسّ الخفاء في صلبه الوصيّة. وهو بهذا لم يُخلق لينال المرأة، ولكنه خُلق لتناله المرأة. لأن رسالة الرجل كرسالة ذكر النحل الذي قُدّر له أن يهلك في الحال ما أن يستودع أنثى النحل الوصيّة.

لقد رأت الغريب برفقة الشقيقات على العين يوماً، ولم يكن عسيراً عليها أن تدرك إلى أيّ جنس من الرجال ينتمي ذلك الداهية. ولهذا فإنها تعرف ماذا ستفعل عندما ستذهب في مساء الغد لتستعير من يديه الترياق.

٤ ـ آمجـار

هل غالَى يوم قال لصاحب الأتان: إن الفوز بصفقة يفوق الفوز ببكارة حسناء؟ الحقّ أنه لن يجانب الصواب لو قال العكس أيضاً. لأن رحلته المريرة في طلب الصفقة علّمته أن الصفقة التي لا تكون بكارة الحسناء غايتها صفقة ملفقة ولا جدوى منها أيضاً. فلم يحلم يوماً بصفقة الثروة بمعزل عن صفقة الحسناء. بل أنه لم يبدأ رحلة الطلب المرير إلاّ سعياً وراء الأمل المستحيل الذي رآه

دائماً في قوام الحسناء. ويستطيع الآن أن يجزم، بعد تبدّد كل هذه الأعوام، أن حلم الفوز بالحسناء كان الوسواس الأول الذي حرّك فيه الحنين إلى الصفقة، التوق إلى الغنى، لأنه أدرك منذ الصّبا أن الحسناء جنيّة لا تقع في الشَّرَك دون طُعم اسمه الثراء. ويوم انطلق ليحقّق الرسالة لم يسقط من باله النيّة الخفية أبداً برغم حيل الإغواء التي تلقيها كل رحلة في سبيل عابريها فتطوّح بالبعض جانباً، وتستدرج آخرين لينحرفوا عن الصواب، فينسون الغاية، ويستبدلونها بمعبود آخر تتحوّل فيه الدمية رب أرباب، في حين يتنزّل ربّ الأرباب من الأعالي لينقلب في المشوار العسير وهماً. استبسل في السبيل حقّاً، ولكنه لم يغفل عن الحقيقة، وحاول أن يفرّق بين المعبود وبين الدمية التي نتخذها محاكاةً للمعبود كي تغذّي في قلوبنا عشقنا للمعبود. صارع المردة، وغالب الجان، واشتبك مع طوابير الغيلان كي ينجز الصفقة. وكلّما فاز بالصفقة، انكبّ على نفسه، وخاطب في القلب المعبود المجهول، ليستعير من سلطانه حافزاً جديداً يعينه على إنجاز الصفقة الجديدة، لأن الحسناء الصغيرة التي خفق لها قلبه الصغير زمن الصبّا فاستبدلته بصاحب المال، لم تهجر ذاكرته برغم أنها هجرت قلبه، فصارت له وسواساً يوشوش في أذنيه بخسارته التي لم يبدأ الرحلة أصلاً إلاّ ليحوّلها أغنية حنين تقلب الهزيمة غلبةً. لأن الرحلة التي كانت لها المرأة سبباً، لا بدّ أن تصير لها المرأة غايةً. ويوم رأى الحسناء تتغسل في ماء العين عاريةً، استولت على الحلق غصّة، واستيقظت في القلب وسوسة: سبب الغصّة ذكرى الخيبة الأولى، وعلّة الوسوسة الحلم الذي هدهده طوال الرحلة حتّى كاد يصير سرّاً منسيّاً. كان

صدرها الثري مغموراً بنثرات الماء، متوّجاً بنهدين مستنفرين مرفوعين إلى أعلى. على النهد الأيمن تنسدل خصلات الشعر الفاحم فتلامس الحلمة البكر المجبولة بطوق خفيّ كئيب اللون لا يعرف لماذا ذكّره بساهور القمر عندما يستوي بدْراً. يسطع شعاع الغسق في مقلتيها الكحلاوين، الكبيرتين الشبيهتين بعيني ظبية من ظباء صحراء «مساك»، فليتمع فيهما إيماء غامض يحدّث بإغواء أو نداء أو شهوة أو أمل أو سرّ يجمع هذه العلامات كلّها. انتابته رجّة، بل زلزلة، تلك الزلزلة التي لا بدّ أن يعرفها كل من رمى الخفاء في وجهه المرأة التي ستكون له قدَرَاً، فوجد نفسه على أثرها يردّد بصوت مسموع دون أن يدري: «هي! هي! هذه هي...». ثم أطلق أنيناً مكتوماً قبل أن يخاطب نفسه بحشرجة أخرى: «لقد انتظرتكِ طويلاً!».

ولكن الخلاّن خذلوه يوم فاتحهم بأمرها. حذّروه بالقول: «إذا ارتضيت أن تضعك سليلة الماء بين فخذتيها، فعليك أن تودّع الأسفار!» فتفكّر قليلاً. تذكّر الصدر الثري المتوّج بالنهدين النافرين المغمورين بقطرات الغمر. تذكّر الحلمة البكر المطوّقة بحصن كساهور البدر، فتنهّد ليقول لهم: إن الأسفار وجع، ولا بدّ أن يأتي اليوم الذي سيلقي فيه المهاجر عصا الترحال شاء أم أبى. قرّر أن ينالها في عشية ذلك اليوم ناسياً وصيّة تعلّمها من ممارسة التجارة تقول: إن ما نناله لا بدّ أن ينالنا، لأن ظهور الحسناء في أفق دنيانا خطر لا بدّ أن ينسينا تجريب الأيام كما ينسينا وصايا الزمان.

٥ ـ الخلوة

عندما أقبلت عليه بعد منتصب الليل استنكرت ظلمة القبو فخرج بها إلى الخلوة. عَبَر بها الراوبي المزروعة بجماجم السلف وقبور الهالكين صامتاً. في الأعالي تألّق القمر، في الأسافل هيمن السكون. لم يسمع حتى لحن الجنادب التي تتبارى بالغناء في الحقل البعيد المجاور للعين. لم يسمع سوى ارتطام النعال بحجارة السبيل. تذكّر أن السكون هو ما لا تطيقه المرأة حتى في غياب الرجل فكيف بحضور الرجل؟ تفكّر في حيلة فتذكّر القبو. قال لها: إن القبور قَدَر لأن من يحيا في العبور لا بدّ أن يحطّ الرحال في القبر. قال أيضاً: إنه لا يرى فرقاً يبن جدار في قبو القبر وبين جدار في بنيان البيت لأن البيت قمقم والقبر قمقم، والبيوت قبور أحياء إن كان الأحياء أحياء حقّاً، والقبور بيوت أموات إن كان الأموات أمواتاً حقّاً. لأنّه لا يستطيع أن يقدّر أي طرف بين الفريقين أجدر بأن يُطلق عليه اسم «الحيّ» وأي طرف أجدر بأن ينال لقب «ميّت». حشرج بضحكته الماكرة، ثم.. اختنق بحشرجته وسكت. استشعر البلاهة فقال لنفسه: إن مخاطبة المرأة بلسان العقل في كل الأحوال حمق، فكيف إذا تعلّق الأمر بليلة الخلوة. شيّع عمامته إلى رحاب السماء كأنّه يستجدي نبوءةً. تسمّع فلم يسمع سوى الأنفاس. حتّى صوت الأقدام اختنق بسبب الوعوثة الرملية التي تلقفتهما لتقودهما إلى الخلوة المؤدية إلى الحقول. قال بغموض:

ـ هذه ليلة الأشعار. اسمعيني لحناً من لحون الشجن!

تمتمت:

ـ أن نقول الأشعار دائماً أهون من أن نقول الجنون.

ـ ها ـ ها.. العبور جنون حقّاً، والأكثر جنوناً من العبور هو الحديث عن العبور.

ـ لماذا نعبر إذا كنّا نستطيع أن نقول الأشعار؟

ـ لأن العبور أيضاً أشعار. العبور بديل عن الأشعار. من أعجزه أن يقول الأشعار ليس له إلاّ أن يحزم متاعه ويطلق ساقيه للريح.

ـ هذا محزن. لا أعرف لماذا يحزنني أن أسمع سيرة العبور.

ـ العبور محزن لأنه حقيقة، والحقيقة دائماً قصاص.

ـ ولكن الشعر عزاء.

توجّع بأنين عميق قبل أن يقول:

ـ الشعر عبور من أعجزه أن يحقّق العبور، والعبور شعر من أعجزه أن يقول الشّعر.

دخلا أرضاً رجراجة. غرقت النعال في وحول الوعوثة فسكتا. ولكنه سمع صوتها ما إن تحرّرا. روّضت لحناً من لحون الحنين القديمة. روضته دمدمةً في صدرها، ثم كفّت. قالت بصوت ملحون كأنها تواصل لحن الشجن الذي انقطع قبل أن ينطلق:

ـ نحن سلالة الماء التي أغوت فرسان الصحراء لينجبوا من أرحامهنّ أبناء إنقاذاً للذريّة، فمن أنت؟

ـ أنا سليل «القبلي» الذي صنع الصحراء لتكون للعابر نعيماً.

ـ كيف تكون الصحراء للعابر نعيماً إذا كانت صحراء.

ـ لأن النعيم خلاص، ولا خلاص لعابر الدنيا إلاّ الصحراء.

ـ لو لم تحتضن بنات الماء رجال الصحراء لهلكوا.

ـ ما جدوى أن تحتضن سلالة الماء أهل الصحراء إذا كانوا سيهلكون حتى لو اعتصموا بحبل الماء؟

ـ أن يهلكوا إلى جوار الماء أهون من أن يهلكوا في تيه الخلاء.

ـ هراء! الهلاك إلى جوار الماء مذلّة، والهلاك في تيه الصحراء استكبار. الهلاك إلى جوار الماء استرخاء، والهلاك في تيه الخلاء صفاء. الهلاك إلى جوار الماء انحطاط، والهلاك في تيه الخلاء أغنية. الهلاك إلى جوار الماء عار، والهلاك في متاهة الصحراء بطولة.

ـ تحدّث الدهاة عن دهاء الغريب بلسان الأساطير، ولكن هيهات أن يعلم العقلاء أنهم لا يخيفون النساء بأساطيرهم بقدر ما يشعلون في قلوبهن الفضول، فمن أنت حقّاً؟

ـ إذا قلت أني سليل أنفاس الصحراء فمن يمكن أن أكون؟

ـ أنفاس الصحراء لم تكن يوماً إلاّ ناراً!

ـ مرحى! مرحى! النار هو اسمي الذي لم أكشفه لسواك، فاحترسي!

- هل يخشى الداهية من سحر الأسحار حتى يخفي اسمه؟

- لا نصير دهاةً أبداً إن لم نخفِ.

- حقّاً؟

- الإخفاء أول سرّ في ناموس الدهاء!

- حدثني عن الأسماء.

- لن تعودي إلى مخدع القرين كما جئت إذا حدّثتك عن الأسماء.

- أنت تشعل فضولي.

- لا يُخفى عليك ما معنى أن يلتقي الماء والنار.

- الماء والنار؟

- سلالة الماء وسلالة النار..

- أنت تغذّي جنوني

- أحمل من الأسماء سبعة هي أقنعتي.

- أقنعتك؟

- بل أحجبتي التي تجيرني من كيد الخلْق.

- هل لك أعداء؟

- من لم يمتلك الأعداء لا ينعته الأغيار بالدهاء.

- ما ألذّ أن أسمع بقيّة الأسماء!

ـ كيف أسمعك بقيّة الأسماء إذا لم تفكي طلسم أوّل الأسماء؟

ـ كيف السبيل إلى فكّ طلسم أوّل الأسماء؟

ـ لا سبيل إلى فكّ طلسم أوّل الأسماء دون التحام النار والماء.

ـ ولكن في التحام النار والماء هلاك النار.

ـ النار التي تموت في اللقاء، تولد في الماء، وما لا يهلك في الخلاء لا يولد في الخفاء!

ـ أشعر بالدوار..

سقطت بين ذراعيه، فحملها نحو السيوف الرملية بخطى كهرجلة بعير مثقل بالأحمال.

٦ ـ النبوءة

في أحد الأيام، في ليلة ظلماء، في قلب واحة ضائقة في صحراء لا بداية لها ولا نهاية، عند أقدام جبل عتيد، دبّ شبح مريب. لم يسعَ في السبيل الذي يطوّق قدم الجبل من جهته الشمالية الغربية، ولكنه تسلل عبر النخيل من الجهة الشرقية، واجتاز الخلوة الملاصقة لخرائب السفح، وأقبل على حقول المقابر التي تتسلّق خاصرة الجبل الجنوبية حيث اتخذ الغريب في قبو أحد الأضرحة لنفسه مقاماً.

توقّف الشبح خارج القبو. جمد في المكان كأنه جلمود. لم

يتحرّك، لم يتنفّس، لم ينبس، كأنّه فزّاعة من فزّاعات الحقول، أو مارد جنّ قرّر أن ينزل في قلوب العابرين الفزع.

استغرقت صلاته زمناً طويلاً قبل أن يعلن عن نفسه بصوت. نفث زفرةً غريبة ليست بسعالٍ ولا بنحنحةٍ ولا بضحكةٍ ولا بصيحةٍ، ففزّ من فوهة القبو شبح آخر. خطا نحو الزائر خطوتين ثم همد أيضاً. انتصب في المواجهة وهمد. همد طويلاً، فساد بينهما سكون المفاوز الأبدية التي لم تعرف أناماً ولا أنعاماً ولا طيراً. استمرّت المواجهة فازداد السكون سحراً. ازداد عمقاً، ازداد غموضاً. كأنّهما يتلذّذان بالسكون، كأنهما كانا على ميعادٍ منذ زمان لا يعلمه أحد. كأنهما في صمتهما يتخاطبان. كأن الصمت لغتهما. كأنهما يحسنان الكلام بلسان الصمت أكثر مما يحسنان الكلام بعضلة اللسان. كأنهما ربّان مجهولان لا ينتميان إلى سلالة المخلوقات الأرضية. لأن المخلوقات الأرضية يستهويها لغو اللسانِ، ولكن سلالات المجهول تحتقر اللسان، ولا ترى في الثرثرة إلاّ الدنس الدنيء الذي لا تفلح في غسله حتّى أفدح القرابين.

كان بإمكان صمتهما أن يستمر إلى الأبد، لأن خطابهما بالصمت كان أبلغ على ما يبدو لو لم تنعق بالجوار بومة زعزعت سكون المفازة وذكرتهما بوجود عضلة لئيمة اسمها اللسان بين فكّي كلّ منهما فرأى الزائر أن يحتكم إلى ساحتها أوّلاً:

ـ إذ لم تتنازل النبوءة لتذهب إلى حضيض الناس، فليس بوسع الناس إلاّ أن يذهبوا ليطرقوا باب النبوءة!

فأجابه صاحب القبو بلغة الإيماء:

ـ كبير مَنْ أكبر في الناس النبوءة. كبير، كبير من لم ينتظر حتى تطرق بابه النبوءة، ولكنه يذهب ليطرق باب النبوءة حتّى لو كلّفه ذلك التنازل عن وقار الأكابر والتسلّل ليلاً إلى أرض المقابر.

أطلق الزائر أنين حنين:

ـ الاهتداء إلى من انقطع معه حبل الوصل أعواماً وأعواماً أيضاً نبوءة.

تقدّم صاحب القبو من ضيفه. أخذه من يده. أجلسه على حصير في مدخل القبو. تربع إلى جواره. عاد شبحاً يواجه شبحاً. ولكنه استبدل بلسان الجن لسان الإنس:

ـ هيهات أن يخفي اللثام ما كشفته الأيام يوماً!

ـ صدقتَ. إذا عرّت الأيام قلباً، فلن يفلح في إخفائه حتى ألف لثام.

ـ القلب كنز لا تخفيه خافية.

ـ اعترف لك: لقد جاهدتُ لإخفاء العلامة بطرف اللثام إمعاناً في التنكّر.

ـ العلامة؟

ـ الجدري. هل نسيت ندوب الوباء؟

ـ وهل ينسى سليل الصحراء آثار الوباء؟

ـ كما لا ينسى سليل الصحراء آثار الوباء، كذلك لا ينسى صاحب الوباء يداً انتشلته من أوحال البلاء.

ـ لا كراء لصاحب الإحسان يعلو على الامتنان في زمان لا وجود فيه لا لامتنان ولا لوفاء.

ـ لا يجب أن يفقدنا فساد الناس الثقة بالناس أبداً.

ـ أنفعل ذلك رحمةً بأنفسنا، أم رحمةً بالناس؟

ـ بكليهما.

سكتا فعاد السكون يهيمن بسلطان أقوى. زلزلت أركانه لجلجة اللسان فصممّ أن يسترجع سلطانه على الدنيا. ازداد عمقاً وغموضاً وإغواء فاستشعر الجليسان ضيقاً خفيّاً. استشعرا ذلك الجنس من الضيق الذي يكتشف المخلوق بعد فوات الأوان أنه ليس شيئاً آخر غير الإثم. وكي يتحرّر لا يتشبّث بتلالبيب الصمت، ولكن يهرع إلى استخدام اللسان:

ـ يسيرٌ أن تُخفى علامة على الوجنتين، عسيرٌ أن تخفى العلامة التي لا تُخفى.

ـ هل تقصد الأتان؟

لم يجب صاحب الأتان، فأوضح الضيف:

ـ لست في حاجة لأن أرى الأتان، ولا لأيّ علامة أخرى كي أهتدي إلى حقيقة من جمعتني به الأقدار يوماً.

ـ لقد تظاهرتَ بأنك لم تعرفني ولم ترني يوماً يوم لقاء السوق، فهل هو تنكّر أم إنكار؟

ـ لا هذا ولا ذاك. لقد حدّثني الأعوان عن علامات أخرى

ليست وسماً يقرأه البلهاء في البدن فارتبت في الأمر. وعندما التأم العقلاء، وتحدّث الرّسل بما جرى بينهم وبين الغريب، أدركت السرّ ولم أعد في حاجة إلى يقين. ولكنّي لم أكشف عن هويّة الغريب حرصاً على الواحة من البلبلة، وخوفاً على الغريب من أذى الغوغاء.

- أحسنت.

- الكلّ يعلم أن الإنسان لا يغترب عبثاً، ولكن فلاح الغريب رهين بجهلنا بالسرّ الذي يبيّته الغريب. فسرّ انكشف هو نبوءة تبدّدت قبل أن تتحقّق. وفي تبدّد النبوءة هلاك صاحب النبوءة.

- يسرّني أن أسمع حكمة الناموس من لسان استمرأ التمرّغ في وحول الواحات.

- ويؤسفني أن تبقى على سوء ظنّك بالواحات كما عهدتك قديماً.

- ماذا يفعل الغريب إذا كان المريد قد تغنّى بالامتنان لساناً، في حين خذل الخلّ في العهد؟

- مهلاً، مهلاً!

- الوفاء للوصايا لا للذكرى.

نفث الضيف أنيناً موجعاً. رفع رأسه إلى أنجم السماء كأنه يفتّش في وميضها عن إلهام، فقال صاحب القبو:

ـ يوم انتشلتك من التهلكة لم أوصك إلاّ بالعبور، فهل نسيت؟

ـ كيف لي أن أنسى؟

ـ كيف أصدّق أنك لم تنسَ وأنا أراك تستمري الاسترخاء، فلا تكتفي بذلك ولكنّك ترتضي لنفسك الزعامة على أهل الاسترخاء أيضاً؟

ـ عسر الوصيّة للنكوث بالوعد دائماً علّة.

ـ متى كان الخلاص هيّناً؟

ـ أعترف بأنه لم يكن هيّناً في يوم من الأيام. ووصايا الناموس الضائع على ذلك شاهد.

ـ عُسْرٌ يجلب الخلاص أهون من يسْر يجلب التهلكة.

تنهّد الزائر بخيبة. قال بحسرة:

ـ يسير أيضاً أن نقول، عسير أن نفعل. أنت لا تدري ما معنى أن يربّي الإنسان جذوراً.

ـ أدري. أشرّ الشرور الجذور.

ـ شربنا من مياه الجذور، فأنبتنا في الأرض جذوراً، دون أن ندري.

ـ ملعون الجذر الذي يسقينا هلاكاً حتى لو سقانا في الماء أنفاساً.

ـ آوِ، ثم آوِ.

- أنبل ما في قلب المهاجر الحنين. من لم يمت في قلبه الحنين لا يخيب.

- الحنين هو ما تبقّى.

- بالحنين حقّق أسلافنا البطولات. بالحنين قال أسلافنا الأشعار. بالحنين حفر أسلافنا وصايا الناموس في قلوب الأجيال.

- أجدادنا رجال، ولكنّا لسنا سوى ظلال.

- الحنين حجاب يبعث الحياة حتى في الظلال. الحنين لا يعجزه شيء.

- آهٍ، ثم آهٍ.. أنت تحسن بأهل الجذور الظنّ عندما تحاول أن تحيي العظام وهي رميم.

- إحياء العظام وهي رميم رسالة النبوءة.

لاذا بالصمت مرّة أخرى، فتلقفهما السكون وهاجر بهما بعيداً، بعيداً.

٧ - إوَر

لم يقبل أحد على الصحراء قادماً من الوحات يوماً إلاّ جاء حاملاً فى أعطافه الوباء. كما لم يذهب إلى الواحات سليل صحراء فراراً من الجدب، إلاّ وعاد إلى الصحراء يوماً محمولاً على مطايا القوافل العابرة خيالاً واهناً يكاد يلفظ أنفاس النزع الأخير من فرط الجوع.

ويوم حملت القوافل العابرة إلى الصحراء سليلها «إور» ورمت

به في منتجع القبيلة لم يتخيّل أحد أن هذا الشبح يمكن أن تعيده أعجوبة إلى الحياة. ذلك أن الشقيّ الذي فرّ من موجة الجفاف التي استولت على الصحراء الوسطى يوماً، لم يحمل في عودته الفاجعة جوعه وحسب، ولكنه حمل في جسده ما هو أسوأ من الجوع. حمل بلاء أسوأ من نيران الجدب: حمل الوباء!.

وأهل الصحراء يؤثرون أن يتلقّوا من الواحات ابناً ضالاً يكاد يفقد جسده جوعاً، على أن يتلقّوا من الواحات ابناً ضالاً يحمل في جسده بذار الوباء. ذلك أنّهم لم يفرّوا عبر الزمان من أصفاد الاستقرار في أسوار الواحات إلاّ خوفاً من أعفان الجدران، وفساد الأهوية، واستشراس الأوبئة.

وكانوا يرون في الأوبئة القادمة على ديارهم من دنيا الواحة مصيراً مميتاً، ليقينهم بأنها أوبئة من جنس شرير يختلف عن الأوبئة التي يتلقونها من رياح الصحراء، لأنها تستعصي على ترياق الصحراء وعلى الأدوية المستحضرة من أعشاب الصحراء. ولهذا سنّوا لأنفسهم الناموس الذي يقضي بعزل المصاب في خباء ينصبونه له في خلاء يبعد عن المضارب مسافة طويلة، يؤمّه دهاة الأوبئة وأصحاب الأعشاب. فإن أعجزهم الدّاء ويئسوا من وجود الدواء، لوّحوا للقوم بالإشارة، فتهبّ القبيلة وتستجير من اللعنة بالصحراء، تاركةً صاحب الدّاء لقدره. لأن التضحية بالسلالة في سبيل سليل السلالة، في عُرف الأجيال، جهالة لا تغتفر برغم قساوة الخيار.

يوم حملت المطايا إلى ربوع القبيلة «إوَر» الشقيّ مزروعاً

بالدمامل الفظيعة التي ينزّ منها القيح والصديد، انفضّ من حوله الخلْق أيضاً. نصبوا له في البُعْد خباء، وبعثوا بعض الدهاة للوقوف على أمره، في حين وقفت طوابير الخليقة رجالاً وصبياناً في مداخل البيوت تنتظر الإشارة بوجوم. لم يستغرق الاستطلاع يومها زمناً طويلاً. خرج الدهاة من خباء المصاب برؤوس منكسة. وقفوا في الخارج بجلال الكهنة. يتشبّثون بالصمت، ويقرأون في الغيب صلواتهم الخفيّة. ثم تحرّكوا. جرّوا نعالهم على الأرض جرّاً، فعرف القوم أنهم هُزموا، ولم يبقَ للمسكين إلاّ أن يواجه قدره في دنيا الصحراء وحيداً. التفت الرجال إلى الوراء. استلّوا ركائز الأخبية فتقوّضت البيوت على الرؤوس. تباكى الصغار، وسعت النساء هنا وهناك وبدأت حملة حزم الأمتعة. لم يكن ظعوناً للفوز بالكلأ في صحراء أخرى. لم يكن استبدال أرض بأرض كما اعتادوا أن يفعلوا كلّما طال بهم المقام في المكان. ولم يكن رحيلهم فراراً من عدوّ كما يحدث أعوام الغزوات. ولكنه رحيل فاجع مرّتين: فاجع لأنه رحيل يذكّر، ككل رحيل، برحيل آخر لا عودة منه. وهو فاجع مرّة أخرى لأنه نعي، لأنه مرثية، لأنهم بالرحيل لا يدفنون أنفسهم في ثنايا مجهول قد لا يعودون منه، ولكنهم يدفنون سليلاً استنجد بهم من بلاء فلم يجدوا حيلة تجيره من البلاء. يدفنون ابناً استجار بهم فلم يجيروه. وعجزهم في إجارة ذوي قربى ليس إثماً فحسب، ولكنه القصاص الذي لا يستطيعون أن يشتروه بأفدح قربان. ولهذا فإنهم برحيلهم يومها لا يرثون إنساناً، ولكنهم يرثون كل الناس، لا يرثون أغياراً، ولكنهم يرثون أنفسهم. لأنهم خالفوا وصايا الناموس الضائع التي تحرّض على

البطولة. الوصايا التي تعلّم التضحيةِ بالنفس في سبيل إنقاذ حياة من حاقت به بليّة. التضحية بالنفس في سبيل إنقاذ صاحب البليّة حتى لو كان ميئوساً من خلاصه. لم يكونوا ليفرّوا من عدوّ ويتركوا وراءهم مخلوقاً عرضة للهلاك حتى لو لم يقدروا على مواجهة العدوّ، لأن الغزاة أعداء الدنيا وليسوا أعداء الخفاء كالوباء. يستطيعون أن يستبسلوا إذا تعلّق الأمر بعدو يُرى بالعين ويُسمع بالأذن، ولكنهم لا يملكون حيلة لمقاتلة أعداء الخفاء الذين لا يُرون بالعين ولا يسمعون بالأذن. ولهذا حملوا فجيعتهم في قلوبهم يومها كما حملوا أمتعتهم على ظهور بعائرهم وانطلقوا ليستجيروا بالبريّة التي لم تخذلهم يوماً آملين أن يدفنوا في رحابها هزيمتهم أكثر من أملهم في أن يجدوا في متاهتها خلاصهم. لأن فرار سببه وسوسة القلب أقسى من فرارٍ سببه تجنّب الوباء.

ولكن المصاب الذي تركوه وحيداً في بطن الخباء لم يعرف الوسوسة ولم يستشعر الهزيمة لأنه لم يكن في حاجة إلى دهاء لكي يعلم أن عليه أن يستجمع كل ما أوتي من قوّة لمقاومة الدّاء إذا أراد البقاء على قيد الحياة، فمدّ كفّاً راجفة ليتناول رغيف الخبز الذي تركوه له بالجوار. بدأ يلوك الخبز بعسر من يفعل لا لرغبة في الطعام، ولكن لحاجة البدن العليل إلى غذاء يساعد على مقاومة الدّاء. ابتلع اللقمة باشمئزاز، ثم فكّ رباط القربة المعلّقة في عمود الركيزة المنتصب فوق رأسه. رضع من فم القربة كما ترضع الجداء من ضرع المعزاة. رضع جرعة وأحكم ربط القربة حرصاً على الماء. كان يعرف أنه سيهلك من الظمأ حتى لو لم يهلك بسبب الوباء. حياته الآن رهينة بوجود الماء في القربة لا بوجود العلّة في

البدن. ودهاة القبائل الذين ابتدعوا هذه الحيلة يعرفون هذه الحقيقة. ولهذا اعتادوا أن يبخلوا على المصاب بالماء إذا يئسوا من خلاصه ليقينهم بأن وفرة الماء لن تطيل إلاّ عذابه. تزحزح ليتفقّد القروح على وجهه فغزت أنفه روائح القيح. حاول أن يسدّ أنفه بطرف اللثام، ولكن اللثام تلبّس الجلد المتحلّل، فاستعسر انتزاعه كما استعسر تحرير ثيابه الملزوزة بجسده إلى حدّ لم يعد يفرّق فيه بين الجسد وبين قماش الثوب. لزوجة القيح غمرت الثياب فأغرقتها لتلتزّ بالبدن التزازاً حميماً برغم أن السائل لم يتيبّس، بل مضى يفزّ من الدمامل ويفزّ ليطفو ويسيح.

من المدخل هبّت أنفاس هجير، فتمنّى أن يهجم ريح «القِبْلي» الذي يشرب الماء من الآبار، ويمتص حتّى الرطوبة من القِرب، ولا يترك في الصحراء نباتاً إلاّ ويحيله إلى يباب وموات مثله مثل الحجارة والتراب. تمنّى أن تهجم ريح الجنوب لتنجز الخلاص الذي أخفق في إنجازه الوباء حتى الآن. حاول أن يفتح عينيه ليتفقّد الضياء، ولكن الغيبوبة حجبت الضوء وساوت بين الليل والنهار. فقد حاسة البصر ولكنه لم يفقد حاسة الشمّ بالأنف ولا حاسّة اللمس باليد برغم التخريب الرهيب الذي تعرّض له البدن على يد المرض. أنفاس الصحراء النارية أدركها أيضاً إحساساً بالجسد المعطوب لا سمعاً لولولتها في الخلاء، أو نواحها أثناء عراكها مع الخباء. ظلّ هامداً، عاجزاً، مهجوراً، ينتظر خلاصاً لا يأتي. غاب مراراً، برغم أنه يدري أنه لم ينم ولا مرّة. بدأ يفقد الإحساس بالزمان، كما فقد قبلها الإحساس بالآلام، ولكن الخلاص لم يأتِ. استشعر الظمأ كثيراً، ولكنه بلغ ذلك البرزخ الذي يستوي فيه

الارتواء والظمأ. لم يحاول أن يحرّك يده ليفكّ رباط القربة، لأنه أشمأز. أشمأز من الجسد الذي يفوح بأقبح رائحة في الصحراء كلّها: رائحة الجسد الذي يتحلّل. رائحة البدن الذي يتبدّد: رائحة القيح!.

غاب من جديد. ولكنه قبل أن يبدأ رحلة الغيبوبة تمنّى ألاّ يعود من الرحلة إلى الوراء أبداً. ولكن..

ولكن الخفاء يشاء دائماً غير ما نشاء. الخفاء يشاء أن يعيدنا من الرحلة إلى الوراء عندما لا نريد أن نعود من الرحلة إلى الوراء. الخفاء يذهب بنا إلى الرحلة التي لا نريد أن نذهب إليها فحسب. ومبرّره في ذلك أنه يجلب لنا الخلاص في كلا الرحلتين.

هذه المرّة أيضاً دبّر الخفاء مكيدته التي تزداد غموضاً كلما ظنّنا أنها ازدادت وضوحاً. فقد أعاد الداهية إلى الوراء الجسد المزروع بالدمامل والقروح بيد رسول يتنكّر في أسمال عابر يتشبّث بيده اليمنى بزمام أتان تجرجر خلفها بعيراً محمّلاً بالمتاع، يمسك بيسراه وصيّةً مخفيّةً في مخلاة.

٨ ـ النّار

أحكم صاحب الأتان اللثام حول أنفه. انحنى فوق الجسد الهامد. تفحّصه طويلاً. وعندما أيقن أن الديدان لم تغزُ الجسد الغارق في السوائل الكئيبة، انتصب وهمهم بصوت مسموع: «حيثما فاحت عفونة فثمّ وباء. حيثما ساد الوباء فثمّ ضلع لواحة!». أنزل أثقاله من فوق ظهر المطيّة. أوقد أمام الخباء ناراً.

استخرج من المخلاة أعشاباً. تناول من المتاع وعاء. ملأ الوعاء ماء. غمر الماء بعشبة كئيبة حادّة الرائحة. روّض لحناً حزيناً وهو ينتظر أن تصنع له النار من كوم الأحطاب جمراً. صنع من العيدان مسعراً. أزاح بالمسعر أعواد الحطب المشتعلة جانباً. وضع وعاء الفخار فوق الجمر دون أن يتوقف عند ترديد مرثيّته الحزينة. المهاجر لا بدّ أن يغنّى. يغنّي حتى لو لم يجد مبرّراً يدفعه لأن يغنّي. لأنه إن لم يغنِّ فلا بدّ أن يتكلّم. والكلام هو ما لا يطيقه المهاجر لا لأنه لا يليق بالرجل الوحيد، ولكن لأنه يلهيه عن متعة العابر الوحيدة: التسمّع! التجسّس على الخفاء الذي لا يتحقّق بغير الاستغراق في الإنصات. الصمت حجاب الخفاء الذي لا يكشفه من لم يتقن الإنصات. لأن صوت الصحراء يتخفّى وراء الصوت. لأن صوت الصحراء نبوءة، والنبوءة دائماً في مكانٍ مّا وراء الصوت، في مكانٌ مّا وراء المكان. والنبوءة هي سرّ المهاجر. النبوءة هي غاية العابر. فإن لم يدركها بالكلم بحث عنها بالصمت. فإن أعجزه أن يدركها بالصمت طاف حول حرمها بالغناء. ولهذا فإن الغناء لغة العابر لا الكلام.

في الوعاء تخثّر العشب فازداد لونه كآبة. أخرج الوعاء من حفرة النار وترك السائل حتى برد. أخرج من متاعه ملعقة خشب موسّمة برموز مجهولة. ذهب بكنزه إلى البدن الممدّد بجوار الركيزة. مزّق اللثام المتيبّس على وجه المصاب بعسر. أسند رأسه إلى ركبته وبدأ يسقيه السائل الكئيب بالملعقة الخشبية الموسّمة بالتعاويذ. صبّه في جوفه إلى آخر قطرة وهب واقفاً. وقف فوق رأس الجسد الممدّد ليقول كأنه يقرأ تميمة: «الآن سنرى: إمّا أن تعود إلى

الوراء، أو تذهب إلى الأمام، وفي كلا الحالين لن تخسر كثيراً!».
ثم خرج ووقف في مدخل الخباء ليتأمّل الخلاء الأبدي الذي ينطلق إلى جهات الدنيا الأربع، بل وينطلق عارياً إلى السماء العارية أيضاً. هناك تغنّى بنبوءة أخرى: «لا يميت الدّاء الذي يميت إلاّ الدواء الذي يميت!».

هام في الخلاء. وعندما عاد في المساء وجد المنكوب يتلوّى في الخباء ويجادل الأشباح بصوت مسموع ولكنه مبهم. برطم بلغة المجهول طويلاً، ولكنه انتهى إلى القول أخيراً:

ـ نار! نار! نار!

استمرّ يتلوّى. من بدنه نزّ سائل جديد. سائل ليس قيحاً وليس صديداً وليس دماً. سائل كئيب أيضاً له رائحة حادّة ولكنها ليست رائحة قيح ولا صديد. رائحة العشب المريب. ردّد مرّة أخرى:

ـ نار! نار! في بطني نار!

أحكم اللثام حول أنفه قبل أن يتقدّم ليتفقده. على جبينه لاحظ حبّات عرق. العرق غزا جسده كلّه فبدأ البدن يتحرّر من الثياب التي تيبست وتشبّثت باللحم حتى صارت جزءاً من الجسد. هلّل بصوت عالٍ:

ـ ها ـ ها.. كنت أعرف أنني لن أستطيع أن أنقذ البدن العليل من الهلاك، ما لم أحرق العرق الدسّاس بالنار!

تاوّه المسكين بأعلى صوت وفتح عينيه لأوّل مرّة. مقلتان

غزاهما البياض لا يبدو أنهما تبصران شيئاً. مقلتان تنطقان بالدهشة المجدوحة بالفزع. دهشة العين التي ألفت الظلمات، وحدّقت في الأبدية طويلاً، فأفزعها ضياء العودة إلى الوراء فاستشعرت التّيه لأنها أضاعت المكان، وفقدت الإحساس بالوجود في المكان، ولم يبق لها إلاّ النار التي تشتعل في جوفها برهاناً على وجودها في الزمان. في لحظة أخرى صرخ الشقيّ بصوت منكر مكرّراً النداء:

ـ النار! النار! جرعة ماء تطفىء النار!

ولكنه لم يسقه جرعة الماء ليطفىء النار. لأنه لم يكن في نيّته أن يطفىء النار. لأنه يدري أنه إن أطفأ النّارفي جوف البدن الذي يفترسه الوباء، فإنه سوف يُغلّب الدّاء على الدواء. النار هي الدواء. النار رسول نبيل لأنها لا تجهز إلاّ على العدوّ الأقوى. والوباء في الجوف أقوى من البدن. لهذا السبب راهن على نبل النار، على سليقة النار التي لا تتنازل إلاّ لمنازلة الأبطال. الوباء هو البطل الذي بعث بالنار رسولاً لتجهز عليه. وها هي النار تقترب من إنهاء رسالتها. ها هو الجوف يستغيث معلناً انتصار النار. وانتصار النار هو الشفاء. شفاء ثمنه عسير ولكنه شفاء. لأنه أعلم بحقيقة النار. لأنه لن يكون صاحب نار إن لم يعرف حقيقة النار.

٩ ـ العهد

جادله بعد خلاصه بزمن:

ـ يحسن بك ألاّ تنزل واحةً بعد اليوم.

فأجابه بقلبٍ عارٍ:

ـ الحقّ أني لا أعرف ماذا يمكن أن أفعله بنفسي إن لم أنزل واحة.

ـ هل الركون شهيّ إلى هذا الحدّ؟

ـ أخبث ما في الركون قدرته على أن يستدرج. نستهين به فيتمكّن منّا، نستسهله فيكتم أنفاسنا.

ـ ألعن فخّ الفخّ الذي نستهين به.

ـ صدقت. لا يجب أن نستهين بشيء أبداً. نزلت أرض الواحة أوّل مرّة إشباعاً لفضول.

ـ الفضول خطر آخر.

ـ راق لي المقام فبعت بعيراً.

ـ ثم تبعته ببعير آخر بعد أيام.

ـ بعد أسابيع.

ـ ثم التفتّ حولك فأبصرت الحسناء!

ابتسم «إور» وسحب طرف اللثام ليخفي وجنتيه المشوهتين ببثور الوباء:

ـ لم تخطىء. ولكن..

ـ لا يجب أن تستحي. لا يحتاج الإنسان أن يكون عرّافاً كي يعرف أن الفضول الذي يدفع بنزول الواحة لا بدّ أن ينتهي ببيع البعير وظهور المرأة. أراهن أن الخطوة التالية ستكون شراء أرض!

- لم تخطىء هذه المرّة أيضاً. ما يدهشني ليس أن تتنبأ، ولكنك تروى الأمر على طريقة إنسان اكتوى بتجريب.

- إذا حضرت الحسناء فلا بدّ أن تحضر الأرض. هل هناك وتد أقوى من الأرض؟ هل هناك وتد أقوى من الحسناء؟

حشرج بضحكة استخفاف قبل أن يضيف:

- لا يذهب الرجل إلى العبودية إلاّ بخلّين: الأرض والمرأة.

صاحب الوباء لم يستسلم:

- هل تدري لماذا؟

لم ينتظر جواباً. هام ببصره في الخلاء المغمور بغلول السراب، ثمّ سئم لؤم السراب فرمق الأفق واجتازه أيضاً لينتهي إلى السماء. تلكّأ هناك ولم يعد من رحلته إلاّ محملاً بنبوءة:

- وماذا في الدنيا غير الأرض والمرأة؟ ماذا سيحدث لهذه المتاهة الميتة التي نسميها صحراء لو لم نجد فيها أرضاً وامرأةً؟

- ها - ها.. تنال الأرض وتنال المرأة، ولكن لا يجب أن تشكو عندما تدفع بدنك الذي ينهشه الوباء ثمناً للصفقة!

ولكن الرجل ارتجّ فجأة. قال بيأس غريب:

- ولكن ماذا نفعل يا مولانا إذا كان الرحيل موجعاً إلى هذا الحدّ؟ ألا يرى مولانا أن ثمن صفقة الرحيل أفدح؟

- يهون الأمر لو كان الوباء هو الثمن الوحيد الذي ندفعه مقابل الصفقة. الأسوأ من الوباء الذي ندفعه في هذه الهجعة هو

وباء آخر يمكنك أن تسمّيه موت القلب.

- ولكننا يا مولانا نفقد في المكان الذي نهجره، ما لا نجده في المكان الذي نطلبه. هذا أقسى ما في صفقة الرحيل.

- هذا ثمن الرسالة.

- الرسالة؟

سكت رسول الهجرة زمناً. أحكم لثامه حول وجهه حتى حجب عينيه على طريقة الكهنة عندما يريدون أن يخفوا عن أعين الأنظار انفعالاً أو ضعفاً أو حزناً أو فرحاً أو نبوءةً:

- أجل. الرحيل أيضاً رسالة. الرحيل نبوءة.

- ما أقساها من نبوءة!

- وهل عرفت الصحراء يوماً نبوءة بلا قساوة؟

- لا أدري. ولكني لم أذق أمرّ من الرحيل. الرحيل موتٌ كلّ يوم.

- ولكنه بعث كل يوم أيضاً.

- لا أرى الخفاء يا مولاي بعثاً. ليس أقسى من الموت إلاّ البعث من الموت.

- هل تدري لماذا؟

أجاب دون أن ينتظر جواباً:

- لأن الرحيل كالحياة ليس رسالة خلاص، إلاّ لأنه رسالة قصاص!

ـ أكاد أجزم أن هذه لعنة أخرى لا تختلف كثيراً عن لعنة الوباء.

ـ الرحيل نار البدن حقاً، ولكنه للقلب بلسم. والقرار في أرض بلسم البدن حقاً، ولكنه للقلب نار.

ـ النار! آه من النار. لا تذكّرني بالنار!

ـ من لا يريد أن يتذكّر النار التي تأكل الجوف، عليه أن يحتمل النار التي تصفع الجلد.

صمت. أضاف وهو يتابع السراب في الخلاء:

ـ حتّى الأطفال يحترسون أن يضعوا أيديهم في النار مرّة أخرى إذا جرّبوا أنها تحرق مرّة.

سكت الجليس فأضاف:

ـ لم أخلّصك لتخذلني، فاحترس!

طأطأ الجليس. حرث الحصباء بسبابته ليبدع على الأرض رموزاً. أومأ صاحب الخلاص:

ـ أليس عاراً أن يفوقنا الأطفال فطنة؟

ـ أوضح..

ـ هل بي حاجة لأن أوضح؟

ولكنه ما لبث أن أوضح:

ـ لا تضع إصبعك في النار مرّة أخرى.

ـ هل تريدني الآن أنزل واحةً مرة أخرى؟

ـ تستطيع أن تنزل الواحة عابراً، ولكن لا تلقِ عصا الترحال في واحة مرّة أخرى.

ـ هل هذه وصيّة؟

ـ بلى. وصيّتي الأولى والأخيرة.

سكت زمناً. حرث في الأرض سرداباً. أقام بنياناً. شقّ طرقاً. ثم دمّر ما بنى بضربة ليقول:

ـ إلقاء اليد في النار مرّتين جنون حقّاً.

ـ والجنون أشرّ من الهلاك فانتبه!

ـ لم يبق لمن حرقت يده النار إلاّ التسليم..

حدجه فسطعت مقلتاهما بالوميض. تساءل صاحب الأتان:

ـ هل هذا عهد؟

حدّق فيه طويلاً قبل أن يتمتم بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ عهد..

القسم الثالث (الأسماء)

١ ـ الحيّة

تبدّت في ظلمة المساء عندما وقفت في مدخل مغارته كشبح من أشباح الخفاء التي تتسكّع في الواحة بعد منتصف الليل. غزته بعطر مجهول أيقظ في القلب وسوسةً. تساءل:

ـ من أنتِ؟

ـ ظننت أن المرأة التي تغزو الرجل بعطر قلبها لا تُنسى.

ـ تذكرت. جنيّة من جنيّات الماء. جنيّة اعتقلت بعجيزتها الآباء الأوائل وصنعت للسلالة المهاجرة من جدائل شعرها أغلالاً.

ـ أحسنت. ظننت أن النسيان آفة الرجال.

ـ ها ـ ها.. النسيان آفة القبيلة كلها. النسيان قَدَر السلالة كلّها. ولكن عطر الجسد تميمة في أنف الرجل حقّاً. عطر الجسد لا عطر الزهر. عطر الأنثى لا عطر الصحراء المستحضر من زهور الرّتم.

ـ عطر الجسد أنفاس لا تهبها المرأة لكل من هبّ. عطر الأنثى هبة المرأة للرجل الذي استحق أن تُحبّ.

ـ لا أنكر أن المرأة لغز. ولكن كيف تستطيع المرأة أن تهب رجلاً عطرها، في حين تمنع عطرها عن رجل آخر؟

ـ هذا سرّ المرأة. لا يتنفّس جسد المرأة بالعطر، إن لم ينبض قلب المرأة بالحبّ.

ـ عجباً! ولكن.. ما هو الاسم الذي ألقيتِ به في أذني بعد أن ألقيت بأنفاس عطرك في أنفي في ذلك اليوم؟ هل هو «تاملاّ»؟(*) هل هو «تاهلا»؟(**).

ـ لست «تاملاّ»، ولست «تاهلا» أيضاً. «تاهلا» شقيقتي، و«تاملاّ» اسم لم يكن ليروق لي، لأنه داء أهلك من الملل ما لم تهلكه الكراهة. أجارنا الخفاء من الشفقة.

ـ كيف يستجير بالخفاء من الشفقة لسان يردّد الأشعار في مديح الحبّ؟

ـ لأن الحبّ عدوّ الشفقة. لأن الحبّ يحيي، ولكن الشفقة تميت!

ـ حقّاً؟ ازداد يقيناً كل يوم أن وراء ثياب كل امرأة في هذه الصحراء تتخبأ كاهنة.

(*) تاملاّ: الشفقة.

(**) تاهلا: البكاء. النواح.

ـ لو لم تستر المرأة في قلبها كاهنة لما استطاعت أن تروّض أشقى مخلوق في الصحراء: الرجل!

ـ ها ـ ها..

خنق ضحكته في صدره فعمّ الدنيا سكون. في الأعالي تجادلت النجوم إيماءً. في خلاء الأسافل تخلّت الكائنات وخلا حتّى الريح من الهواء. ولكنّ سرّاً كاللّحن تغلغل في السكون وبدأ يناوش القلب بهسيس مكتوم. تسمّع فازداد الهسيس غموضاً واستحالة، ولكن صوت الجنيّة كتم أنفاس الهسيس بوشوشة:

ـ إذا أقبلت المرأة على الرجل في طلب الوديعة، فليس على الرجل إلاّ أن يعجّل!.

كانت تجلس في فوهة المداخل مواجهةً. تتوّج النجوم رأسها، وتنفث العطر بجسدها، وتكتم أسرار الكاهنات في قلبها.

ابتسم في الظلمة بخبث قبل أن يقول بلغة التورية:

ـ استرداد الوديعة يحتاج إلى البوح بالعلامة.

ـ العلامة؟

ـ كلمة السرّ. لفكّ الطلسم عن الكنز لا بدّ من النطق بكلمة السرّ.

ـ تفران! تفران هي كلمة السرّ.

ـ آه..

ـ لا أخفي عليك. لم أكن لأخبرك بسرّها لو لم تحدثني كيف وجدتْ في الوديعة بغيتها!

ـ هل وجدت في الوديعة بُغيتها حقّاً؟

ـ لو لم تجد هي لما طلبتُ أنا.

ـ ها ـ ها.. أنت حيّة!

ـ حيّة؟

ـ الشهوة حيّة تتستّر بجسد، والحيّة شهوة تبدّت بجسد. جنيّات الماء أدرى بحقيقة الحيّة.

ـ أنا لا أخشى الحيّات.

ـ وكيف تخشين الحيّة إذا كنت نفسك حيّة؟

زحف نحوها. أمسك بمعصمها كما يمسك القرين بمعصم قرينته في ليلة لقائهما الأولى. تنسّم عطر الجسد. حشرج بصوت كالفحيح:

ـ أنتِ لا تعلمين أن الحيّة هي أحد أسمائي!

٢ ـ العرفان

أقبلت في ليلة استوى فيها القمر بدراً، تترنّم بموّال شجن، كأنها تنوح، كأنها تستعين بالأشعار لتتحرّر من فجيعة. انتصب في المدخل كأنه يحتفي بلقائها. زفر أنفاساً سخيّة، وخنق في الجوف سعيراً، ثم غالب الوَجْد بالقول:

ـ ألا تخشى مولاتنا وَجْد الدّخلاء وهي تلقي في الأسماع أغاني الحنين؟

أجابت في الحال كأنها انتظرت سؤاله:

ـ لقد رأيت جنون الغريب يوماً عندما اجتاز حلقة الصبايا بقفزة الجان، فأدركت حقيقة الغريب.

طرح لها حصيراً في المدخل. تطلّع إلى البدر. تحدّث كأنّه يتغنّى أيضاً:

ـ كيف لا يصيب الغريب بالمسّ وفي الدنيا يسطع قمر؟ كيف لا يُجنّ الغريب إذا كان في الدنيا صبايا؟ كيف لا يفقد الغريب صوابه إذا كان في الصحراء غناء؟ انظري! كأنّ الليل نهار!

ـ لولا جنون الغريب لما عرفت حقيقة الغريب. لو لم أعرف حقيقة الغريب لما أقبلت على الغريب.

ـ ألم تقبلي في طلب الوديعة كشقيقاتك الجنيّات؟

ـ لو لم أعرف حقيقة الغريب لما أقبلت على الغريب طلباً للوديعة. الوديعة نفيسة حقّاً، ولكن الشِّعر الذي يخفيه قلب الغريب أنفس بما لا يقاس.

ـ هل تعشقين الشّعر إلى هذا الحدّ؟

ـ الشّعْر هو الذريّة! لماذا لا يكون الشعر هو الذريّة؟

ـ ها ـ ها.. لا أظنّ أن نساء الصحراء سيشاركونك هذا الرأي الجسور. لا أظن أن شقيقتك «تفران» يمكن أن تشارك مولاتي الرأي.

ـ لا أطمع أن يشاركنني الرأي لأنهنّ خلقن نساء بقلوب نساء، وخُلقت امرأة بقلب رجل.

ـ ها ـ ها.. ألا تعشق النساء الأشعار كما يتعشقها الرجال؟

ـ المرأة تعشق الأشعار بلسانها، والرجل يعشق الأشعار بقلبه. المرأة تغنّي الأشعار بالصوت، ولكن الرجل هو الذي ينزف الأشعار بالقلب. لهذا السبب تعشق النساء الشعراء أكثر مما تعشق بقية الرجال. لو خُيّرت المرأة بين الشاعر والبطل وصاحب المال لاختارت الشاعر بلا تردّد.

ـ مهلاً، مهلاً. أعرف نساء لو خيّرن بين هؤلاء لاخترن صاحب الأموال بلا تردّد!

ـ توقعت أن تقول هذا لأنّك رجل. وبليّة الرجل أنه لا يستطيع أن يميّز بين المرأة وبين ظلّ المرأة.

ـ ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ كما لا يجب أن نطلق لقب الرجل على الرجل باللباس كذلك لا يجب أن نطلق لقب المرأة على المرأة بالثياب، لأن المرأة كالرجل كثيراً ما تتنكّر في بدن غير بدنها.

دمدمت باللّحن فزعزعته قشعريرة. روّضته كأنها تغنّيه لنفسها، فسمع في الشجن نداء الحنين الخالد الذي يعتقل الزمان الضائع في قمقم الوجد، ويستعيد المكان الضائع الذي لم يدركه بالعبور، فترنّح. ردّد وراءها اللحن وهو يتمايل يمنةً ويسرةً. تساءل فسمع سؤاله لحناً:

ـ ما سرّ الشّعر يا ترى؟

أجابته غناءً أيضاً:

ـ سرّ الشّعر أنه يجعلنا نعرف..

ـ نعرف ماذا؟

ـ نعرف ما لا يجب أن نعرف.

ـ أن نعرف ما يجب أن نعرف خلاص. أن نعرف ما لا يجب أن نعرف قصاص.

ـ الشعر قصاص. الشعر ليس شعراً إن لم يكن قصاصاً.

استمرّ يترنّح. مضت تغنّي. تخشّع السكون. تسمّع البدر. ارتجّت عظام الأسلاف في مقابر السفح. زغردت جنيّات المياه التي تتسرّب في عروق الأرض لتغذّي العين. تغنّى أيضاً:

ـ ظننتُ يوماً أن سرّ عشق الأشعار هو الجَمال.

ـ وظننتُ مثلك يوماً أن اللهفة إلى «واو» المكان هو سرّ الأشعار، ثم ظننت أن التوق إلى «واو» الأزمان هو سرّ عشقي للأشعار. ثم أدركت أن «واو» المكان لن نجدها بالمكان، و«واو» الأزمان لن نستعيدها بالزمان. الشّعر يا مولانا الغريب قصاص لأنه يعلّمنا ما لا يجب أن نعلم.

ـ يعلّمنا الحقيقة؟

ـ بلى. الحقيقة هي ما لا يجب أن نعلم لا ما يجب أن نعلم. الويل، ثم الويل لمن عرف الحقيقة!

ـ هل هذه هي علّة القسوة في الشعر؟

ـ قسوة الأشعار ليست من قسوة الجمال كما يدّعي الدهاة.

قسوة الأشعار من قسوة الحقيقة.

- آه، ما أقسى قسوة الحقيقة على قلب الرجل، فكيف بالقسوةِ إذا كانت على قلب امرأة؟

- ولكن العزاء أن المرأة التي تتلقّى القصاص على يد الشّعر هي امرأة بقلب رجل لا بقلب امرأة!

تدفّق اللسان بالشّعر. تغنّت بأبيات من ملحمة الأجيال، ولكنها لم تستبدل اللحن القديم. مضت بعيداً في سبيل اللحن. في سبيل الشجن، في رحاب الحنين، في حَرَم الحقيقة، فغاب معها كل شيء، ولم يبق في الصحراء غير اللّحن.

في مسافةٍ مّا من هذا السبيل قرّر أن يبوح لها بسرّه:

- هل تعلمين؟ إسمي «إسان»(*) أيضاً.

- وأنا إسمي «تامنو كالت». جنيّة من جنيّات الماء.

- العرفان كما ترين هو قناعي. العرفان هو أحد أهم أسمائي!

٣ ـ المـارد

رابعتهنّ كانت «تاهلا» التي قالت: إن علّتها الهمّ الذي لم تجد لمداواته ترياقاً. قالت أيضاً: إنها تستطيع أن تتخلّ حتّى عن الوديعة لو استطاع أن يجد لها لداء السويداء دواءً. لأنها ترى أن

(*) إسان: الحكيم، صاحب العرفان.

إنجاب الذريّة لن يعود خلاصاً لمن صار لها البلبال وباءً. انكمشت في لحافها كالقنفذ قبل أن تستولي عليها نوبة الحزن فأجهشت في البكاء بفجيعة مَنْ حاقت به بليّة فجاءةً فاستسلم للنواح.

انتظر حتّى هدأت النوبة فسألها بوضوح:

- هل «تاهلا»(*) اسم بالميلاد أم لقب بالدنيا؟

قالت وهي تكفكف دموعها كطفل فقد دمية:

- يُقال أني لم أكف عن البكاء عند الميلاد سبعة أيام فقرأ القوم في ذلك نبوءة دفعتهم لأن يسمّوني «تاهلا».

تابعها بفضول محاولاً أن يتبينّ إيماء عينيها في الظلمة. ولكنّها ما لبثت أن أشاحت بوجهها مجفلة وهي تهتف:

- إنّه يطاردني، وها هو الآن يقف وراءك!

التفت ولكنه لم يرَ سوى فوهة القبو فتساءل:

- من يطاردك؟

أحكمت لحافها حول وجهها قبل أن تجيب:

- المارد!

- هل هو مارد الخفاء؟

أومأت برأسها إيجاباً فهتف بلهجة التحدّي:

(*) تاهلا: النحيب، البكاء.

- ها - ها. . لن يجرؤ مارد خفاء أن يتستّر ورائي.

- إنّه يتوعدني بأصابعه الكريهة المسلّحة بالأظافر الزرقاء!

- اعلمي أن كل مارد من مردة الخفاء لصاحب التمرّد ظلّ.

- ولكنه بشع! إنه أبشع من فزّاعة الحقول!

- دعكِ منه وحدثيني عمّا إذا كان الشبح علّة البكاء.

- لا أدري.

- متى ظهر المارد في دنياك لأول مرّة؟

- لا أذكر.

- هل سبّب لك أذى في يوم من الأيام؟

- يروق له أن يخرج لي لسانه القبيح. يخرج من جوفه أفعى وليس لساناً!

- هل شاركك المخدع يوماً؟

- لا أدري!

- أراهن أنّك وجدت في لسانه تسلية.

- تسلية؟

- ألم يرق لك مرأى الحية التي يخفيها في جوفه مع الأيام؟

سكتت طويلاً قبل أن تتمتم بوشوشة كالهمس:

- لا أدري!

ـ ألم تدركي أبداً أن السرّ في اللسان؟

ـ ماذا؟

ـ اللسان حيّة مخفيّة في الفم، والحيّة لسان يسعى في البريّة.

ـ لا أفهم..

ـ ألم تلجأي إلى أهل الأسحار؟

ـ الساحرة قالت..

تلكّأت في القول فحثّها على الاعتراف:

ـ ماذا قالت الساحرة؟

ـ الساحرة قالت: إني لن أجد الشفاء من المارد إلاّ في أحضان رجل!

ـ ها ـ ها.. الساحرة لم تخطىء.

ـ ماذا؟

ـ أردت أن أقول أني سوف أحرّرك من المارد إلى الأبد.

ـ حقّاً؟

ـ سأنتزعه من دنياك كما يُنتزع الشوك من القدم.

ثم أكمل وهو يزحف نحوها ويأخذها بين ذراعيه:

ـ ألم تعلمي يا سليلة الماء أن مارد الخفاء هو أحد أسمائي، ولكنه المارد الذي لا يخيف إلاّ ليسلّي، ولا يسيء إلاّ ليحسن؟

٤ ـ اللعنة

«تذّيكَتْ» جاءت في طلب تميمتها فقرّرت أن تروي له سيرتها:

ـ ورثت عن السلف لعنةً..

ـ مَنْ منّا لم يرث لعنته عن السلف؟

ـ الجدّة كانت ركناً خامساً من فتيات سبع..

ـ هذه سيرة التّيه.

ـ بعد التّيه عن النجوع أدرك الشقيات الجوع.

ـ كان يمكن أن يهلك سرب الشقيّاتِ الظمأ لولا عثورهن على الينبوع.

ـ نلن الماء، ولكنهن فقدن أسباب الغذاء.

ـ هذا ناموس الأشياء: لا ننال البُغِية كاملة أبداً. إذا استقام الأمر اليوم، فتأهب للمنقلب غداً.

ـ جدّتي هي التي أسرّت للشقيّات الستّ بوصيّة الإيقاع بـ«وانس» شقيق سابعتهنّ «تانّس».

ـ أووه، المكيدة أسوأ ما تمخّض عنه العقل.

ـ وشوشت لهنّ على انفراد أن يستدرجن رفيقتهن بالعطيّة فوهبنها ما تبقّى من حبّات التمر لتسدّ رمق شقيقها المحبوب «وانس».

- الخبث جُرْم قبيح يمقته الخفاء.

- طال زمن التّيه فانقلب الجوع بلبالاً دفع الشقيات الستّ لمطالبة «تانس» بنحر شقيقها «وانس» مقابل عطيّة التمر التي نالتها من أيديهنّ.

- تلقّى الإحسان أردأ صفقة. ما نناله اليوم من كفّ الحظّ، ندفعه غداً قرباناً للحظّ.

- لم يكن أمام المسكينة في سبيل إنقاذ شقيقها الحميم سوى أن تردّ الدَّيْن: سلخت من فخذتها لحماً وأعطته لهنّ ثمناً لدم شقيقها الشقيّ «وانس».

- ندفع ثمناً جسيماً، مقابل العطيّة المريبة.

- لعنتهن «تانس» قبل أن تهجرهن لتهيم في البريّة، فاستجاب لندائها الخفاء.

- لعنة الأبرياء قصاص يُمهل ولكنها لا يُهمل.

- ورد في النبوءة أن اللعنة ستلحق الركن الخامس من سرب الشقيات الست إلى الجيل السبعين.

- أن يؤخذ الأبناء بآثام الآباء - مشيئة عمياء!

- رأيت نفسي دائماً قربان الفداء الذي شاءت له الأقدار أن يشتري لعنة الآباء.

- لا ترياق لداء إلاّ في الدّاء، ولا يُجير من اللعنة إلاّ اللعنة. واللعنة أحد أسمائي!

٥ ـ المـــرآة

سادستهنّ أبدعت في مديح المرآة أشعاراً سخيّة.

أقبلت في ليلة استوى فيها القمر بدراً. قالت: إن اسمها «تمريت» قبل أن تتلو على رأسه أبيات القصيدة. ألقت الأشعار في البداية سرداً، ثم تغنّت بها لحناً. في الأشعار دسّت الشقيّة وصيّةً مخفيّة في أمثولة لا تخلو من إيماء مجدوح بنصيب من دهاء. قالت في الأمثولة أن السليلة البلهاء تساءلت دوماً عن حقيقتها دون أن تجد في دنيا البريّة عن أسئلتها جواباً. ولكن طائر «مولا ـ مولا» اللئيم قادها يوماً إلى الغدير فرأت وجهها في مرآة الماء لأوّل مرّة. تأمّلت الحسناء صورة حُسْنها في المرآة في ظهيرة ذلك اليوم طويلاً، طويلاً، طويلاً. تبسّمت كثيراً. تثنّت بقوامها مراراً. انحنت فوق الماء. حدّقت في الرؤيا بنهم. رأت في الرؤيا رؤيا. قرأت في قرينتها الطافية فوق الغمر نبوءة. قرأت النبوءة ففاض في القلب إلهام. فاض في القلب الإلهام فعرفت. عرفت ما لم تعرف قبل ذلك اليوم أبداً. عرفت ما لم يجب أن تعرف. عرفت سرّها. عرفت سرّ المرأة. سلطان المرأة، فعرفت بإدراك الحقيقة خطيئتها.

عادت الحسناء من رحلتها ترتجف. عادت بالكنز الذي سيأتي لها بدنيا الصحراء غنيمةً، فاستشعرت ما أسمته الأجيال فيما بعد سعادة، برغم أن وسواساً لجوجاً حدّثها بوجوب أن تحترس لأن الأكمة تخفي دائماً خطراً، والامتلاك في شرع الصحراء خطيئة تستوجب القصاص.

ولكن الحسناء في غمرة فرحتها بالكنز استهانت بالوسوسة. لأننا إذا كنّا بالترح نتعض، فإننا بالفرح نستهين بالوصايا. بالمرآة نالت الحسناء حُسْناً لم يخطر لها على بال. وبالحُسْن نالت المرأة سلطاناً على معشر الرجال. وبالسلطان على معشر الرجال نالت المرأة سلطاناً على الدنيا. كانت تتسكّع في الخلوة وهي تغنّي: «من أنا؟» فيجيبها الصوت المجهول الذي يتردّد في قلبها «أنت المرآة». تتساءل: «ما المرآة؟»، فيجيبها القرين الذي يتكلّم في جوفها: «المرآة هي المرأة». تتساءل: «ما هي المرأة»، فيجيبها الصوت: «المرأة بالمرآة هي الحسناء». فتتساءل بشقاوة الطفولة: «ما هي الحسناء؟». فيجيبها القرين: «الحسناء هي الصحراء. الحسناء هي الدنيا».

انتهت الحسناء من تلاوة ملحمتها عن الحسناء التي اكتشفت حقيقتها بالمرآة، فارتمت إلى جواره وهي تلهث. فترنّح صاحب الأتان استحساناً لحُسْن الأشعار. تمايلا معاً تحت ضوء البدر الغامض وهما يتغنّيان بالأبيات. احتضن بذراعه الحسناء وغاب مع لحن الشجن في دنيا الحنين. ردّدت وراءه الأشعار أيضاً. وعندما أبدت له دهشتها من مواهبه في استعادة أبيات ملحمة يسمعها أول مرّة، لم يجد الداهية بدّاً من الاعتراف للحسناء بالحقيقة. قال لها: أن لا سرّ يُخفى على صاحب السرّ. والملحمة التي تردّدت على لسانها لم تكن لتصير أمثولة في عقول الأجيال لو لم يكن لها هو مبدعاً. لأن خليقة الصحراء اعتادت من قديم أن تفتّش عن حقيقتها بعيداً بعيداً، وتتجاهل في لهاثها وراء السراب البعيد قلّة قليلة فيها تكمن تميمة الخليقة كلّها. بل لا تكتفي الأجيال بتجاهل

قلّتها، ولكنها لا تجد حرجاً في أن ترجمها بالحجارة، أو تهيل عليها التراب في المدافن.

قال أيضاً: إنه لا يريد أن يحدّثها بسيرته في عراكه مع الأجيال، لأنه يفضّل أن يبوح لها مقابل ذلك بوصيّة المرآة:

ـ أنت يا حسنائي لا تدرين أن المرآة أحد أسمائي، لأنّي المرآة لكل أمر: فأنا المرآة التي لا تُرِي الخلق وجوه الخلق، ولكنها تنعكس فيها نفوس الخلق. فمن كان من الخلْق في شرّ، رأى في وجهي شرّاً. ومَنْ كان من الخلْق في خير، رأى في وجهي خيراً.

٦ ـ التميمة

«تفران» من بينهنّ أوّل من قرّر أن يقول له حقيقتها بالسؤال:

ـ هل المرأة التي لا تنجب ذرّية امرأة؟

كانت ليلة ميعاد. في السماء اكتمل القمر بدراً. في الخلاء عمّ سكون. حول مدخل الضريح تحلّقت سلالة الجنيّات. روّضت «تامنو كالت» لحناً قبل أن تجيب «تامولي» على سؤال شقيقتها:

ـ كلاّ. المرأة التي لا تنجب ذرية ليست امرأة.

فتساءلت «تفران» مرّة أخرى:

ـ ولكنها ليست رجلاً أيضاً.

هنا رأى أن يتدخل في حوارهن لأول مرّة:

ـ المرأة التي لا تنجب ذرية ليست امرأة وليست رجلاً!

أفلتت من «تذّيكت» ضحكة. عادت «تامنو كالت» تروّض لحن الشجن. تساءلت «تمريت» بخبث:

ـ هل هذه أحجية؟

ـ امرأة ليست امرأة وليست رجلاً: أيّ مخلوق هي؟

تساءلت «تاهلا» باستنكار:

ـ هل هذه أحجية؟

مضت «تامنو كالت» تروّض لحن الحنين القديم. ردّد داهية الأجيال وراءها اللحن زمناً. لم يستقم اللحن في لسان سليلة الجنّ فقرّر رسول الخفاء أن يتولّى الأمر بنفسه. بدأ بفكّ طلسم الأحجية أوّلاً:

ـ امرأة لم تجد نفسها رجلاً لن تحمل في بطنها الرجل جنيناً.

تساءلت «تاهلا» كرّةً أخرى:

ـ هل هذه أحجية أخرى؟

دمدم باللحن زمناً. دمدم باللّحن كأن السرّ في اللحن لا في الدنيا. ولكنه أحجم قبل أن يقطع به اللحن شوطاً بعيداً:

ـ امرأة فقدت في نفسها الرجل كالرجل الذي فقد في نفسه المرأة سواء بسواء.

تساءلن بأكثر من لسان:

ـ حدّثنا يا صاحب العرفان عن الرجل إذا فقد في نفسه المرأة. حدّثنا يا صاحب العرفان عن المرأة إذا فقدت في نفسها الرجل.

تخلّى عن اللحن ليجيبهن بسؤال:

- هل تدري جنيّات الماء لماذا يرتمي الرجل في أحضان المرأة؟

انتظرن منه الجواب فأضاف:

- يفعل الرجل ذلك إذا فقد في نفسه المرأة. لأن الرجل يحسّ بالخواء الذي لا يطاق عندما يفتقد في نفسه المرأة لا الرجل.

قالت «تفران»:

- لم أحسب يوماً أن الرجل يمكن أن يحمل في جوفه امرأةً.

- المرأة أيضاً لا تذهب إلى مخدع الرجل إلاّ يوم تفقد في نفسها كنزاً اسمه الرجل.

- ظننتُ أن المرأة لا تحمل في بطنها غير المرأة.

- في البطن تحمل المرأة جنيناً قد يكون رجلاً وقد يكون امرأةً، ولكنها في القلب لا تحمل المرأة شيئاً غير الرجل. الرجل يفتّش في أحضان المرأة عن المرأة التي فقدها في قلبه، والمرأة تفتّش في أحضان الرجل عن الرجل الذي أضاعته في قلبها.

تعجّبت «تفران»:

- هل فتّش مولانا في أحضاننا عن امرأة فقدها؟

أجاب بلا تردّد:

- يقيناً. لو لم أفتّش فيكن عن المرأة المفقودة لما وهبتكن التمائم من صلبي.

ـ هل قلت تمائم؟

ـ وهبتكنّ سلالتي. وسلالتي أسمائي. وأسمائي تمائمي. وتمائمي في الرحلة بذور اغتراب لا نواة هجوع.

ـ هل عدنا إلى الحديث عن ناموس الأسفار؟

ـ كل حديث يقود إلى الحديث عن ناموس الأسفار في عُرف رسول الأسفار، ولو لم يكن عددكن في السرب ستّ لما كان لكنّ سلطان على أعناق الرجال.

تساءل أكثر من صوت:

ـ ماذا يريد مولانا أن يقول؟

ـ أردت أن أقول إن الخفاء قد دسّ في سلالتكن طلسماً في العدد السادس، وهو في حساب دنيا الخفاء عدد نحس، فصار للملّة شؤم على مرّ الزمان.

ساد سكون. في السماء هجمت سحابة فاحتجب البدر. هتفت «تامولي»:

ـ لقد ورثنا عن جدّاتنا العدد السادس كرقم معبود.

ـ رقمكن المعبود هو سرّ بُعْدكن المفقود!

عاد السكون. تساءلت «تمريت»:

ـ هل في سربنا بُعْد مفقود؟

ـ العدد السادس في ناموس الأسحار رقم الخطر ما لم نضف له رقماً آخر، فأين الحسناء السابعة في سرب بنات الماء يا ترى؟

تمتمت «تاهلا»:

ـ لم يخطر ببالنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال يوماً.

ـ لأن.. لأن سابعكن بُعْد مجهول. لأن سابعكن هو الرجل. لأن سابعكن لم يكن ليكون رجلكن لو لم أكنه أنا!

هتفن بأكثر من لسان:

ـ أنت؟

ـ أنا سرّكن. أنا تميمتكنّ. أنا إسمكنّ الضائع. أنا بُعْدكنّ المفقود. أنا مَنْ فتّش في أحضانكنّ ليجد فيها نفسه. أنا مَنْ فتّشتنّ فيه عن رجلكنّ المجهول لتجدن في أحضانه حقيقتكنّ الضائعة. أنا البُعْد السابع.

ـ هل البُعْد السابع هو اسم مولانا السابع؟

ـ هذا ما لا أستطيع أن أبوح به.

استنكرن بصوت جماعي:

ـ ولكنّك حدثتنا عن الأسماء. ولكنك زرعت فينا الأسماء.

ـ زرعت في أرحامكن من الأسماء ستّاً، ولكنّي لا أستطيع أن أفشي سرّ الاسم السابع.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأن الاسم السابع تميمتي الوحيدة التي تبقّت لي.

ـ إن الفضول سيفترس قلوبنا الليلة.

ـ أن يفترس الفضول قلوبكن الليلة أهون من أن يفترس المجهول قلبي غداً.

القسم الرابع (الناموس)

١ ـ الرسالة

في طريق العودة من الحقول اعترض سبيله الأبله. فزّ من وراء حرجة نخيل فجأة وانتصب في وجهه باستفزاز. تطلّع إليه بتلك النظرة الخاوية التي تحدّق في ما ترى ولكنها لا تبصر ما ترى. تحدّق في ما ترى، ولكنّها تبصر بُعْداً أبعد مما ترى. نظرة لا يتقنها إلاّ البلهاء أو الأنبياء أو ذوو العيون الحولاء. لم يتزحزح. لم ينبس فقال الداهية:

ـ لا تكتفي أن تعترض سبيلي في الطرقات، ولكنك لا تريد أن تكفّ عن اعتراض سبيلي في قلوب الناس!

خيّل إليه أن الأبله أطلق ضحكة استخفاف، ولكنّها كانت ضحكة أشبه بسعال عتعت حديث الولادة منها إلى ضحكة صاحب عقل. همّ بأن يضيف ولكن «إدهي» سبقه:

ـ رسالة ابن السبيل أن يعترض السبيل.

ـ لم أنعتك بـ«ابن السبيل» يوماً.

ـ ولكن الأغيار ينعتونني.

ـ الأغيار الذين تعترض سبيلي في سبيلهم؟

ـ أعرف أنّك ستعيّرني بذلك، ولكن بلاهتي ستشفع لي.

ـ قل هذا لمن لا يشكّ في بلاهتك.

ـ أعرف أنّك تشكّ في كل شيء. أعرف أنّك تشكّك في كل شيء. أعرف أنّك لا تؤمن بشيء!

ـ من أين لك بهذا اليقين أيّها الشقيّ؟

تضاحك الأبله مستلقياً بعمامته إلى الوراء. ولكنه اعتدل في وقفته ليقول:

ـ نفس اليقين الذي يدعوني أن أحمل أوزار أغيارٍ لا يرون في عقلي إلاّ بلاهةً هو اليقين الذي يريني الحقيقة التي تخفيها في قلبك.

تفحّصه بفضول. تفحّصه طويلاً. قال:

ـ ماذا تريد أن تقولِ؟

ـ أريد أن أقول أن وصاياك سوف تفسد على البلهاء حياتهم.

حشرج الداهية بضحكته. سوّى لثامه حول وجنتيه. قال:

ـ هل أفسد حياة بلهائك لأني أكيل للسكون سباباً؟

ـ إنهم سعداء بحياتهم، فلماذا تزحزحهم؟

ـ إنهم سعداء بشقوتهم لا بحياتهم.

- السعيد بشقوته أحسن حظّاً من الشقي بسعادته.

- ها - ها.. أجبني على سؤال: هل نحن من يختار رسالتنا أم الرسالة هي التي تختارنا؟

- يجب أن أكون صاحب رسالة حتّى أجيبك على هذا السؤال.

- لو لم تكن صاحب رسالة لما اعترضت سبيل صاحب الرسالة، فدعك من افتعال الغباء!

في عيني الأبله تألّق وميض. ولكنه طأطأ أرضاً. حرث على التراب رمزاً مبهماً بنعله الجلدي البائد قبل أن يعترف:

- حسناً. أظن أن الرسالة هي التي تختارنا لا نحن من يختار الرسالة.

- لو لم تجب بغير هذا لشككت في بلاهتك، ولكن صاحب الرسالة لصاحب الرسالة قرين حتى لو شبّت بينهما عداوة. فكيف تريدني أن أتخلّى عن أمرٍ لم أختره لنفسي إذا كنت تعلم أن الرسالة كالحياة التي تختارنا دائماً ولا نختارها لأنفسنا أبداً؟

ولكن الأبله أجاب بعناد:

- أنت لم تختر رسالتك، ولكني لم أختر رسالتي أيضاً.

- أووه.. ما أعسر العداوة التي تكون سببها رسالة!

عاد يتأوّه بالوجع قبل أن يردّد:

- أخشى أننا سنفترق قبل أن نلتقي. أخشى أن يكون الفراق بيننا أبديّاً.

ولكن الأبله قاطعه بصوت تهدّج:

ـ لن نفترق إذا تركتنا في سبيلنا.

ـ ها ـ ها.. هل تريد أن تقول أننا سنلتقي إذا افترقنا؟

هزّ «إدهي» رأسه إيجاباً. تضاحك الداهية بحزن. قال بلغة أخرى:

ـ هيهات أن يلتقي من فرّقت بينهما الرسالة. هيهات أن يلتقي من جاء لينقذ الوصايا بمن شاء أن يدفن الوصايا.

ـ اعتدنا أن نسمع الحرص على مصير الوصايا من فم كلّ صاحب بدعة!

ـ بلى. لا أنكر أن الكَذَبة كثيراً ما جرّوا القبائل إلى المجهول بدعوى إنقاذ الوصايا، ولكنّك لن تنكر أيضاً أن الاستقرار في الواحات أهلك من الوصايا ما لم يهلكه النسيان في أجيال وأجيال.

ـ في العبور أيضاً تهلكة، في الرحيل أيضاً شقوة.

ـ في العبور هلاك الأبدان، في الاسترخاء هلاك العقول.

ـ هل نخالف الناموس إذا هجعنا بأبداننا، واستطعنا برغم ذلك أن نرحل بقلوبنا؟

حدّق فيه بعينين جاحظتين، ولكن جفناً لم يرفّ للأبله. مضى يحدّق في عيني الداهية أيضاً بعينين خاويتين ولكنهما مصممتين.

قال الداهية بصراحة كاهن يتلو نبوءة:

ـ لو استطعت إلى ذلك سبيلاً فقد حققّت بطولة.

ـ لا يرحل من لم يرحل بالقلب.

ـ تلك هبة الأخيار، لا الأغيار.

ـ لماذا لا نعلّم الناس أن يحصّنوا الوصايا برحيل القلب بدل رحيل البدن؟

ـ هذه رسالة من آمن بالناس، لا رسالة من أعياه تبديل سليقة الناس!

ـ أما من سبيل؟

تنهّد صاحب الأتان بيأس. رفع بصره إلى أفق تغزوه عتمة المساء. تعلّق بالأفق طويلاً. قال:

ـ لو لم أجرّب السبل لكفاني الزمان عناء الجدل.

ولكن الأبله تقدّم نحوه حتى كاد أن ينطحه بعمامته الهزيلة. رنا في عينيه بغموض. قال كأنه يتوسّل إحساناً:

ـ كيف تراني؟

استفهم الداهية بإيماءة فتكلّم «إدهي» بذات الصوت:

ـ هل قرأ مولاي في قلبي شرّاً؟

هزّ صاحب الأتان عمامته نفياً، فأوضح الأبله:

ـ تلك فضيلة الرحيل بالقلب.

وافقه الداهية بإيماءة. تمتم:

ـ يقيناً.

ـ إذا لم نخسر قلوبنا فلن نخسر شيئاً.

ـ صدقت. ولكن هيهات أن يفهم الأغيار ذلك.

ـ ربما كان الأفضل أن نستدرجهم.

هزّ الداهية عمامته نفياً. تمتم:

ـ عبثاً!

طأطأ الأبله فأوضح الداهية:

ـ لن يحيا لهم قلب إن لم تنخسهم بالمِنْخَر كما تُنخس الدواب!

الأبله شيّع رأسه بعدها. استدار نحو الواحة. تركه واقفاً وانطلق منكّس الرأس.

٢ ـ الكـراهـة

بيت كبير القوم يعتلي رابية. الرابية تحدّ أبنية الواحة من جهة الشمال. البيت مطوّق بسور. السور يخترقه سور آخر أقدم عهداً كان للواحة بمثابة الحصن يوماً، تعلو بقايا جدرانه علامات الربّة «تانيت» المجسّمة في مثلثات من ألواح طينية ترابية اللّون.

في قلب البيت التأم العقلاء. في الخارج ضجّ عجاج. ولكن على المجلس خيّم سكون. انتظر الكلّ أن يتكلّم وليّ الأمر، ولكن «إور» لاذ بالصمت فهبّ لنجدته الأبله:

- هل يُرجى خير في إنسان يستبدل بالبعير أتاناً؟

في عيون البعض لاحت بسمات. تبادل آخرون نظرات ذات معنى. نظرات تقول إن ما لا يجسر على فعله العقلاء، يتولّى أمره البلهاء. وقول «إدهي» وإن استثار قلوباً لم يمت فيها الإحساس بفروسية أهل الصحراء، إلاّ أنه أيقظ في نفوس الأكابر الخجل أيضاً لأنّهم لم يكن من حقّهم أن يعيّروا الدخيل باستبدال الأتان ببعير إذا كانوا قد سبقوه إلى هذا الفعل يوم ولّوا ظهورهم للصحراء واختاروا الركون إلى الأرض والاسترخاء في الواحات حياةً.

في الخارج عاد العجاج ينوح. في الداخل استمرّ الوجوم. تكلّم العرّاف بعد زمن:

- أكاد أجزم بأن العيش في أرض بلا ماء أهون من العيش في أرض فسد فيها الماء.

حاججه وليّ الأمر:

- هل هذا إيذان بالاستسلام لمشيئة الغريب؟

حدجه «يزّال» باستفهام قبل أن يجيب:

- لا أدري عمّا إذا كان هذا استسلام لمشيئة الغريب أم أنه استسلام لمشيئة الخفاء!

تدخّل «إليلي»:

- ما أعلمه أن فساد المكان رهين بفساد الماء.

عاد «إور» يجادل:

- لو فسد الماء لعلّة مجهولة لقلنا إن البلاء رسالة من رسالات الخفاء، ولكن الكلّ يجمع أن السرّ مطمور في تلابيب الغريب.

تكلم العراف «يزّال»:

- لن يغيّر من حقيقة البليّة اختلاف العلل.

اعتدل «إور» في جلسته. أحكم لثامه حول أنفه. زفر كمن يتهيأ لجدل طويل. قال:

- أردت أن أقول إن سِيَر الأجداد لم تعلّمنا أن نفرّ من العدو الذي نستطيع أن نراه بالعين ونسمعه بالأذن.

هلّل «إليلي»:

- ولكن الدّاء بليّة لم نرها بالعين ولم نسمعها بالأذن ولم نقف لها على سرّ.

- رأينا البليّة بالعين وسمعناها بالأذن ما دمنا قد رأينا الفاعل.

هتف العرّاف:

- ما البرهان على أنّه الفاعل؟

- أيسبّ الدخيل الاستقرار جهاراً، وينادي بوجوب الرحيل ليلاً ونهاراً، ثم نتخاصم بحثاً عن البرهان؟

ولكن «إليلي» ازداد عناداً:

ـ الأقوال ليست أفعالاً، والسباب ليس برهاناً.

تضاحك البطل «إمّار». تدخّل كبير التجّار:

ـ إذا كان الغريب قد جاء في أعطافه بالبلاء، فإنه قد جلب للواحة الخلاص أيضاً.

استنكر «إور»:

ـ عن أيّ خلاص تتحدّث؟

سكت «آمجار» زمناً. اختلس بصراً إلى لفيف العقلاء. حدج كبير القوم أيضاً. طأطأ قبل أن يتمتم:

ـ الترياق!

في الخارج عوى الريح. في الداخل ساد صمت. صاح الأبله فجأة:

ـ عن أيّ ترياق تتحدّث؟

تبادل الأكابر نظرات. نبش البعض بأصابعهم تراباً. حفروا في الأرض رموزاً مبهمة. تكلّم «إور»:

ـ ربّما أنقذ من التجأ إليه ذرّاً للرماد في العيون، وربما لأمر في نفسه كما يليق بكل داهية، ولكن لا يجب أن ننسى أن فقدان الأجنّة لم يتوقّف.

صاح «إدهي» بأعلى صوت:

ـ إسقاط الأجنّة لم يتوقّف لأن الخبيث لم يتوقّف عن طرح أعشابه الكريهة في ماء العين. لقد أخبرتكم بسرّه من أوّل يوم ولكنكم لم تصدّقوا!

احتجّ كبير التجّار:

- من يداوي البطون لا يعمد إلى إسقاط الأجنّة من البطون.

أيّده العرّاف:

- كيف نتهم إنساناً بزرع الوباء في أرض إذا كان قد قام بمداواة أهلها؟

فزّ الأبله مرّة أخرى:

- لم يفعل اللئيم ذلك إلاّ لإبعاد الشبهات. لم يفعل الداهية ذلك إلاّ لإخفاء مكيدة.

صاح «إور»:

- أحسنت. لم يفعل ذلك إلاّ لإخفاء مكيدته. أضمّ صوتي إلى صوت هذا الأبله!

قال كبير التجّار:

- لا نستطيع أن نسوق شهادة «إدهي» دليلاً لأننا نعلم أن الأبله قد جاهر له بالكراهة من أوّل يوم.

انبرى كبير القوم للدفاع:

- ولكنّا لا نستطيع أن نسمّي كراهة تلك الكراهة التي لم نجد لها سبباً.

هتف «إليلي»:

- بلى، بلى. كراهة بلا سبب أشرّ أجناس الكراهة، فاحترسوا!

صاح الأبله من جديد:

ـ لا أنكر أني كرهته منذ أول يوم لأنّي عرفت سرّه.

تساءل أكثر من صوت:

ـ هل عرفت سرّه حقّاً؟

سكت الأبله فتكلم البطل:

ـ حدّثنا عن سرّه!

طأطأ «إدهي». في عينيه تألّق ألم. بدأ يرتجف. تمتم:

ـ لا أستطيع.

تبادل الأكابر نظرات دهشة. تساءل العرّاف:

ـ لماذا؟

قال الأبله بصوت مكتوم:

ـ لأن.. لأن سرّه من سرّي!

٣ ـ البيّنة

خرج العرّاف يتمشّى. كان الأهالي يقولون إنه يستجدي النبوءة كلّما رأوه يعبر العراء الشمالي الملفوف بالظلمات. ليلتها عَبَر عراء الجهة الشمالية أيضاً عندما اعترض سبيله شبح. تبدّى له فجأة ولكنه لم ينبس. مشى بجواره خطوات قبل أن يتعرّف في قامته إلى كبير القوم. تكلّم «إور» بعد أن قطعا مسافة صامتين:

ـ المرء لا بدّ أن تساوره الشكوك.

لم يردّ «يزال» فتساءل وليّ الأمر:

ـ هل تؤمن بالنحوس؟

ـ مَنْ منّا لا يؤمن بالنحوس؟

ـ أردت أن أقول إن الزائر إذا لم يذنب بيديه فقد يكون من تلك الملّة التي أذنبت بدون ذنب.

سكت ومضة ثم أوضح:

ـ أعني أنه من الفئة التي ورثت عن أسلافها آثاماً.

ـ لا أدري. ولكن اليقين أن في أعطاف البعض تقطر خيوط المطر، وفي أعطاف البعض الآخر تتلىّ خيوط الشرّ.

ـ هذا ما أردت أن أسمعه. أعني أن الغريب إن لم يخفِ في عبّه مكيدة، فلا شكّ أنه صاحب نحوس!

سكت مسافة. دحرج بنعله حجارة السبيل. أضاف:

ـ ألا يجيز الناموس أن يقوم القوم بإبعاد دخيل جلب للأرض النحوس؟

ـ الإبعاد قصاص، والناموس لا يجيز القصاص لمجرّد الشكوك.

سكت «إور» كرّة أخرى. سكت طويلاً. توقّف فجأة. اعترض سبيل العرّاف ببدنه. تكلم بصوت مكتوم:

ـ أجبني الآن على سؤال: متى يستطيع الناموس أن يحكم بالقصاص؟

أجاب العرّاف بلا تردد:

- بالبيّنة!

- البيّنة؟

لم يجب «يزّال» فتوعّد «إورء»:

- ولكن أين البيّنة؟ لا بيّنة في دنيانا كلها..

- ها أنت تجيب على السؤال.

- ماذا تريد أن تقول؟

- أردت أن أقول أن عسر الحكم بالقصاص من عسر نيل البيّنة.

- ولكن صحبان الشرّ سيفسدون في الأرض، وسيقلبون حياة المستضعفين رأساً على عقب دون أن نستطيع إحقاق ما تسميه بيّنة وأسميه بهتاناً.

- هل تدري لماذا؟ لأن الناموس يدري أن ليس في دنيا الخَلْق ما هو أعسر من الحكم على الإنسان بالخطيئة.

- هل لأننا كلنا أصحاب خطيئة؟

- لا أدري. ولكن الأجيال جرّبت أن الأهون أن يذوق السواد الأعظم طعم الظلم من أن ينال إنسان واحد القصاص ظلماً.

- أراهن أن هذا بحدّ ذاته بلاء! أراهن أن هذا ما تسمّيه القبائل بليّة!

ـ البطولة ليس أن نستنزل القصاص. البطولة أن نستنزل الغفران. هذا ما يقوله الناموس.

ترنّح «إور» يمنةً ويسرةً وردّد كأنه ينوح:

ـ الناموس، الناموس، ما أقسى وصايا الناموس!

٤ ـ الحقيقة

ولكن «إور» لم يستسلم. اختلى في الليلة التالية بـ«إيلي» ليجادله بشأن البيّنة. قال له عندما جالسه فوق رابية تشرف على أبنية الواحة من الجهة الشمالية:

ـ البارحة تحدّثت مع «يزّال» بشأن القصاص. واليوم أريد أن استوصيك بشأن الخلاص. فهلا فتحت قلبك لقولي؟

ـ ستجدني آذاناً صاغية.

ـ الحقّ أنّي سأبوح لك بسرّ يصلح بيّنة.

تطلع «إيلي» إلى المدى المزروع بأبنية طينيّة مغمورة بعتمة المساء في حين أضاف «إور»:

ـ صاحب الأتان أنقذني يوماً من هلاك..

ولكن صاحب العقل لم يلتفت، ولم يتملّكه الفضبول. مضى يرنو إلى الخلوة بلا مبالاة فأوضح الجليس:

ـ نلت نصيبي من الوباء يوماً في إحدى زياراتي إلى الواحة، وعندما عدت بالوباء إلى الصحراء أنفضّت القبيلة من حولي وتركوني في الخباء وحيداً.

في مقلة «إليلي» لم يَلُح إلاّ الغموض، فرأى الراوي أن يبتسر سيرته:

ـ فسد البدن، وهجرت الصحراء، وطاف فوق رأسي عتاة الجنّ عندما اقتحم الخباء رسول.

سكت. تطلّع إلى الخلاء المغمور بغيهب المساء. أضاف بابتسار أشدّ:

ـ تولّى صاحب الأتان أمرى، وأعادني إلى الصحراء ببلسم الأعشاب!

توقّف. تلاحقت في صدره الأنفاس. تلاشت من لسانه العبارة. ولكن الجليس لم يهبّ لنجدته. ساد السكون قبل أن يكمل:

ـ هل فهمت ما أعني؟

لم يجب الجليس فتكلّم صاحب السيرة:

ـ الأعشاب بيد صاحب الأتان سلاح قديم.

لاح في عين «إليلي» إيماء استفهام فأوضح «إور»:

ـ من استطاع أن يستخدم الأعشاب كترياق يستطيع أن يستخدم الأعشاف كوباء. أنت تعلم.

في مقلة الجليس حلّت اللامبالاة مكان الاستفهام دون أن يتخلّ عن جلسته المشدودة إلى الخلاء.

قال «إور»:

ـ ألا تجد في ما أقول تأكيداً لما قاله الأبله؟ ألا يكفي هذا بيّنة؟

أجاب «إليلي» ببرود دون أن يتخلّى عن صلاته في الخلاء:

ـ هذا ليس بيّنة.

ـ لماذا؟

ـ البيّنة تشترط شهوداً، ولا شهود لك في ما تقول، كما لا شهود للأبله في ما قال.

سكت «إور» قبل أن يقول بلهجة يأس:

ـ كأنكما لسان دفاع عن صاحب البلاء لا لسان اتّهام.

ـ ماذا؟

ـ من يسمع العرّاف، ويسمع صاحب العقل، لا بدّ أن يجزم بذلك.

ـ لا يجب أن تنسى أننا نتكلّم بلسان الناموس لا بلساننا.

ـ لا أحسب أن الناموس يمكن أن يجيز التهاون بشأن من يعيث في الأرض فساداً.

ـ الناموس لاستنزال القصاص لا يريد إلاّ البيّنة.

ـ ولكن البيّنة قد تستعصي إذا تعلّق الأمر بعمل الدهاة.

ـ إذا استطعت البيّنة فاعلم أن البلاء هو القصاص!

ـ ماذا تقول؟

ـ لا يجب أن نقتصّ من صاحب بلاء إذا أيقنّا أن البلاء الذي يحمله هو قصاص خفاء.

ـ ألا يجب أن ندافع عن قومنا الذين يتهدّدهم الهلاك؟

ـ دفاعك لن يجدي إذا كان البلاء هو قصاص عن خطيئة.

ـ خطيئة؟

ـ ألا يرى صاحب الأتان في الاستقرار خطيئة؟

هبّ كبير القوم واقفاً. تساءل بتحدٍّ:

ـ وهل كل ما يراه صاحب الأتان حقيقة؟

أجاب «إيلي» ببرود دون أن يتخلّى عن رحلته الخفية في الخلاء:

ـ لا أدري. الخفاء وحده يدري. وسوف يتولّى عنه الزمان الكشف عن الحقيقة.

٥ ـ الجسور

بعد أيّام دعا وليّ الأمر أكابر القوم إلى وليمة. نحر أنعاماً وأطعم الناس لحوماً وأطعمة، ولكنه لم يفصح عن سرّ القربان.

في الدار التأم العقلاء. في المجلس كما في كلّ مرّة تولّى الأبله زمام المبادرة:

ـ حقّ لنا اليوم أن نضع الرّحل على الدّابة!

ابتسمت العيون كما في كلّ مرّة أيضاً، ولكن العقلاء

انتظروا أن يتكلّم صاحب الأمر لا ظلّ صاحب الأمر. بعد صمت مزموم اضطرّ صاحب الأمر أن يتولىّ الأمر:

- آن الأوان كي ندافع عن أنفسنا.

تبادل الأكابر النظرات اختلاساً، ولكنهم تصبّروا وانتظروا.

أضاف صاحب الأمر:

- إذا انتظرنا أكثر مما انتظرنا هلكت الواحة وعرّضنا حياة أهلها للخطر.

خيّم الصمت المزموم كرّةً أخرى. أضاف «إور» باستعلاء أولي الأمر:

- لقد أوكلتم لي أمر الواحة يوماً. وسوف أخذل ثقتكم إذا وقفت بعد اليوم مكتوف اليدين. فماذا ترون؟

لم يتكلّم أحد. ولكن «إور» أومأ للعرّاف فترنّح «يزّال» كأنه يتألّم. حرث في الأرض رمزاً قبل أن يتكلّم:

- السؤال ليس ماذا نرى، ولكن ماذا تريد منّا أن نفعل.

- ماذا يفعل الرعاة بالبعير الموبوء بالجرب إذا دخل قطيع الإبل؟

هتف «إدهي» بأعلى صوت:

- يطرد شرّ طردة!

لاحت بسمة في أكثر من عين. تدخّل «إليلي»:

ـ عرفنا ماذا يفعل الرعاة بالبعير الموبوء إذا دخل القطيع، ولكنّنا لم نعرف ماذا يفعل عقلاء الصحراء عندما يقتحم أخبية القبيلة مخلوق يحمل في أعطافه الوباء.

حدج «إور» بنظرة ذات معنى. ولكن وليّ الأمر تجاهلها ليتساءل:

ـ لا أفهم ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول أن حكماء الصحراء لا يبعدون صاحب الوباء في هذه الحال، ولكنّهم يتركون له الأرض ويفرّون بالقبيلة إلى أرض أخرى!

تبادلا نظرة. نظرة خفيّة. نظرة يعجز حتى الدهاة عن التنبّوء بحقيقتها. أشاح «إور» ببصره جانباً. قال ببرود مفتعل:

ـ هذا ما يراهن عليه اللئيم!

ولكن «إدهي» صاح من جديد:

ـ هل تريدون أن نستسلم بلا قتال؟

عقّب العرّاف:

ـ الرضى بقضاء الخفاء ليس استسلاماً.

تكلّم «آمجار» لأوّل مرّة:

ـ ماذا يضيرنا لو نفضنا عن نفوسنا غبار الاسترخاء وجرّبنا الرحيل من جديد؟

أطلق الأبله ضحكة. مال بجسده الهزيل نحو كبير التجّار

وهمس في أذنه بصوت سمعه كل المجلس:

- أخشى أنّك أول من يتضرّر. لأنّك ستحتاج إلى كثير من الدهاء كي تجد من يشتري بضاعتك في الخلاء.

أجاب كبير التجّار بيقين:

- داهية التجارة لن يعدم من يشتري تجارته أبداً. في عُرف أهل التجارة تتساوى الواحة مع الخلاء، لأننا لا نراهن على الأرض ولكنّا نراهن على الإنسان الذي يدبّ على الأرض!

قرّر البطل أن يتكلّم أيضاً:

- أنا رهن إشارة مولانا. إذا قررتم الاحتكام إلى السلاح فسوف تجدون سيفي رهن إشارتكم.

ابتسم «إليلي» باستخفاف. تطلّع إلى «إور» طويلاً. تساءل:

- هل يذكر مولانا حديثنا عن الناموس؟

هزّ «إور» عمامته علامة الإيجاب فأضاف «إليلي»:

- إذا قررتم فأرجو ألاّ تقرّروا ما لا يقرّه الناموس.

تساءل كبير القوم بصوت كبير القوم:

- هل تقف وصايا الناموس حجر عثرة في سبيل مَنْ قرّر أن يتولّى الدفاع عن النفس؟

- الناموس لن يقف حجر عثرة إذا تبيّنت البيّنة.

- ها نحن نعود إلى سيرة البيّنة مرّة أخرى.

ـ الناموس من يطلب البيّنات لا نحن.

ـ ولكن ألا يحقّ لكبير القوم أن يخالف الناموس إذا رأى في مخالفة الناموس خلاص القوم؟

علت في الجمع همهمة. تناطحت في المجلس عمامات. تقاربت أجساد. رطنت ألسن خفيةً. تكلّمت ألسن بالاستنكار جهاراً. حتّى الأبله انكمش في الزاوية وطأطأ خجلاً في حين لوّح البطل بكفّه التي تشبه خفّ البعير في الهواء استياءً. أعقب الهرج صمت مشحون.

تساءل العرّاف بحزن:

ـ هل يدري مولانا ما معنى أن نخالف الناموس ونحن ندري أنّنا نخالف الناموس؟

لم يجب «إور» فتكلّم «إليلي» نيابةً عن العرّاف:

ـ هذا يسمّى في لغة الأجيال جوراً!

٦ ـ القــول

في طريق العودة إلى الديار سار العرّاف برفقة الحكيم. سلكا السبيل الغربي الذي يخترق أشجار النخيل قبل أن ينحرف جنوباً ليؤدّي إلى البيوت. سارا مسافة صامتين. وقبل أن يبلغا دغيلات النخل تساءل «يزّال»:

ـ في إصرار «إور» على الاقتصاص من «إسان» سرّ.

سكت «إليلي» فحثّه الرفيق:

ـ لقد قرأت النبوءة في نظرتكما، فلا تنكر!

تضاحك الحكيم قبل أن يعترف:

ـ حتّى لو شئت أن أخفي سرّاً فلن أخفيه على العرّاف: أسرّ لي «إور» بودّ بينهما قديم.

ـ ودّ؟!

ـ إذا لم يرق لك أن تسمّي ذلك ودّاً فسمّه ثأراً!

ـ هل هو ثأر حقّاً؟

ـ ماذ يمكن أن نسمّي طعنة نتلقّاها جزاء الإحسان إن لم يكن ذلك بلغة الدهاء ثأراً؟

ـ فهمت..

ـ صاحب الأتان أنقذ «إور» من الوباء يوم وجده في الخباء وحيداً بعد أن هجرته القبيلة.

ـ آه. فهمت. لا يجب أن ننقذ من لم يرَ الخفاء إنقاذه أبداً.

ـ أنقذه بأخلاط الأعشاب..

ـ هل قلت: الأعشاب؟

ـ استدرجني «إور» منذ أيام ليعرف عمّا إذا كان عمل صاحب الإحسان بالأمس كافياً لكي ينقلب ضدّه اليوم برهاناً.

ـ وبِمَ أجبته؟

ـ أجبته بما يجب أن أجيب. قلت له: إن الأمر يحتاج إلى شهود.

سكت العرّاف زمناً. تجنّب عرجون بلح يعترض السبيل.
قال بيقين:

- لو سألني لقلت له: إن الدليل لن يستقيم حتّى لو شهد في الأمر شاهد!

- الحقّ أن شكّاً آخر ساورني.

- أفصح..

- الوسوسة تقول إن في الأمر سرّ آخر.

- الوسوسة أقوى من الأدلّة أحياناً. الوسوسة أحياناً نبوءة.

- لا ينتقم الرجل من الرجل بسبب نكران الإحسان وحده.

- ماذا تريد أن تقول؟

- لا ينعدم الترياق لعداوة بين رجل ورجل إلاّ إذا كان في الأمر امرأة!

- كنت على يقين أنك ستقول ذلك.

- لن تكون عرّافاً لو لم تعتقد ذلك.

- ولكن هل يرجع العهد بالمرأة إلى أعوام الهجرة في الصحراء أم إلى..

قاطعه الحكيم:

- «تاهلا» أسرّت لي باستياء «تامنوكالت».

- استياء القرينة بداية تدبير للمكيدة.

ـ كلّ الشقيقات نلن بتمائم الغريب أجنّةً، ولكن «تامنوكالت» لم تحبل.

ـ لم أسمع هذا إلاّ منك.

ـ ألم تخبرك «تدّيكت» حقّاً؟

ـ كلاّ!

ـ لن تكون المرأة قرينة عرّاف إن لم تتهيّب جناب العرّاف.

ـ دعك الآن من سير النساء ونحن معي: هل تظنّ أن «إور» سيجرؤ على انتهاك الناموس؟

سكت الحكيم مسافة قبل أن يجيب:

ـ مجازفة أن نتنبأ بمسلك إنسان نال على الناس سلطاناً، ولكني أشكّ برغم ذلك أنْ يجرؤ على ارتكاب هذه الخطيئة.

ـ ولكن الرغبة في الانتقام أقوى من الوباء.

ـ لو كنت مكانه ماذا تفعل؟

سكت العرّاف طويلاً قبل أن يجيب:

ـ سألجأ إلى المكيدة!

هتف الحكيم مازحاً:

ـ القول في فم العرّاف نبوءة!

٧ ـ التّمائم

استحمّ «إسان» في العين، وطرح مسحوق الصرّة المدسوسة تحت الإبط في الماء، وخرج إلى الخلوة الرملية المطلّة على الحقول

بعد أن ارتدى ثيابه. فقد اعتاد في الأزمان الأخيرة أن يختلي بنفسه في الشطوط الرملية الجنوبية كلّما فرغ من مراسم الاستحمام التي اتخذها عادةً تهبه لذّةً وتضمن له زرع تمائمه المريبة خفيةً في الماء ذرّاً للرماد في عيون الجواسيس.

يومها أقبل عليه في خلوته كبير التّجار الذي لم يره منذ أمد طويل. صاح في البُعْد مازحاً:

ـ ظننت أن الناس تنزل الواحات طلباً للاجتماع لا للخلوة!

فأجابه مازحاً أيضاً:

ـ وأنا ظننت أن الخلوة الأقسى هي خلوتنا بين الناس لا خلوتنا في رحاب الصحراء.

ـ أعيتني الحيلة في لقائك.

ـ لا بدّ أن تعييك الحيلة للقائي لأني لا أتخلّ عن ناموسي في العبور حتى وأنا أهجع بين الأهالي في الواحات!

غرق في ضحكته الغريبة، ولكنه كتمها فجأة ليقول:

ـ لم أكن لأرجم الحياة في الواحات بحجارتي لو لم تذهب حياة الواحات بالوصايا.

تربّع «آمجار» على الفرشة الرملية البتول. سرح ببصره إلى الأسفل حيث تمتد الخلوة الرملية الذهبية، ثم تختنق فجأة لتستلقي في حضيضها فرشة الزروع الخضراء المتوّجة بقمم أشجار النخيل التي تتطاول في الأعالي باستكبار.

حرّر رجليه من النعلين. دفعهما في أحشاء الرمل كما تُحشا قطعة العجين في الملّة. تنهّد بارتياح من انزاح عن منكبيه عبء الدنيا قبل أن يقول:

ـ الوصايا سوف تذهب في كل الأحوال شئنا أم أبينا. لأنّنا إن استطعنا أن نأمنها من النسيان، فإننا لن نستطيع أن نأمنها من الزمان.

ـ الزمان! الزمان! لو خيّرتُ لاخترت الذهاب مع الوصايا يوم يقرّر الزمان أن يمحو من عقلي الوصايا.

ـ ولكن أصدقني القول: هل يبرّر عشقنا للوصايا استخدامنا القوّة في تغيير أمرٍ اختاره الناس لأنفسهم نعيماً؟

التفت فالتقت نظراتهما. تبادلا النظر طويلاً. أشاح «إسان» أوّلاً. سرح في الخلاء بعيداً. قال:

ـ أعلم أن ليس من حقّ أحد أن يختار عن أحدٍ آخر. ولكن ليس من حقّ أحد أيضاً أن يحرّم على أحدٍ آخر أن يجاهر بالحقيقة.

ـ هل تبيح الحقيقة استخدام القوّة؟

التفت إليه الجليس بغتة ليجيبه على سؤاله بسؤال:

ـ ماذا تظنّ أنت؟

ـ أردت أن أقول: هل من حقّنا إنقاذ إنسان قرّر أن يموت؟

أجاب الجليس بلا تردّد:

ـ بلى. من حقّنا.

ـ ألا نجني بذلك عليه؟

ـ قد نجني بذلك على أنفسنا، ولكنّا لا نجني عليه.

ـ هذا ما أردت أن أسمعه.

ـ أفصح!

تطلّع إلى الجليس. التقت نظراتهما مرّة أخرى. قال كبير التجّار بلهجة ذات معنى:

ـ لقد جنيت على نفسك حقّاً يوم أنقذت من هجره أهله!

ـ لم أندم على ذلك يوماً.

ـ شجاعة أن تفعل، وشجاعة أكبر ألاّ تندم، ولكن لا يجب أن تنسى أن ثمن الإحسان نكران!

في عين الداهية لاحت ابتسامة غامضة، فأضاف الجليس:

ـ لم تكتفِ بعمل الإحسان، ولكنك ارتكبت خطأ أفدح عندما منعتَ قرينة الرجل تميمة الأجنّة.

ـ لم أبخل على بنات الماء بتمائمي، ولكني لا أحيي العظام وهي رميم!

ـ هل تريد أن تقول..

ـ إذا لم تحبل امرأته بعد أن استودعتها تميمتي فاعلم أنها عاقر. بلى. «تامنوكالت» امرأة عاقر، فهل هذه خطيئتي؟

سكت فعمّ سكون. في جهة الغرب نعق غراب.

الجـــزء الثـــالـــث

القسم الأول (البلبلة)

١ ـ الخفاء

لم يكف «إور» عن ملاحقة الأبله بعينيه. يحاول أن يقتنص الإيماء في مقلتيه كلّما انحسر لثام جليسه عن شفتيه، فيبدو «إدهي» أكثر ضياعاً وشقوة. ولكنه يرفع طرف اللثام ليداري العورة التي رآها الناموس في الشفتين في كلّ مرّة. يختلس النظر إلى كبير القوم بين الحين والحين كأنه يريد أن يبوح له بسرّ، ولكنه لا يلبث أن يحجم ويفرّ بعينيه بعيداً.

استمرّت لعبة الكرّ والفرّ زمناً قبل أن ينطلق لسان الأبله بسؤال:

ـ ولكن من هو «إسان» هذا؟

شيّع إلى وليّ الأمر نظرة بائسة. ولكن «إور» تهرّب من المواجهة. قال وهو يسرح بعيداً:

ـ لا أحد يعلم.

الأبله لم يقتنع. طافت في مقلتيه شكوك جليّة. ابتسم بغموض. سأل:

ـ يخرق الصحراء منذ أزمان ولا أحد يعلم؟

أجاب «إور» ببرود:

ـ لم يعرف له أحد لا أب ولا أم.

ـ لا أستطيع أن أصدّق.

ـ لماذا لا تستطيع أن تصدّق؟ جلّ أهل الصحراء خليقة مجهولة لم يعرف لها أحد نسباً.

ـ يُقال إن في قلبه يحيا الخصم القديم الذي طرده سلطان البستان من دياره عقاباً له على تحالفه مع الشقيّ «مندام» فهل هذا صحيح؟

ابتسم وليّ الأمر. طاف الخلاء الذي يطوّق أشجار النخيل جنوب الواحة. قال:

ـ هذا ما يقوله الرواة.

ساد صمت. زعزع السكون نهيق حمار أو أتان. تشاءم «إور» فتمتم بتعويذة. عاد الأبله يتساءل:

ـ ولكن من أين له العلم بسرّ الأعشاب يا ترى؟

تشبّث «إور» بالخلاء. عَبَر الخلاء إلى الأفق. اجتاز الآفاق إلى الفضاء الأزرق العاري من السحاب. عراء حميم كعراء الصحراء. عراء خفيّ كعراء الصحراء. من دنيا العراء أجاب على سؤال الأبله فسمع الجليس الصوت نبوءة:

ـ وهل يُخفى سرّ الأعشاب على من لم يُخفَ عليه سرّ الخفاء؟

٢ ـ تمريت

هام الأبله. ذهب إلى الحقول. تخفّى وراء شجرة التين ليراقب العين. فوق العين تلاعب الصغار. تراشقوا بأكوام الطين، وتنابزوا بالألقاب، ثم انصرفوا وهم يتصايحون. انتظر في مخبائه. ولكن أحداً لم يرد العين. لا الفلاّحون، ولا بنات الماء، ولا داهية الأعشاب المريبة. أنصت لبقبقة النبع زمناً ثم فزّ من معقله وانطلق. تسلّق السيوف الرملية. تطاول في الحزام الرملي الذي يطوّق الواحة من الجنوب. تسكّع زمناً. هجع زمناً. تنزّل أخيراً. غيّبته أدغال النخيل. وعندما تحرّر وجد نفسه في الخلوة المؤدية إلى رابية السفح المفروشة بمقابر الأوّلين. صعد الرابية. داس الأجداث ودحرج الجماجم قبل أن يتوقّف عند خرائب الضريح التي اتخذها الدخيل مقاماً. هناك تسمّع ولكنه لم يسمع. انطلق من جديد. عبر بيوت الطين في الشمال. انحرف يميناً. دخل طريقاً تتخلّله بيوت بُنيت حديثاً. توقّف عند بيت مرشوش بالجير، تعتلي هامته علامة مجسّمة للربّة «تانيت». قرع باباً مرصوصاً من جذوع النخيل موسّم بعلامة للربّة في مثلث نحاس. انفتح الباب فتبدّت الحسناء. ابتسمت. تنحّت. ولكن الزائر لم يدخل. قال بلا تمهيد:

ـ حدثتني الألسن فقالت: إن بنات الماء وقعن في غرام صاحب الدهاء!

تضاحكت. شدّت لحافها حول وجهها دون أن تتخلّى عن الباب. قالت باستخفاف كأنها تحاكي لهجة الأبله:

ـ بنات الماء لسن سوى نساء. والنساء لا يقعن إلاّ في غرام

من يثير فيهنّ الفضول. ولا يثير الفضول في قلوب النساء إلاّ الغرباء أو أصحاب الدهاء!

تأمّلها طويلاً. في مقلته ازداد الحَوَل. من فمه الذي انحسر عنه اللثام تدلّى خيط لعاب. تمتم كمن يخاطب نفسه:

ـ هزل المرأة جِدّ، وجِدّ المرأة هَزَل. حقّاً ما يقال!

تضاحكت بإغواء مرّة أخرى. قالت:

ـ أضف إلى القول قول آخر: لا تستخفّ المرأة بمن تحبّ!

استفهم بإيماءة فأضافت:

ـ إذا استهزأت المرأة بمن تحبّ فقد وقعت في حبّ رجل آخر!

في مقلة الأبله تجلّى وجع. في لعاب الأبله تألّق وميض. في لسانه جرى سؤال:

ـ أفهم أن تهرع الشقيقات إلى أحضان اللئيم لأن شوقهن إلى الولد غلب. ولكن لا أفهم أن تهرعي أنت..

قاطعته بجفاء:

ـ الشقيقات لم يهرعن إلى أحضان اللئيم. الشقيقات هرعن إلى صاحب الدهاء لنيل التمائم.

ـ أعرف هذه التمائم..

حدجته بغضب فأضاف:

ـ تستطيع الشقيقات أن تخفي حقيقة التمائم المزعومة عن الواحة، عن الخلق، عن الأقران، ولكنكن لن تفلحن في إخفاء حقيقة التمائم عن الأبله!

ـ إذا هزّ المرأة الشوق إلى الولد فإنها تطلب الولد أينما وُجد الولد. تطلب الولد حتى لو كان في أحضان اللئيم لأن المرأة ليست امرأة بدون ولد.

همّ بأن يتكلّم ولكنها أوصدت في وجهه الباب الثقيل الملفّق من شرائح مستقطعة من جذوع النخيل.

٣ ـ النصيب

أقبل «آمجار» على «إسان» حاملاً في اليد اليمنى بشارة، وفي اليد اليسرى رسالة. وقف في مدخل الضريح مع حلول المساء. تريّث ليلتقط أنفاساً. تكلّم أخيراً:

ـ في بيتي أخيراً صرخة بشارة!

دعاه «إسان» إلى الجلوس. تساءل بلا مبالاة:

ـ وليد أم وليدة؟

هتف كبير التجّار:

ـ وليد!

جلس «آمجار» وهو ما يزال يلهث في حين تساءل الداهية:

ـ هل سددتُ اليوم لك الدَّيْن؟

ـ الدَّيْن؟

ـ هل نسيت؟ لقد نلت منك مؤونة لأتاني وقوتاً لنفسي مقابل البشارة!

أطلق كبير التجّار ضحكة. قال بمرح:

ـ في بيوت مَنْ لم تنل منهم السّلع أيضاً بشائر.

ـ حقّاً؟

ـ في بيت البطل وليدة.

هتف «إسان»:

ـ تامولي؟

هزّ «آمجار» رأسه إيجاباً. أضاف بعد صمت:

ـ في بيت الحكيم أيضاً.

.تساءل «إسان»:

ـ «تاهلا»؟

أومأ «آمجار» برأسه علامة الإيجاب. سكت لحظة ثم أضاف:

ـ العرّاف أيضاً سينال بشارته قريباً.

ـ «تذّيكت»؟

أومأ «آمجار» بالإيجاب. تساءل الداهية:

ـ ولكن في بيت «إور» النواح بدل البشارة!

ـ يحزنني أن أؤكّد هذا.

سكتنا زمناً. قال كبير التجّار:

ـ في قلب الأبله أيضاً نواح.

استفهم «إسان»:

ـ «تمريت»؟

ساد وجوم. حدج «آمجار» جليسه من وراء القناع. قال بلهجة ذات معنى:

ـ هل من أمل؟

حدجه الجليس أيضاً. تبادلا نظرة خاطفة. قال الداهية:

ـ ما حاجة البلهاء إلى أبناء؟

تبسّم صاحب التجارة. قال مازحاً:

ـ حتّى البلهاء لا يستطيعون أن يحيوا بلا أبناء.

ـ ولكن «تمريت» للأبله ليست قرينة.

ـ إنّها للأبله معشوقة.

ـ لو أبحنا للعاشق أن ينجب من بطن المعشوقة ذرّيةً دون قران لأنزلنا بالناموس الخلل.

ـ ولكن الناموس كما تعلم هو الذي حرّم على البلهاء أن يقترنوا بالنساء.

ـ إذا كان الأبله يعترف على الملأ بأنه أبله، وإذا كان

الناموس لا يجيز لأبله أن يقترن بحسناء، فبأي حقّ تريدني أن أصنع لهذا الشقيّ في بطن سليلة الماء ابناً؟

سكت الزائر. ساد المساء. ساد مع سيادة المساء السكون. في البُعْد تنادت الجنادب. قال الضيف:

- الحقّ أني أتيتك من القوم برسالة إلى جانب البشارة.

- أفصح!

- بعد أن شهدت البيوت البشارة لم يبق لرجال الواحة إلاّ اليقين.

- ها - ها..

- إنهم يريدون نصيبهم من التمائم.

حشرج صاحب الأتان بضحكة. جعجعة لئيمة، طويلة، مكتومة. ابتلعها أخيراً ليقول:

- أخشى أن يكون الأوان قد فات!

تساءل «آمجار» بدهشة:

- ماذا تريد أن تقول؟

أجاب الداهية ببرود:

- التمائم أيضاً تنفد كما تنفد السّلع، كما ينفد كلّ شيء في دنيانا!

- ولكن.. ولكن العقم صار في الواحة وباء، وبطون النساء خاوية..

قاطعه الداهية بصرامة:

- إذا غاب الدواء فلا حيلة لدفع الدّاء!

- ولكن الواحة..

- لا حيلة!

٤ - الوصيّة

في أعطاف صاحب التجارة دائماً أنباء. ويبدو أن التجّار يحملون في ألسنتهم الأنباء كما يحملون على ظهور دوابهم البضائع. صاحب التجارة حمل إليه اليوم نبأً جديداً عندما قابله في السوق. قال باقتضاب شديد:

- إنّهم يهاجرون!

استفهم بإيماءة فأوضح:

- الأهالي. هجرت الواحة اليوم قافلة كاملة.

- مرحى! مرحى!

- قالوا: إن الحياة في أرض بلا ماء أهون من الحياة في أرض فسد فيها الماء.

- سمعت العرّاف «يزّال» يردّد قولاً كهذا يوماً، فمرحى، ثم مرحى!

- سمعت أحدهم يقول: إن الماء إذا فسد فهو سُمّ مميت، ولكن صحراء بلا ماء قد تجود بالماء.

- تجود بالماء دوماً. الصحراء لم تبخل على الأوفياء بالماء يوماً. والدليل أننا لم نسمع بعابر قتله الظمأ إلاّ إذا كان الظمأ قصاصاً على ذنب لا نعلمه أو تخليا من العابر عن السبيل.

في عينيه لاح مرح طفولي. أمّا قلب صاحب التجارة فقد وسوس بظنّ يقول: «لم يبق لك، أيّها الداهية، إلاّ أن تفرّك يديك ابتهاجاً!». ولكنه كتم ظنّه وقفز إلى أمر آخر:

- الحقّ أنّي لم أدفع لك بشارة الهجرة إلاّ لأقايضها بأمر آخر.

- الصفقة ناموس الدنيا أيضاً لا التجارة وحدها.

- يروق لي أن أسمع هذا.

- أفصح!

- الأمر يتعلّق بمعشوقة الأبله.

- ها - ها.. ألم أقل لك أن البلهاء ليسوا في حاجة لأن يأتوا إلى دنيانا بالأبناء؟

- بلى.

- هل تعلم لماذا؟

- كلاّ.

- لأن البلهاء لم يولدوا من آباء. لأن البلهاء أبناء بلا آباء. هيء - هيء - هيء..

حشرج بضحكته المميتة طويلاً، وعندما توقّف مسح دموعاً قبل أن يضيف:

- ألا يقول أبلهكم هذا أن أباه ليس في الأرض ولكنه في السماء عكس كل الأبناء؟

- بلى.

- وبرغم كل شيء فإن أحبّ شيء لي في واحتكم هذه أبلهكم هذا. فلماذا تريدني أن أضع في رقبته القيد وآتي له من فتاته بالذريّة؟

- الحقّ أن الفتاة من يريد لا الأبله!

- هل بعثت بك إليّ رسولاً؟

- تستطيع أن تقول ذلك.

- ما معنى «تستطيع أن تقول ذلك»؟

- معنى ذلك أن شقيقتها هي من حمّلني بالوصية.

- تفران؟

- بلى.

- تلك جنيّة فاقت كل الجنيّات جنوناً. ولكن.. ولكني لن أستطيع أن أخالف الناموس في كل الأحوال.

- الناموس يستطيع أن يجد مخرجاً دائماً. الناموس ترياق الأشقياء دائماً.

- أخشى أن يصيب تمائمي مكروه إذا زرعتُ جنيناً في بطن امرأة بلا قرين!

تحصّن بالصمت. رمق رفيقه خلسة. قال بغموض:

ـ حتّى لو أذن الناموس فإن التمائم لن تأذن.

ـ لن تأذن؟

ـ ألم أحدّثك بنفاد التمائم؟

ـ ظننت أن وجار الضبع لن يخلو من العظام!

ـ ألا تظنّ أنك تخطىء بهذا الظنّ؟

صاحب التجارة لم يجب، ولكنه قال بعد صمت:

ـ خسارة تلك التمائم التي ذهبت هباءً.

استفهم الداهية بالتفاتة فأوضح التاجر:

ـ تامنوكالت!

أشاح الداهية ببصره جانباً. قال باستعلاء:

ـ التمائم الضائعة دائماً خسارة!

٥ ـ المكــان

بعد اكتمال المساء حلّ بباب دهليزه الضيف الذي انتظره طويلاً. وقف في المدخل كشبح من أشباح الجنّ. لم ينبس بالتحية. لم يومىء بإشارة. لم يحتكم إلى وصايا الناموس الضائع كي يبرّر وقفته الكئيبة كما يفعل الأكابر. انتصب بين حجارة المقبرة القديمة وحيداً، معزولاً، مهجوراً كسليل عنيد انفصل عن قافلة عبور.

لم يتحرّك أيضاً. لم يهرع لنجدته. لم يحرّك ساكناً لتيسير أمره. بل مضى يتربّع في مدخل قبوه. يرقب الخلوة، ويتجسّس على الخفاء في السكون كما تعلّم أن يفعل في رحلاته الأبدية عبر الصحراء الأبدية. ولكن الشبح تكلّم أخيراً. سمعه يقول بوضوح أهل الاستكبار إذا تلقّوا إهانة:

ـ لم آتِ لا استجداء لمصالحة ولا طلباً لهدنة. جئت كي أقول لك الكلمة التي لم تمكنّي البلبلة من أن أقولها لك يوماً.

ـ يسعدني أن أسمع من كبير القوم «إور» اعترافاً بوجود كلمة اسمها البلبلة.

ـ كيف لا أعترف بالبلبلة إذا كانت حياتنا من بدايتها إلى نهايتها ليست سوى بلبلة في بلبلة؟

حاججه دون أن يتحرّك أو يتململ:

ـ البلبلة بدعة في ألسنة أهل الواحات. في لسان أهل الصحراء لا وجود لكلمة بلبلة.

ـ الحقّ أني لم أقبل لأجادلك في البلبة ولكن لاستفهم عن اليقين؟

حدّثه بلهجة لا تخلو من استنكار:

ـ تستفهم عن اليقين؟

ـ عن العبور.

ـ ها ـ ها.. لقد تكلمنا عن العبور كما لم نتكلّم عن أي شيء في دنيا العبور هذه!

ـ أردت أن أقول لك: إن الصحراء هي التي هجرتنا ولسنا نحن من هجر الصحراء.

ـ الصحراء لم تهجر أحداً يوماً.

ـ الصحراء تهجرنا عندما تبخل علينا بمائها.

ـ هذه حجّة الدّهماء. الكلّ يتحدّث عن بخل الصحراء بالماء كلّما احتاج أحد مّا إلى ذريعة يبرّر بها خيانته لناموس الصحراء. وبرغم هذا كلّه لم أسمع بمخلوق مات فيها لا جوعاً ولا عطشاً باستثناء تلك الفئة الشقيّة التي سوّلت لها نفسها أن تخالف أعرافها.

ـ لن نتفق أبداً ما دمت ترى خلاصاً بعبور المكان.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول: إن علّة شقوتك في يقينك بوجود «واو» في المكان.

ـ هذا ما لم أقله باللسان.

ـ وصيّتك كلّها مشيّدة على هذا اليقين.

ـ هل تريد أن تقنعني بخرافة العبور بالقلب التي سمعت سيرتها من لسان مريدك الأبله؟

ـ العبور بالقلب أهون من العبور بالبدن. العبور بالقلب أعظم شأناً من العبور بالبدن. هذا يقين.

ـ لا نعبر الصحراء بالقلب إن لم نعبرها بالجسد. الهجرة

بالقلب بدعة البلهاء. ولو كنّا نركن للمكان دون أن يفترسنا المكان لهان الأمر. ولكن المكان الذي نلتجىء إليه فراراً من البلبال أو إرواءً للحنين لا بدّ أن ينهش من قلوبنا نصيباً. بل ربما نهش القلب كلّه. ونحن لا نملك إلاّ قلباً واحداً، صغيراً، هشّا!

- أريد أن أقول وصيّة واحدة: شقيّ من بحث عن الخلاص في المكان.

- ها - ها.. أظنني سمعت هذه الوصية من قبل. هل استعرتها من فم مريدك الأبله أيضاً؟

- شقيّ من طلب «واو» في المكان. لن أملّ من تكرار هذه التعويذة حتّى لو استنكرها داهية الأجيال!

حشرج الداهية بضحكته المريبة فجأة. ابتلعها فجأة أيضاً. قال بحزن مفاجىء:

- لا تحسبنّ تلبية نداء العبور أمراً هيّناً. من يستطيع أن ينادي بيسر الترحال إذا كان هذا البدن الكريه الذي لا نملك سواه يشدّنا إلى المكان بألف وتد؟

- يروق لي أن أسمعك تقترب من الحقيقة.

- ولكن عسر الأمر لم يبرّر التسليم يوماً، لأنك تعلم وصية الناموس التي تقول: إنّنا لا يجب أن نفعل إلاّ ما استعسر علينا أن نفعل، وكما أن الأمر إذا استعسر فتلك علامة نبل الأمر كما يقول الأوائل، كذلك فإن الأمر الأنبل هو الأمر الأعسر أيضاً.

- ها أنت تذهب بعيداً مرّة أخرى. لماذا لا تجيبني على

سؤال: هل الحقيقة في المكان، أم في مكان آخر خارج المكان؟

- ها - ها.. ما كان يجب أن تسألني هذا السؤال.

- لماذا؟

- لأن الجواب عليه بالنفي خطأ، والجواب عليه بالإيجاب خطأ آخر.

- لا سؤال يعجز صاحب الدهاء.

- لو أجاب صاحب الدهاء على كل سؤال لوقع في الأشراك ولفقد لقب الدّهاء.

- تستطيع أن تعدّ سؤالي أحجية من الأحاجي.

- أعرف أن القلب سرّ المكان، كما أعرف أن المكان قناع القلب. فهل هذا يكفي؟

- هل هذه أحجية أخرى؟

- لا جواب على الأحجية إلاّ بالأحجية، كما لا يفكّ الطلسم إلاّ الطلسم.

- لن نصل إلى وفاق بدون إيضاح.

- حسناً. كيف يكون المكان مستودع الحقيقة إذا كان المكان للقلب مجرّد وعاء؟

- هذا يروق لي.

- وكيف تجد الحقيقة خارج المكان لنفسها مستقرّاً إذا كان

خارج المكان ليس سوى خواء في خواء؟

- أستطيع أن أفهم هذا أيضاً.

- لا يبقى لنا في النهاية إلاّ نحتضن حقيقتنا في قلوبنا ونفرّ بها بعيداً عبر الخلاء.

- لا يضيرنا أن نحتفظ بحقيقتنا أينما حللنا ما دام مكانها في قلوبنا لا في المكان.

- ولكن لون الوعاء من لون الإناء فاحترس!

- لا أفهم.

- حقيقة في قلب جسد يركن للمكان كتمرةٍ في قاع بئر آسن: قَدَرها العطب عاجلاً أم آجلاً.

سكت الشبح. سكت طويلاً. قال:

- هل هذا فراق؟

أجاب الداهية في الحال:

- فراقنا ليس سليل اليوم. فراقنا بدأ منذ ذلك اليوم الذي أحييتُ فيه عظامك وهي بسبب الوباء رميم!

- ماذا تريد بهذا القول؟

- أردت أن أقول: إن نكران الإحسان هو ما يدفعنا إلى الانتقام دائماً.

- أستطيع أن أجاريك في هذا الظنّ الظالم بسؤال: أليس

إحياء من أرادت لهم الأقدار الموت خطيئة في شرع الناموس؟

ـ إحياء الأموات خطيئة، ولكن إنقاذ من أشرف على الهلاك في رقبة الأخيار دين.

ـ أنت لم تعلم أنّي لم أشرف على الهلاك يومها. أنت لم تعلم أنّي اجتزت البرزخ يومها. فلماذا أحييتني بعد هلاك؟

ـ أنجزتُ دَيْناً لن أندم عليه أبداً.

ـ لماذا أهلكتني بعد أن أراحتني الأقدار؟

لم يجب الداهية. مضى يحدّق في الظلمة مولياً ظهره للشبح المنتصب فوق رأسه. سمع زفير الشبح. سمع أنفاسه. لهاثه. دقّات قلبه. يقينه. لهفته. صوته المكتوم كحشرجة الحيّة:

ـ أحياني الخفاء يوم نفاني، وقتلتني يوم أنقذتني، فلماذا؟ لماذا؟

تململ في جلسته لأوّل مرّة. هبّ واقفاً. خطا نحو قرينه القديم خطوة. خطا خطوتين. اقترب حتى كاد يدهمه بصدره. حتّى لامسه بعمامته. نفث في وجهه أنفاساً حارّة قبل أن يلقي في وجهه بنبوءته:

ـ ألم تعلم أنّي لا أميت إلاّ مَنْ أحببت، ولا أحيي إلاّ من كرهت؟

القسم الثاني (القربان)

١ - المِسْخ

عندما تسلّل «إدهي» إلى الدهليز في الهزيع الأخير من الليل كان القمر الآفل ما زال يسكب ضياءه الشاحب على الخلوة الكئيبة الملاصقة لقدم الجبل. تبينّ عتبات القبو المؤدية إلى الأسفل بعسر بسبب شحوب الضوء. ولكنه استعاد وضوح الرؤية في المسافة التالية عندما وجد نفسه في دار يتسلّل إليها الضوء من كوّة عالية. أغمض عينيه. حبس أنفاسه. تسمّع بأذنيه. سمع هسيس أنفاس اللئيم كفحيح الأفعى. الداهية! لأنفاسه صوت الأفعى. لضحكته صوت الأفعى. لمسلكه مسلك الأفعى. لدهائه دهاء الأفعى. لم يخطىء عقلاء القبائل عندما أطلقوا عليه لقب الداهية، كما لم يخطىء العقلاء الذين سبقوهم عندما أطلقوا على الأفعى لقب الداهية أيضاً. فكلاهما ملفّق من نفس الطينة، ومستعار من ذات السلالة، ولن تهنأ سلالة الصحراء ما لم تستأصلهما بمدية الأسحار هذه. تحسّس المدية في كمّه. فتح عينيه فازداد المكان وضوحاً. سحب نفساً عميقاً. تأمّل الركن حيث يتكوّم الداهية حاسر

الرأس. أذناه كبيرتان كأذني أتان. يا ربّة الصحراء «تانيت» ما أكبر أذناه! ما أبشع أذناه. لقد حدّثته «تمريت» عن هاتين الأذنين المريبتين فلم يصدّق. تعلّقه بالأتان الكريهة لم يكن عبثاً. في استبداله بالبعير أتاناً يكمن سرّ لن يرتاب فيه من رأى هاتين الأذنين. ها ـ ها.. ها! ها هو الشرّير يستلقي عند قدميه. ها هو صاحب الكيد يسترخي بالجوار، يغرق في أحلامه المريبة. يدبّر المكائد حتى في هجعته. لا يكنّ عن العمل حتى في منامه. الوغد! الوغد! ولكن مدية السحر هذه سوف تضع حدّاً لعمله. لأحلامه. لمكائده. لشرّه. سوف تنجو الصحراء بهلاكه. سوف تنجو الواحة أوّلاً. وسوف تنجو الصحراء أيضاً. سوف تكون النجاة على يديه. لقد نبّه القوم إلى ضرورة نحر الوغد منذ أوّل يوم نزل فيه الديار. ولكن القوم تلكّأوا. القوم كعادتهم احتكموا إلى الجدل وتركوا الجِدّ. الأقوام تؤثر الجدل دائماً على العمل. الأقوام تحيا بالجدال لا بالأعمال. ولهذا السبب تهلك الأقوام دوماً بسبب الإفراط في الجدل على حساب الفعل. ولكن تولّى الأمر. قرّر أن يتولّى الأمر منذ أمد. قرّر أن يتولى الأمر خفيةً. ولم يحدس نواياه سوى الداهية «إور». لقد حاول أن يستدرجه إلى الاعتراف مرّة ولكنه تخلّص. وحاول مرّة ثانية فتجاهل الإيماء. ولكن «إور» يعرف. وهو يعرف أنه يعرف. كما يعرف «إور» نفسه أنه يعرف بأنه هو أيضاً يعرف. ولكن أنبل الأمر هو الأمر الذي يُعرف دون أن يجري على عضلة اللسان. ما يُعرف ويُقال دائماً دنس في دنس. الأنبل هو ما يُخفى حتى لو عُرف. لقد ذهب ليقطع الطريق على القوافل. هناك اهتدى إلى أحد سحرة الأدغال. حدّثه

بحقيقة الداهية فعرف منه أن اللئيم لا يهلك ككل الخلق بأيّ سلاح. أخرج له من كمّه مديةً بديعة موشّمة المقبض بأحافير خفيّة قال له إنها الوحيدة التي تستطيع أن تسيّل دم الدهاة. دفع له ثمن المدية صرّة من ملح «مجزّان» النفيس. وها هي الآن بين يديه. في كفّه. مقبضها في قبضته. ولسانها يلتمع في الضوء الكئيب المنبعث من الكوّة. لسانها شره كلسان الحيّة. يومىء كلسان الحيّة. وسمومها كسموم الحيّة. لأن الداهية حيّة. والمدية حيّة. ولا يميت الحيّة إلاّ الحيّة.

هوى بالمدية على الصدر. غاصت المدية في الصدر بيسر مريب. غاصت في الصدر كأنها تغوص في كوم من تراب، أو في كيس محشوّ بالصوف. نزعها فخرجت دامية. اشتمّ رائحة غريبة. ورأى خضاب الدم يغمر نصل المدية. حشرج الداهية بأنين مكتوم. انتفض كأرنب وديع، فهوى بالنصل على النحر هذه المرّة فأطلق آهة موجعة. انتفض بعنف وتقلّب في الفراش.

كافح ليتحرّر. رقد على ظهره وهو يحشرج. يحشرج. يحشرج. الحشرجة انقلبت فحيحاً. انقلبت فحيحاً حقيقاً طويلاً تقشعرّ له الأبدان. تلبّست بدنه قشعريرة لم يعرفها وهو ينتظر أن يكف البدن عن الفحيح القبيح. ولكن الفحيح تعالى. أبصر في البدن تحوّلاً مريباً. اكتسى لوناً باهتاً فجأة. اكتسحه شعر أشعث أيضاً. تبدّى أخيراً ثعباناً هائلاً يتلوّى ويتشكّى بفحيحه الفظيع. همّ بأن يقفز خارج القبو، ولكن.. ولكن تحوّلاً آخر استوقفه. بدأ الثعبان ينقشع. بدأ يتلاشى كما يتلاشى السراب. الفحيح أيضاً

اختنق وبدأ يخفت حتّى انطفأ. ساعتها.. ساعتها لم يصدّق ما رأى. زال الأفعوان الذي كان يتلبّس الجسد وحلّ في المكان جسد آخر. جسد استنكر أن يراه في ذلك المكان. جسد لم يصدّق أنه يستطيع أن يطيق أن يصيبه الريح بسوء فكيف بطعنة من مدية الأسحار؟ كان الجسد الذي يخوض أمام عينيه في بركة الدّم جسد «تمريت» وليس جسد الداهية، ولا جسد الأفعوان.

٢ ـ المرثية

ساق الأعوان إلى مجلس العقلاء الأبله مقيّداً بحبال المَسَد. في عينيه مسّ. في شفتيه زَبَد. في لسانه عبارة تتكرّر كتعويذة: «لقد انقشع كما ينقشع السراب. لقد انقشع عنها كما ينقشع السراب..». وقد كرّرها في حضرة المجلس مراراً قبل أن يسكته الحكيم «إليلي» بإشارة من يده. سكت «إدهي» ولكن لهاثه لم يتوقّف. بل ربّما اشتدّ فزفره أنفاساً سخيّة في وجوه الأكابر.

تشاور الرجال بالأبصار. تحصّن «إور» بلثامه الأزرق. سحبه على وجهه حتّى ستر أنفه وعينيه. تهامس «آمجار» مع البطل «إمّار» في الزاوية. تبادل الحكيم مع العرّاف نظرة كئيبة. أومأ «يزّال» بعينيه فتولّى الحكيم الأمر. أشار للأعوان ففكّوا عن الأبله القيد. همّ المسكين أن يعيد تعويذته فاستوقفه الحكيم بإشارة.

بدأ الاستجواب.

تكلّم العرّاف باقتضاب:

ـ هل قتلت الفتاة؟

أجاب الأبله بيقين:

- كلاّ!

- ولكنك خرجت من بيت الغريب حاملاً مدية ملوّثة بالدم، وعندما هرع الخلْق إلى الضريح وجدوا الحسناء قتيلة.

طاف الأبله عيون العقلاء كأنه يبحث عن سند. في مقلتيه ازداد الحَوَل. في مقلتيه شقوة إنسان خذلته العبارة. قال:

- لم أقتل «تمريت». كيف أقتل «تمريت»؟ ولكني.. قتلت الداهية. أقسم بالناموس أني لم أقتل غير الداهية!

- هل تريد أن تقول: إنك أردت أن تقتل الداهية ولكنك قتلت الفتاة بسبب الظلام؟

طاف الأبله العيون مرّة أخرى كأنه يفتّش فيها عن جواب. ولكنه لم يجد في عيون الأكابر سوى الاستفهام فقال:

- كلاّ. لم يكن الظلام سبباً. لقد كان القمر ينير المكان من كوّة عالية. وقد رأيت الداهية ينام حاسر الرأس. في رأسه أذنان كأذني جحش. تستطيعون أن تتأكدوا بأنفسكم. في رأس هذا اللئيم تتدلّى أذنا جحش. ثم..

- ثم ماذا؟

- ثم انقلب ثعباناً عندما طعنته بالمدية..

- ثعباناً؟

سَرَت في الجمع همهمة. ارتفعت أصوات. أطلق البطل

ضحكة. ولكن «إور» لم ينبس ولم يشارك في الجعجعة. صاح الأبله:

- أقسم أنه انقلب ثعباناً فظيعاً قبل أن ينقلب فتاةً..

همهم القوم مرّة أخرى. استنكر الحكيم «إليلي»:

- تارةً تقول: إنه انقلب ثعباناً، وتارةً تقول: إنه انقلب فتاةً!

- في البداية تحوّل ثعباناً، ثم تحوّل فتاةً. رأيت «تمريت» تتخبّط في الدّم فلم أصدّق.

قال العرّاف:

- لماذا لا تعترف بأنك ذهبت إلى بيت صاحب الأتان لتقتل فتاتك انتقاماً؟

- لم أذهب لأقتل الفتاة. ذهبت لأقتل الغريب الذي أنزل بواحتنا الهلاك، ولكنه انقشع كما ينقشع السراب ليحلّ محلّه..

قاطعه العرّاف:

- هل تعترف بأنك ذهبت إلى بيت الغريب لتقتل الغريب؟

بحث الأبله في العيون عن نجدة من جديد. ولكنه لم يجد سوى الإنكار واللامبالاة. استنجد بكبير القوم في الزاوية. ولكن «إور» أخفى عينيه وراء اللثام كأنه قرّر أن يهجر المكان. قال بيأس:

- لا أنكر أني أردت قتل الغريب. لقد قلت لكم أنه يخفي نيّة من أوّل يوم، ولكنكم لم تصدّقوني. لم تصدّقوني حتّى بعد أن

أسقط الأجنّة من بطون النساء بأعشابه المميتة التي رأيته بعيني يلقي بها في ماء العين. بلى. أردت قتل الداهية ولكنه غلبني لأني ظننته داهية وحسب ولم أحسبه ساحراً أيضاً. ولكنني لم أفكر في قتل «تمريت» أبداً..

تبادل العراف مع الحكيم نظرة. تساءل «إيليي»:

- ولكن مَنْ أباح لك قتل الغريب؟

ردّ «إدهي» على الفور:

- وهل عليّ أن أنتظر إذناً من المجلس كي أقتل قاتلاً؟

قال العرّاف:

- لم يقع في أيدينا دليل واحد يؤكّد تهمتك له بالقتل.

- لقد رأيته يطرح بالعشب المريب في الماء.

- حتى لو صدّقناك فإن طرح العشب في المياه يعسر أن يكون دليلاً.

حدّق الأبله في عين العرّاف. حدّق حتى اختفى من مقلتيه السواد. قال بيقين:

- ألا يكفي أن يجاهر الشرّير بدعوته آناء الليل وأطراف النهار دليلاً؟

ثم طأطأ ليضيف بيأس:

- أنتم لا تريدون دليلاً. أنتم تنتظرون الهلاك لا الدليل! لهذا السبب قررت أن أتولى الأمر. ولم أندم على ذلك أبداً.

- هل تعترف بأنك كنت ستقتل الداهية لو لم تقتل الفتاة؟

- يقيناً.

ثم استدرك:

- ولكنه غلبني. لو علمت أنه ساحر لما غلبني!

ساد سكون قبل أن يتشاوروا. تشاوروا همساً. ثم علناً. ثم جدلاً. ثم رفع العرّاف صوته بالوصية التي قال إنه استعارها من الناموس الضائع:

- عين بعين، وسنّ بسنّ، والقاتل إن لم يُقتل أنزل بالناموس الخلل!

كرّرها ثلاث مرات فساد صمت. سمع العقلاء في الوصية حكماً فهالهم القصاص. حاول الحكيم أن يهوّن الأمر فعاد إلى مساءلة المتهم:

- لم تكن البلاهة يوماً شرّاً، ولكن الشرّ هو الجنون. فدعنا من سيرة التحوّل الآن وحدّثنا كما كنت تحدّثنا قديماً يوم كنت حميمنا في هذا المجلس: هل جادلت أحدنا فأشار عليك بالاقتصاص من الغريب دون حكم المجلس؟

تبادل الرجال نظرات ذات معنى. ولكن المتهم لم يشيّع رأسه إلى أحد. طأطأ أرضاً قبل أن يهزّ رأسه بالنفي.

قال الحكيم:

- ولكنّك شوهدت تخرج من بيت وليّ الأمر ليلاً قبل أن

تذهب إلى ضريح الغريب، فهل حدثته بنواياك؟

شيّع المتهم بصراً إلى كبير القوم، ولكن «إور» لم ينبس ولم يكشف عن عينيه فطأطأ مرة أخرى ليقول:

- كـلاّ!

- لماذا؟

- لست ملزماً بأن أحدّث الناس بنواياي.

- هل أنت على يقين؟

حدجه الأبله بوجع ولكنه لم يجب. ساد الصمت طويلاً. قال الحكيم كأنه يقرأ على العقلاء نغياً:

- أحببناك أبلهاً لأن البلاهة يقين، وأنكرناك قاتلاً لأن القتل جنون. كسبناك بالبلاهة لأن في بلاهتك حضورك، وفقدناك بغياب العقل لأن بغياب العقل يغيب الإنسان، فالوداع أيها الحميم القديم، ثم الوداع!

٣ - السيرة

فرغ «إسان» من تناول طعام العشاء، وهمّ بأن يسرح في الخلاء تلبيةً لنداء العبور، ولكن شبحاً اعترض سبيله قبل أن ينطلق فتواجها فوق المرتفع المشيّد من أجداث الأوّلين الذي يعلو بنيان الضريح القديم. تواجها زمناً طويلاً. في النهاية تكلّم كبير القوم:

- ها أنا ذا ألبس الليل لأزور الإنسان الذي أحياني يوماً كراهةً لا حبّاً!

ـ مَنْ من النّاس أحبّ إليك: إنسان يميتك حبّاً، أم إنسان يحييك كراهةً؟

ـ ما أعجزني أن أجيبك على هذه الأحجية!

تنحّى مومئاً له بالجلوس. تربّعا فوق المرتفع مواجهةً. قال صاحب الأتان:

ـ كيف لا يكون السؤال أحجيةً إذا كان كل شيء في هذه الصحراء أحجية: حياتنا أحجية، ومماتنا أحجية، وعبور دنيانا أحجية.

أطلق الجليس آهة وجع. قال بعد صمت:

ـ الحقّ أني لم أتنازل عن كبريائي لآتيك بعد لقاء الفراق لو لم تلد لنا الأحجية التي تتحدّث عنها أحجية أخرى.

لاذ الداهية بالصمت فأكمل الزائر:

ـ لا أريد منك إلاّ أن تعترف للمجلس بقدرتك على التحوّل.

ـ القدرة على التحوّل؟

سكت الجليس فتساءل الداهية:

ـ وماذا سيجدي اعترافي بالقدرة على التحوّل؟

تكلم «إِوَر» بحماس فجائي:

ـ سوف يجدي. إذا اعترفت بالتحوّل فسوف يستبدل بالإبعاد قصاصاً.

ـ الإبعاد؟

ـ المنفى. سوف يقضي حياته عابراً كما شئتَ له أن يحيا.

ـ وهل يعبر الإنسان بعد فوات الأوان؟

ـ لم أفهم.

سكت الداهية. قال بعد صمت:

ـ ولكن بأيّ حقّ يستبدل القصاص إذا كانت نتيجة الجُزم في كلا الحالين واحدة؟

ـ العقلاء يرون أن ذلك سوف يهوّن القصاص كثيراً.

ـ هل تريد أن تقول إن ناموسكم يجد فرقاً بين قتل امرأة وبين قتل رجل؟

ـ كلاّ.

ـ أم أنه يجد فرقاً بين غريب وصاحب دار؟

ـ كلاّ.

سكت «إور». قال بعد قليل:

ـ في الأمر سرّ آخر لن أبخل به عليك إذا حدّثتني بسرّ التحوّل.

ـ ها ـ ها.. هل هي صفقة؟

ـ كل شيء في دنيانا صفقة.

ـ كيف تريدني أن أعترف بما لم أفعل؟

ـ لا تخذلني؟

تبادلا نظرة. لمعت مقلتاهما في ضياء الأنجم السخّي فقرأ كلّ منهما في عين جليسه نبوءة. قال «إور»:

ـ سوف أحدّثك بسيرة.

لم يجب الجليس فأضاف كبير القوم:

ـ منذ سنوات بعيدة عندما كانت الصحراء تختنق بالكلأ والقبائل عاش حيمان. كانا لا يطيقان أن يحيا أحدهما بعيداً عن الآخر برغم أنهما لا يلتقيان إلاّ لكي يتنافرا. وكان من حبهما لبعضهما أن أحدهما لا يعشق إلاّ المرأة التي عشقها القرين الآخر. وقد اقترن أحدهما مرّة بحسناء من قبيلة مجاورة أنجب من بطنها وليداً وحيداً كان كل ما امتلك في دنياه كلّها. ولكن المرأة اعترفت له بأبوّة القرين للولد في أوّل شجار نشب بينهما. ظنّ القول أكذوبة لفّقتها لتحرق قلبه على عادة النساء في تحويل الأكذوبة حقيقة كما يحوّلن الحقيقة أكذوبة، ولكنها ذكّرته بالثعبان الذي وجده يوماً يلتفّ حول جسدها ثم انقشع عنها كما ينقشع السراب. قالت إن ما رآه يومها لم يكن ثعباناً إلاّ في بصره، ولكنه في الحقيقة قرينه اللدود الذي أنجبت من صلبه الولد. وعندما رأت الشقوة في عينيه قالت إنها فعلت ذلك من أجله أيضاً لأن العرّافة حدّثتها بانتمائه إلى تلك السلالة من الرجال التي لن يكتب لها أن تأتي إلى الصحراء بالذرية أبداً. فهل تدري ماذا فعلت تلك الجنيّة يوم عيّرها رجلها بفعلتها عند أوّل شجار تلا الاعتراف؟

رفع رأسه إلى الأنجم. أطلق أنّة شجن. قال ورأسه ما زال معلقاً في الفراغ المزروع بالنجوم:

ـ ذهبت بالوليد إلى المرعى وتركته في قطيع لقبيلة مجاورة. وعندما استنطقها قالت له إنها فعلت ذلك لتحرق قلبه لأنها امرأة تستطيع أن تأتي إلى الصحراء بالذرية، ولكنه لن ينال ذريته أبداً.

سكت. ولكن بصره استمرّ يتشبّث بالفضاء الأعلى. تساءل بعدها بصوت غائب:

ـ هل تدري من كان ذلك القرين؟

ـ لست عرافاً حتى أعلم.

قال «إور» بلا اكتراث:

ـ ذلك القرين هو أنا!

تشبّث الداهية بالصمت، ولكن الراوية أضاف بلا مبالاة أيضاً:

ـ وهل تدري من كان الحميم الذي أنجبت منه المرأة وليدها؟

لم يجب الجليس فأكمل الراوية:

ـ إنه أنت!

ـ أنا؟!

ـ لقد وجدتك تلتفّ حولها كالثعبان فلماذا تنكر قدرتك على التحوّل؟

ـ ها ـ ها. .

ولكن الراوية استمرّ يفكّ طلاسم نبوءاته في نجوم السماء:

ـ وهل تدري من هو هذا الوليد الذي أنجبته من بطن امرأة الحميم؟

تأهّب الداهية ولكنه لم يجب. في حين لم يتأخر الراوية بالنبوءة:

ـ إنه الأبله!

هتف الداهية بلا إرادة:

ـ كلاّ!

ـ صدّق أو لا تصدّق. ولكن «إدهي» سليلك!

سكت ثم أضاف:

ـ كما هو سليلي أيضاً!

ـ هل ابتدعت السيرة كي تحمّلني على الاعتراف بقدرتي على التحوّل؟

ـ أنت نفسك لا تصدّق أني أستطيع أن اختلق السيرة، فلماذا تكابر؟

عاد الراوية من رحلته إلى السماء فساد السكون. قال الداهية:

ـ لا أخفي عليك. لقد أحسست بميل إلى الأبله كما لم

أحسّ بميل إلى إنسان. فهل هذا ما يسمّى في لسان القوم أبوّة؟

- بالاعتراف لن تنقذ سليلي وحده، ولكنك ستنقذ سليلك أيضاً.

- لا أصدّق أن اعترافي بالتحوّل سوف يجدي.

- ثق بأنه سوف يجدي.

- ما الذي يحمّلك على هذا اليقين؟

سكت «إور». طاف الفراغ الملفوف بالعتمة. قال فجأة:

- لأنك إذا اعترفت فسوف أعترف أيضاً.

- تعترف؟

- اعترافك لن يجدي حقّاً إن لم أعترف!

سكت الداهية فأوضح الزائر:

- ألم تقل يوماً بأننا لا نميت إلاّ من أحببنا، ولا نحيي إلاّ من كرهنا؟

- قلت ذلك دائماً.

- لقد حرّضتُ الأبله. لقد دفعته لأن يرفع يده عليك!

لم يستنكر الداهية. قال ببرود:

- انتظرت أن تفعل ذلك يوماً لأن الانتقام هو القصاص الذي نناله جزاء الإحسان.

- لقد اتفقنا منذ قليل أن ما فعلته يوم أحييتني بعد موت لم

يكن إحساناً. ولكن ثق أن اعترافي في المجلس بتحريضي للأبله سوف يقلب الأمر رأساً على عقب شريطة أن يسبقه اعترافك. ساد السكون. حرث الداهية الأرض بسبّابته. حفر رمزاً مبهماً قبل أن يقول:

- لا أظنّني أستطيع أن أفعل.

- هل تسلّم رقبة سليلك إلى حبل المسد مقابل استبقاء الاستكبار المزوّر؟

- عدم الاعتراف بالقدرة على التحوّل سرّ وليس تظاهراً باستكبار.

- ولكن السليل..

- الأبله سليلك أنت لا سليلي.

- سليلك أيضاً: سليلي بالقلب، ولكنه سليلك بالدّم.

- لم أشأ أن يرثني في الصحراء سليل يوماً.

- ماذا تقول؟

- لم أكن لأفوز بلقب الدهاء لو لم أرفض أن أترك أثراً في الصحراء ورائي.

سكتا. انتظر الزائر طويلاً قبل أن يتكلّم:

- سمعنا بأبناء يضحّون بآباء، ولكنّا لم نسمع بآباء يضحّون بأبناء.

- عسير أن نغتفر لابن رفع مدية لينحر أباً.

- الغفران سرّ سعادتنا. ويل لمن لم يتعلّم الغفران في دنيانا.

- يستطيع الأب أن يغفر، ولكن الخفاء لن يغفر حتّى لو غفر الأب.

- هل هذه هي كلمتك الأخيرة؟

- لا أستطيع أن أستهين بناموسي.

- عن أيّ ناموس تتحدّث؟

- لا يجب أن نحيي إلاّ من كرهنا، ولا يجب أن نميت إلاّ من أحببنا، فهل نسيت؟

٤ ـ الرسـول

في الليلة التي سبقت إنزال القصاص بالأبله هبّ على الواحة عجاج. ولم يكن هبوب العجاج ليستثير القوم لو لم يخالف عجاج ذلك اليوم ناموس العجاج. فقد تنفّست به مجاهل الصحراء الغربية ليلاً محمّلاً بسحب كثيفة من الغبار مخالفاً بذلك وصيّةً قديمة تناقلتها الأجيال تستنكر فيها الريح الغربية المسير ليلاً في قولها المأثور: «لست عبداً كالعبيد حتّى أسري ليلاً». ولكن رياح الغرب سَرَت ليلاً هذه المرّة. سَرَت ليلاً لأوّل مرّة. سَرَت بحقد لم تعرف له الواحة مثيلاً. حقد لم يتجلّ في عنف العجاج وحسب، ولكنه تبدّى في كثافة الأتربة التي حملها الريح أيضاً. فقد انفلت بعد المغيب بقليل كمارد الجنّ. وغزا الواحة بشراسة لم تعرفها حتى في حملات النهب التي تعرّضت لها عبر تاريخها القديم. ظلّ ينوح نواحاً موجعاً طوال الليل فقرأ أهل العرفان في النواح شؤماً. طار بأكواخ الأطراف ونزع سقوف الأبنية، وأطاح ببعض الجدران. في

الصباح تبدّى في الأفق قبس النهار، ولكن الغبار ما لبث أن أعار للواحة الليل، فسادت الظلمة مرة أخرى، وزأر في خلوات الواحة الريح من جديد. هام الأهالي على وجوههم بحثاً عن الأهالي فصرعهم المارد في الطرقات. حاول آخرون أن يخرجوا ليتفقّدوا أنعامهم فاعترضهم في منتصف السبيل، ولم يهنأ له بال إلاّ بعد أن اختطف من بينهم ضحايا. بعد نيل القرابين هدأ كأنه قرّر أن يستمهلهم قليلاً. ولكنها مهلة كانت مريبة لأن الفضاء استمرّ محتقناً كئيباً كعدوّ تراجع لا استسلاماً ولكن كي يستجمع قواه للانقضاض. ولكنها مهلة كانت كافية كي يكتشف فيها القوم ما حلّ بأرضهم من خراب. فقد تناقل الناس الأنباء التي تحدّثت عن هلاك المواشي، وتحطم أشجار النخيل، وزحف السيوف الرملية الجنوبية على العين، وارتدام النباتات تحت الأتربة. وكان يمكن أن يرى الأهالي في زحف الرمال على العين بلاءً أكبر لولا انشغالهم في تلك المهلة بتفقّد المفقودين الذين ذهب بهم الريح إلى المجهول. في ذروة تلك البلبلة بذل العرّاف جهداً بطولياً في لم شمل العقلاء للنظر على عجل في أمر البلاء، ولكنه لم يوفّق إلاّ في الوصول إلى الحكيم الذي اصطدم به في منتصف الطريق. شدّه إلى بدنه بحبل المَسَد ثم دخل به أقرب بنيان. كان بيتاً مهجوراً، طار سقفه كلّه، ولكن جدرانه صمدت في وجه الريح. قال «إيلي»:

ـ استنكرنا بلاء الماء، وها هو البلاء الأسوأ من الوباء.

قال «يزّال» وهو يعتصم بجدار البيت الغربي فيجرّ وراءه قرينه:

ـ لا يهون بلاء إلاّ إذا نزل البلاء الأسوأ من البلاء.

ـ يجب أن نعجّل بالوصول إلى الأقران.

ـ بل يجب أن نعجّل بالقصاص!

وَلوِل الريح في هجمة على الجدار فتساءل الحكيم بصوت عالٍ:

ـ أي قصاص؟

فأجاب العرّاف وهو يلوذ من غمر الغبار بقامة الجدار:

ـ كل من تلكّأ في استنزال القصاص نزل على رأسه القصاص.

ـ هل تريد أن تقول: إن العجاجة لعنة نلناها بسبب تأخرنا في الاقتصاص من الأبله؟

ـ إذا وعدت الخفاء بقربان فعجّل. هذا ما ورثناه في الناموس الضائع.

ـ الكثيرون ضد ما ترى.

ـ الأكثرية حفنة أشقياء لا ترى ما يجب أن يُرى أبداً.

ـ يقولون إن الريح غضبة الخفاء بسبب الحكم على الأبله.

ـ هراء. لا يغضب الخفاء إلاّ إذا طلب القربان.

ـ لقد انتزع قرابيناً كثيرة. بل ها قد صارت له الواحة كلّها قرباناً.

ـ إذا بخل الناس على الخفاء بالقربان الهيّن، نال رغم أنف الناس القربان المهول.

زأر الريح فصاح العرّاف:

ـ إنه يتوعّدنا. إذا لم نعجّل فسوف يأتي دور الجدران. ألم تسمع بالقبيلة التي بخلت على الخفاء بنحر جدي فسلّط عليها رسوله الريح ليهلك القبيلة كلها؟ الريح دائماً رسول خفاء فانتبه! رفع الحكيم رأسه ولكن هبّة دفعته فارتطم جبينه بصدر القرين. غمغم في صدر العرّاف:

ـ لا أخشى عليك من شيء كما أخشى عليك من الناموس!

زعق العرّاف:

ـ وهل يُخشى على إنسان من الناموس؟

ـ يخشى على الإنسان من الناموس لأن نبوءة الناموس نبوءة مكبّلة!

ـ هل قلت: مكبّلة؟

ـ النبوءة حقيقة ما ظلّت إِلْهاماً. النبوءة حقيقة ما ظلّت طليقة، فإن حبسناها في القمقم تنكّرت لنفسها.

ـ النبوءة نبوءة في كل مكان. النبوءة نبوءة في كل زمان. لا سلطان على النبوءة لا من المكان ولا من الزمان.

ولكن الحكيم استبسل برغم هجمات الريح:

ـ النبوءة خطر حتّى لو لم يجرِ بها الزمان، فكيف إذا عَبَر بها الزمان؟

ـ لم يكن ليدهشني أن أسمع هذا من أغيار، ولكن ما يدهشني أن أسمع هذا من حميم.

هأهأ الحكيم بضحكة مريبة قبل أن يتمتم:

ـ خطيئة أن يدهشنا شيء جرى به الزمان. الزمان هو الذي تكلّم في لساني فلا تلمني!

٥ ـ القصاص

في يوم القصاص جاء الأعوان بالأبله مسربلاً في القيود فرفر الريح في وجه الركب أنفاساً سخيّة من غبار، فاحتجب الرجال عن الرجال حتّى أنهم لم يجدوا حيلة إلاّ النداء كي يهتدي بعضهم إلى البعض. وراء الرابية التأم العقلاء في حين تغيّب كبير القوم عن الجمع.

تقدّم العرّاف من الأبله ليتلو في وجهه وصيّته التي قال إنه استعارها من الناموس الضائع:

ـ عينٌ بعين، وسنّ بسنّ، والقاتل إن لم يُقتل أنزل بالناموس الخلل!

تكلّم الحكيم في أذن كبير التجّار:

ـ يبدأ العرّاف بطلب النبوءة، ولكنه ينتهي بإكبار قناع النبوءة.

تمهّل كبير التجّار قبل أن يلتفت إلى الحكيم ليلقي في أذنه بالوصيّة قبل أن يختطفها من فمه جنون الريح:

ـ كيف لا يكبر العرّاف قناع النبوءة بدل النبوءة إذا كنّا نعرف أننا لا نمتلك شيئاً إلاّ ليموت بين أيدينا الشيء؟

صاح الحكيم:

ـ أكاد أصدّق أن الأجيال لم تخلع على الناموس لقب «الضائع» إلاّ لضياع الوصايا في الناموس بسبب موت الوصايا لا بسبب ضياع الناموس كما نتوهم اليوم.

عوى الريح ملقياً في الخلاء بأفواج جديدة من الغبار الكثيف فأومأ العرّاف للأعوان بتنفيذ القصاص. ساعتها سمع الجمع صوت الأبله لأوّل مرّة. قال بصوت بحيح، واهن، غريب، لا يشبه صوت «إدهي» الذي عرفوه في شيء:

ـ فكّوا قيدي كي أنادي مرّة.

تقدّم منه العرّاف حتى كاد أن يصدمه بعمامته. سأله بدهشة:

ـ من تريد أن تنادي؟

أجاب الأبله بذات الصوت:

ـ مولاي!

استهجن العرّاف بسؤال قاطع:

ـ وما فائدة أن تنادي أباً أنكرك.

تمتم الأبله:

ـ أنكرني أب الدنيا المزعوم، ولن ينكرني مولاي!

تردّد العرّاف لحظات. التفت نحو جمع العقلاء فحالت بينه وبينهم موجة غبار جديدة. أومأ للأعوان أن يفكّوا قيده.

فكّ الأعوان قيد الأسير فوقف بينهما هزيلاً، وحيداً، مهجوراً، منكس الرأس.

صاح العرّاف:

ـ تستطيع الآن أن تنادي طليق اليدين والقدمين!

ولكن النداء لم ينطلق من لسان الأبله. لم يبدُ أنه ينوي أن يتنحّى جانباً أيضاً كي يختلي بندائه. ظلّ منتصباً بينهم كشبح، منكس الرأس، ينحسر اللثام عن وجهه، ويغمر الغبار عينيه وشفتيه وأنفه. همّ العرّاف أن يعيد، ولكن زئيراً منكراً اختطف من فمه العبارة وكاد يصيب أذنيه بالصمم. بعد الزئير المنكر اجتاحتهم قوّة ماردة طوّحتهم بعيداً. طوّحتهم في غمضة، فتدافعوا وتصادموا في البداية. ولكنهم تشتتوا وفقدوا السبيل إلى بعضهم البعض في المسافة التالية. لم يتنادوا لا بسبب الزئير، ولكن بسبب الفجاءة. فرّقهم العجاج. طار بهم مارد الريح في الفراغ بعد أن شتّت شملهم في الأرض. وكان عليهم أن يقطعوا مسافات طويلة كي يهتدوا إلى بعضهم من جديد.

اهتدوا إلى بعضهم البعض، ولكنهم لم يعثروا للأبله على أثر.

في اليوم التالي انقشع غمام الغبار وتوقّف الريح نهائياً، فانطلق الناس يبحثون عن المفقودين الذين طار بهم العجاج فعثروا على البعض أحياء، وعثروا على آخرين أمواتاً، ولكنهم لم يعثروا للأبله على أثر.

٦ ـ الخروج

بعد يومين التقى كبير التجّار بصاحب الأتان عند السيوف الرملية التي استقدمها الريح فشطر بها الواحة نصفين. قال كبير التجّار ممازحاً:

ـ طارت كل سقوف البيوت إلاّ سقف الغريب.

فرد الداهية بلهجة خبث:

ـ لا تطيّر الرياح سقوف بيوت لا سقوف لها.

حدج «آجار» باستخفاف قبل أن يضيف:

ـ أقبية الأضرحة لا سقف لها!

ولكن كبير التجار قفز إلى سؤال آخر:

ـ ألم يصرعك مارد الريح؟

ـ على مارد الريح أن يحفر الأرض طويلاً كي ينفذ إلى المخلوق الذي تحصّن بالقبور!

حدجه «آجار» بارتياب. تساءل بخبث:

ـ ولكني جئت للاطمئنان عليك فوجدت القبو خاوياً.

ـ القبو مكان، وصاحب الأتان لا يسكن المكان.

ـ لا تسكن المكان؟

ـ من يسكن العبور هيهات أن يسكن المكان.

ابتسم كبير التجار وهو يدبّ إلى جواره مطاطئاً متابعاً

الانقلاب الذي أحدثه العجاج في تكوين الار س. قال دون أن يرفع رأسه:

- أكاد أجزم بأن الريح من صنع يديك.

تساءل الداهية بلا مبالاة:

- ما الذي يحمّلك على ظنّ كهذا؟

- لأنك بإطلاق مارد الريح استطعت أن تأتي على البقية الباقية من أنقاض الواحة.

- لم احتكم إلى أعمال السّحر يوماً.

حدجه بارتياب مرّة أخرى. قال بلهجة تخفي إيماء:

- كيف لا تحتكم إلى الأسحار إذا كنت قد أوتيت من علم التحوّل ما لم يؤته أدهى السحرة؟

- ها أنت تردّد دسيسة كبيركم «إور».

- لم تكن تلك دسيسة. لقد قال ذلك في المجلس في محاولته الأخيرة لإنقاذ حيمه الأبله.

- هل حاول أن يفعل ذلك حقّاً؟

- لقد اعترف بكل شيء برغم أن اعترافه لم يجده شيئاً.

لاذ الداهية بالصمت. قال بعد مسافة:

- هل اعترف بأبوّته للشقيّ أيضاً؟

حدجه «آمجار» خلسة. تمتم:

ـ بلى.

ـ هل ادّعى أبوّتي للشقيّ؟

حدجه كبير التجار من وراء اللثام فالتقت نظراتهما. أومأ له بالإيجاب فتساءل الداهية:

ـ ماذا قال في مرافعته أيضاً؟

ـ تحدّث عن سيرة التحوّل.

ـ هـراء.

ولكن «إدهي» سليلك المفقود أليس كذلك؟

ـ لا نستعيد إلاّ ما نفقد.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول إني أكملت لكم وصيّتي، ورضيت لكم العبور يقيناً.

ـ هل هذه كلمة وداع؟

ـ في الغد سأمتطي أتاني وأسلّم زمام أمري لسلطان العبور من جديد.

سحب «آمجار» نفساً عميقاً. قال بيأس:

ـ سأفتقدك كثيراً. سأفتقدك كما لن يفتقدك أحد في هذه الواحة المنكوبة!

ـ لن تفتقدني، لأنك ستلحق بي قريباً.

أطلق كبير التجار أنين وجع. قال:

- صدقت. سنلتحق بالركب كلنا عاجلاً أم آجلاً.

- بل عاجلاً.

صمت ثم أضاف:

- هل نسيت ما فعله الريح بالعين؟

- شكونا فساد الماء، وها نحن نشكو فقدان الماء!

قال الداهية وهو يرفع رأسه إلى الأفق الشمالي البعيد:

- أمّا أنا فسوف أستنطق أتاني لتقول ما قالته أتان الأجيال عندما ارتوت من ماء البئر كما يروي لنا الناموس: «الآن فليتمزّق الدّلو، ولتنقصم البكْرة، وليتهدّم البئر!». فهل بلغتُ؟

هونيباخ (الألب السويسري)

سان ريمو (إيطاليا)

طرابلس (ليبيا)

٢٠٠٣ م

مؤلفات إبراهيم الكوني

١ - الصّلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص)، ١٩٧٤ م.
٢ - جرعة من دم (قصص)، ١٩٨٣ م.
٣ - شجرة الرتم (قصص)، ١٩٨٦ م.
- رباعية الخسوف، ١٩٨٩ م.
٤ - البئر (رواية).
٥ - الواحة (رواية).
٦ - أخبار الطوفان الثاني (رواية).
٧ - نداء الوقواق (رواية).
٨ - التبر (رواية)، ١٩٩٠ م.
٩ - نزيف الحجر (رواية)، ١٩٩٠ م.
١٠ - القفص (قصص)، ١٩٩٠ م.
١١ - المجوس (رواية)، الجزء الأول ١٩٩٠ م.
١٢ - المجوس (رواية)، الجزء الثاني ١٩٩١م.
١٣ - ديوان النثر البرّي (قصص)، ١٩٩١ م.
١٤ - وطن الرؤى السماوية (قصص)، ١٩٩١ م.

١٥ ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص)، ١٩٩٢ م.
١٦ ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير)، ١٩٩٤ م.
١٧ ـ الفم (رواية)، ١٩٩٤ م.
١٨ ـ السحرة (رواية)، الجزء الأول ١٩٩٤ م.
١٩ ـ السحرة (رواية)، الجزء الثاني ١٩٩٥ م.
٢٠ ـ فتنة الزؤان (رواية)، ١٩٩٥ م.
٢١ ـ برّ الخيتعور (رواية)، ١٩٩٧ م.
٢٢ ـ واو الصغرى (رواية)، ١٩٩٧ م.
٢٣ ـ عشب الليل (رواية)، ١٩٩٧ م.
٢٤ ـ الدمية (رواية)، ١٩٩٨ م.
٢٥ ـ صحرائي الكبرى (نصوص)، ١٩٩٨ م.
٢٦ ـ الفزاعة (رواية)، ١٩٩٨ م.
٢٧ ـ الناموس، (الجزء الأول) ١٩٩٨ م.
٢٨ ـ في طلب الناموس المفقود: (الجزء الثاني من الناموس)، ١٩٩٩م.
٢٩ ـ سأسِرُ بأمري لخلانّي الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، ١٩٩٩ م.
٣٠ ـ أمثال الزمان، (الجزء الثالث من الناموس)، ١٩٩٩ م.
٣١ ـ سأسرُ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلْبال، ١٩٩٩ م.
٣٢ ـ سأسرُ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلّب، ١٩٩٩ م.

٣٣ ـ وصايا الزمان، ١٩٩٩ م.

٣٤ ـ نصوص الخلق، ١٩٩٩ م.

٣٥ ـ ديوان البر والبحر (نصوص)، ١٩٩٩ م.

٣٦ ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية)، ٢٠٠٠ م.

٣٧ ـ نزيف الروح (نصوص)، ٢٠٠٠ م.

٣٨ ـ أبيات (نصوص)، ٢٠٠٠ م.

٣٩ ـ بيتٍ في الدنيا وبيت في الحنين (رواية)، ٢٠٠٠ م.

٤٠ ـ رسالة الروح (نصوص)، ٢٠٠١ م.

٤١ ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان)، جزء ١، (أوطان الأرباب)، ٢٠٠١ م.

٤٢ ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان)، جزء ٢، (أرباب الأوطان ١) ٢٠٠١ م.

٤٣ ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان)، جزء ٣، (أرباب الأوطان ٢) ٢٠٠١ م.

٤٤ ـ المحدود واللاّمحدود (نصوص)، ٢٠٠٢ م.

٤٥ ـ أنوبيس (رواية) ٢٠٠٢ م.

٤٦ ـ مقدمة في ناموس العقل البدني، (الجزء الرابع من «بيان في لغة اللاهوت»).

٤٧ ـ لحونٌ في مديح مولانا الماء (متون)، ٢٠٠٢ م.

٤٨ ـ منازل الحقيقة (متون)، ٢٠٠٣ م.

٤٩ ـ أسطورة حبّ إلى سويسرا «رأس الحكمة» (متون)، ٢٠٠٣ م.

٥٠ ـ البحث عن المكان الضائع، (رواية)، ٢٠٠٣ م.

مؤلفات ابراهيم الكوني النظرية

٥١ ـ ثورات الصحراء الكبرى، ١٩٧٠ م.

٥٢ ـ نقد ندوة الفكر الثوري، ١٩٧٠ م.

٥٣ ـ ملاحظات على جبين الغربة، ١٩٧٤ م.

IN SEARCH OF THE LOST PLACE

رواية
NOVEL



البحث عن المكان الضائع

ـ إحياء الأموات خطيئة ، ولكنّ إنقاذ من أشرف على الهلاك ، في رقبة الأخيار، دين .

ـ أنت لم تعلم أنّي لم أشرف على الهلاك يومها . أنت لم تعلم أنّي اجتزت البرزخ يومها ، فلماذا أحييتني بعد هلاك ؟

ـ أنجزت ديْناً لن أندم عليه أبداً .

ـ لماذا أهلكتني بعد أن أراحتني الأقدار ؟

لم يجب الداهية . مضى يحدّق في الظلمة مولّياً ظهره للشبح المنتصب فوق رأسه. سمع زفير الشبح . سمع أنفاسه ، لهاثه ، دقّات قلبه ، يقينه ، لهفته ، صوته المكتوم كحشرجة الحيّة :

ـ أحياني الخفاء يوم نفاني . وقتلني يوم أنقذني ، فلماذا ؟ لماذا ؟

تململ في جلسته لأوّل مرّة . هبّ واقفاً . خطا نحو قرينه القديم خطوة . خطا خطوتين . اقترب حتّى كاد يدهمه بصدره ، حتّى لامسه بعمامته . نفث في وجهه أنفاساً حارّة قبل أن يلقي في وجهه نبوءته :

ـ ألم تعلم أنّي لا أميت إلاّ من أحببت ، ولا أحيي إلاّ من كرهت ؟

ISBN 9953-36-040-5

